موم : واحد من العظماء

موم : واحد من العظماء

اذا احتفظت بهذه العبارة وأنت تقرأ هذا المقال كان من السهل عليك أن تعرف من هو هذا الأديب العالمي الإنجليزي سومرست موم . العبارة : أروع ما في الحياة : حرية القول وحرية العمل .

وهو نموذج لما تفعله القسوة الاجتماعية في طفل شديد الحساسية . أي ما تفعله النار والجليد بلوح الزجاج الشفاف الرقيق .

أبوه كان سفير بريطانيا في فرنسا . فهو ولد في فرنسا . وكانت اللغة الفرنسية هي لغته الأولى . وتوفيت أمه وهو في الثانية من العمر . وأبوه توفي بعد ذلك بثلاث سنوات . فانتقل إلى لندن ليكفله عمه . وهو من رجال الدين المتزمتين . أي انتقل من باريس إلى القسيس !

وأصبحت دنياه خالية تماما من العطف والحنان والأصدقاء . ولم يستطع موم الصغير أن يعترف لعمه بأنه يريد أن يتفرغ للقراءة والكتابة وأنه لا يريد أن يكمل تعليمه . وانشغل عنه عمه تماما . ورأى أن يبعث به إلى ألمانيا . وسافر إلى ألمانيا . وكان على حريته تماما . وعرف أشكالا وألوانا من العلاقات الجنسية .. العادية والشاذة . وكان يميل إلى غير العادية .

وبعد سنوات عاد إلى بريطانيا . وقرر عمه أن يتخذه كلية الطب . وتخرج طبيبا . ولكنه قرر في نفس الوقت أن يكون أديبا .. وفي الثالثة والعشرين من عمره ظهر له أول عمل أدبي .

وبعد عشر سنوات كانت له أربع مسرحيات على مسارح لندن . وأصبح ظاهرة أدبية . وتوالت قصصه الصغيرة وروايته ، ولم تعرف اللغة الإنجليزية أديبا له هذه الشعبية بعد الروائي العظيم تشارلز ديكنز .

وهذا حوار خاطف بينه وبين عمه القسيس كان كافيا لأن يفترق الرجلان ، فلا يرى أحدهما الآخر .. حتى الموت ـ مونهما :

ـ قال القسيس : إنك لا تذهب إلى الكنيسة .

ـ قال ابن الأخ : وأنت لا تذهب إلى المكتبات العامة .

ـ قال القسيس : وأين تذهب من الله ؟

ـ وأنت أين تذهب من الناس !

ـ لماذا لا تتزوج ؟

ـ لو وجدت شابا مناسبا لتزوجته .

ـ تقول شاب مناسب ؟

ـ إننى أمزح معك .

ـ وهل نمزح مع من هو فى مثل سنى ومكانتى ، بهذه الصورة النابية ؟

ـ المزاح الذى يبعث على الضحك هو الذى يكون نابيا .

ـ ما كان من الواجب أن يموت أبوك فى هذه السن المبكرة .. فمازال فى حاجة إلى رعايته !

ـ كنت أحتاج إلى رعايته لأكون فى غنى عن رعايتك !

واندفع القسيس ووراءه الباب .. وخرج ولم يعد ـ بل لا أحد قد عاد بعد ذلك : لا موم الصغير ولا عمه . وانقطعت هذه العلاقة . وسافر موم إلى فرنسا يتنقل بين أركان الأرض .. فنانا غنيا شديد الحساسية واسع الخيال . لديه هذه القدرة الهائلة على أن يلتهم أعقد المشاكل ، وأن يحولها إلى خيوط حريرية معقدة . فأنت تقرأ ما كتبه عن الهند وآسيا والديانات القديمة ، وتسمع فى سطوره ، سجع الكهان ، ويخيل إليه أنه راهب عريان وأنه خالى الجوف حتى يكون لكلماته رنين فى أعماقه .. كيف ؟ هذه ميزته العظمى .

وهو يصف نفسه قائلا : جلست طويلا .. وتساقطت الكتب من يدى كأوراق الشجر .. أى أنه قرأ كثيرا من الكتب الواحد بعد الآخر . وكان من عاداته إذا قرأ كتابا ألقى به على الأرض .. وكان يجد متعة فى أن يرى الكتب قد افترشت غرف الفيلا الأنيقة التى كان يملكها على ساحل الريفيرا الفرنسية .

وعلى الرغم من أنه كان يجد لذة كبرى فى أن يتكلم - فهو يتكلم لكى يفكر أيضا - وأعظم أعماله الأدبية هى التى رواها مرة ومرة لزواره ، فهو لا يروى ، ولكنه ينهباً للكتابة - فقد كان يتلعثم فى النطق - وقد أصابته ، التأتأة ، بسبب اضطراباته النفسية ومنازعاته مع عمه ومع الظروف الاجتماعية القاسية .. وشعوره العميق بالخجل .. وتحدث الناس عن ذلك .. وتعمق لديه الشعور بالخجل . ودفعه الخجل إلى العجز عن الكلام .. والاضطراب النفسى وتلعثم لسانه وحركته أيضا .

وكان غنيا جدا وبخيلا جدا أيضا . وهو الذى يقول : إن الفلوس مثل الحاسة السادسة ، لا غنى لها عن بقية الحواس الخمس .

ويقول : أن تدعو إنسانا إلى بيتك ، وأن تدعوه إلى العشاء وأن تحدثه عن تجاربك فى الحياة والفكر ، كيف لا تستحق الأجر عن كل ذلك ؟!

وهذا الرجل الخجول جدا الهادىء جدا ، رجل شجاع جدا . فقد سقطت به سيارة ، وتحطمت وخرج منها ينفض التراب والهباب فسألوه إن كان مخمورا ؟ فأجاب : لا . سألوه إن كان قد تعاطى حشيشا مخدرا ؟ وكان رده : لا . إذن كيف لم يضطرب .. كيف لم يقلق ؟ لا شىء .. وإنما خرجت منه هذه العبارة : الموت كالإمساك ، من ضمن متاعب الجسد .. فلماذا الخوف ؟

وهو لم يخف من الموت ، وإنما هو صفى حسابه مع كل متاعب الحياة ، واستعد لاستقبالها لأنها قدر ، ولأنه لابد أن يجد ما يكتبه !

وفى حياته غراميات نسائية معروفة . فهو أحب إبنة الفيلسوف الروسى الفوضوى كروباكتين . وكان لاجئا فى لندن . وتقدم للزواج منها فرفضت ، وعرف فتاة يهودية ، زوجة لرجل غنى جدا . وكان زوجها المليونير ولكوم يبعث وراءها بمن يتقصى أخبارها ، وعرف أنها على علاقة بالأديب موم . فأكرهها على الطلاق .

وكانت هذه الزوجة نموذجا لمن لا يحب أن يتزوجها الأديب أو الفنان : عالمها محدود لا يشغلها شىء إلا الأكل والشرب والضيوف . وهى لا تعرف بالضبط ما هو عمله . ما هو همه . ما الذى تستطيع أن تعمله له . أن تقوله . إنها إذا أضاءت مصباحها فى غرفة النوم . وإذا نامت فلابد أن يكون فى أحضانها .. فهى لا تطيق أن تراه يكتب . ولا تطيق أن تنام وحدها .

كان يصفها فيقول : إنها شهية مفتوحة . شباب وحيوية .. وفراغ شديد !

ولما وجدت الإبنة البرايبيث أن والدها يسرف في الإنفاق على الشبان في جميع أنحاء العالم ، رفعت أمرها إلى القضاء . وكان الأب موم قد حرمها من الميراث وأنكر بنوتها ، وتبنى شابا أمريكيا .. وحكمت لها المحكمة . فألغى الأب موم بنوته لهذا الشاب !

وفي إحدى روايات موم يصف هذا الذي بينه وبين إبنته فيقول : فيها كثير من الشبه مني ومن أمها .. وهي مثل أمها تحب الزواج . وهي مثلنا نحن الإثنين : لا يطيق أحدنا الآخر .. وكما انها أسوأ إبنة ، فسوف تكون أسوأ زوجة .. وإذا كنت لا أعرف كيف جمعت مالي ، فهي تعرف كيف تبدده .. وإذا كان عمري قد طال ، فلم يعد عندي وقت للندم ، فسوف يطول عمرها لتستمتع بكل ما تركت لها .. هي حافدة علي ، وأنا أكثر !

● ● ●

كان ذلك في سنة ١٩٥٤ وكان سومرست موم قد بلغ الثمانين من عمره . ولم أكن أعرف ذلك . وإنما فقط وجدت إحدى المجلات النسائية تحتفل بعيد ميلاد الكاتب العالمي . وقرأت المقال . ووجدت شيئا غريبا . كان غريبا في ذلك الوقت فقد كنت في العشرينات من عمري ، حديث العهد بأشياء كثيرة . أما هذا الشيء الذي أدهشني فهو أن الأديب موم كان يعمل جاسوسا لبلاده في سويسرا وفي روسيا . ووجدت أنه هو الذي يقول ذلك . وقرأت العبارة ولم أجد علامة استفهام أو علامة تعجب . شيء غريب ألا يعتذر عن ذلك ، أو ألا يتوقع استنكارا من أحد القراء !

وفجأة نشرت وكالات الأنباء أن الأديب موم في طريقه إلى القاهرة . وجاء ونزل في فندق « سميراميس » . واتصلت تليفونيا . وردت سكرتيرته . وقدمت لها نفسي على أنني أديب شاب ، ومن أشد الناس إعجابا بالكاتب الكبير .

أما أنني أديب شاب فصحيح . أما أنني من أشد المعجبين به فليس صحيحا . فلم أكن أعرفه جيدا . ولم أقرأ حتى ذلك الحين إلا كتابه الرائع « عشرة روائيين » اختارهم كأحسن مؤلفي الرواية في الأدب العالمي وهم : تولستوي

فى روايته « الحرب والسلام » وديستوفسكى فى روايته « الإخوة كرامازوف » وفلوبير فى روايته « مدام بوفارى » وبلزاك فى روايته « الأب جوريو » واستندال فى روايته « الأحمر والأسود » وسرفانتس فى روايته « دون كخوته » .

وفكرت فى ترجمة هذا الكتاب . وجلست أنقل المقدمة وفوجئت بأديب آخر قد أعلن أنه شرع فى ذلك . وأنه بلغ نصف الكتاب . فتوقفت . وسارعت أقرأ عن سومرست موم فى الكتب التى عندى . وتجمع لدى قدر كبير من المعلومات عن الرجل وأعماله .

- وقالت لى السكرتيرة : ولكنه مريض .

- قلت : إذن أراه . وألتقط صورة معه ، وأكون عظيم الامتنان .

ولحظات من الصمت . لابد أنها كانت تتحدث إليه فى ذلك . ثم عادت تقول : غدا فى الثانية عشرة !

إنه إذن أول أديب عالمى ألقاه . لقد ذهبت إلى بيوت أدباء وشعراء عالميين كثيرين ، ولكن لم أر منهم واحدا . رأيت بيت وقبر الشاعر الإيطالى دانتى .. ورأيت بيت الفيلسوف الإيطالى كروفشه . وكان لى حديث مع ابنته فى نابلى ، ورأيت بيت الشاعر الألمانى جيته فى فرانكفورت ورأيت بيت الفيلسوف الألمانى هيجل فى ڤيينجن . وتغديت فى المطعم الذى كان بيتا للشاعر الألمانى هينى ، ورأيت البيت المتواضع الذى أقام فيه الشاعر الألمانى هيلدرلين على نهر السالزاخ . أقام فيه أربعين عاما . ثم دخل مستشفى الأمراض العقلية أربعين عاما أخرى . ورأيت البيت الذى أقام فيه الشاعر هيجو . والمقهى الذى جلس عليه وإليه وفيه الفيلسوف الفرنسى سارتر وصديقته سيمون دى بوفوار ورأيته عن بعد ، ولم أحد فى وجهه وعينيه المتخاصمتين ، كل واحدة تنظر إلى ناحية ، وقامته القصيرة جدا لم أجد روعة العبارة والإبداعات الفكرية التى أجدها فى رواياته وكتبه .

إذن هذا هو لقاء مع شخصية عالمية .. أنا أراه عظيما . ولا أعرف كيف دخلت إلى غرفة نومه . ولكن جاءت فتاة رشيقة جميلة لامعة تصافحنى .

وتقول لى أنه مريض .. وهو قد أسعده أن يرى أديبا شابا من مصر ..

. فقلت : شكرا لك .. وله .

وتقدمتنى . ووجدت الأديب هوم .. دعنى أصفه لك ..

انه مكوم فى مقعد كبير .. الوجه مكرمش والعينان مرهقتان .. خفيف شعر الرأس كبير الذقن . ممطوط الشفتين . وقد ملأ النمش وجهه ويديه المرتعشتين .. مد يده فصافحته . وشكرته . وكأنه كان يتوقع منى كل ذلك . وقلت له : أشكرك سيدى الكاتب العظيم على أنك وافقت على هذا اللقاء .. فأنت أول أديب عظيم أقابله فى حياتى .

ثم حاولت أن أبدو كبيرا فى نظره .. أى أن أضيف إلى نفسى شبرا فى الطول ، وشبرا آخر فى العرض .. وأعلو على الأرض شبرا ثالثا فقلت : إننى الناقد الأدبى لأكبر صحيفة فى العالم العربى .. وأنا تخصصت فى الفلسفة الوجودية وأقوم بتدريسها فى الجامعة .. ولكن هوايتى وحرفتى الأدب .. وكنت أنظم الشعر ، ولم أمض فى ذلك طويلا .. وكان والدى شاعرا .. الخ .

ولا أظن أن شيئا من رد الفعل قد بدا على وجه الرجل : فمن أكون أنا فى دنياه ؟!

ونظرت عيناه تتطلعان ناحيتى وتنتظران السؤال أو الهدف من هذه المقابلة .. وفجأة وجدت المناسبة قلت : سيدى الأستاذ الكبير لقد قرأت فى مجلة ، المرأة اليوم ، البريطانية أنك كنت جاسوسا فى الحرب العالمية الأولى فكيف ذلك ؟

وكأننى لم أقل شيئا .. أو عندما قلت خرج الهواء من فمى وضاعت الحروف وتاهت الكلمات وتوارى المعنى خجلا .. نظر ناحيتى كأنه يريدنى أن أوضح نفسى .. وحاولت مرة أخرى .

ولابد أن هذا السؤال قد أعطاه الحجم الحقيقى لأفكارى ، والوزن الدقيق لقيمتى عنده فتحرك وجهه قليلا .. وعرفت فيما بعد أن هذه ابتسامة ساخرة .. وقال : ... (هذه النقط للدلالة على التأتأة ، وأنه لم ينطق بعد) .. أنت .. صغير .

يقصد أننى شاب ..

ثم قال : هل إذا كان الطاعون فى بلد من البلاد ، وأرادت دولتك أن تعرف ما هو فهل تبعث لذلك محاميا أو مدرسا .

- قلت : تبعث طبيبا .

- قال : أصبت . وهل إذا كانت هناك فيضانات فى الهند أغرقت البيوت والمزارع وأهلكت الحيوانات فهل حكومتك تبعث بموسيقار أو قارىء كف ؟

- قلت : تبعث بمهندس زراعى .

- قال : أصبت .. إذن لو أرادت حكومتى أن تبعث بمن يجمع لها المعلومات ويقيس لها الرأى العام ويحلل ذلك ويهديها لاتخاذ القرار ، فهل تبعث بمهندس زراعى أو طبيب .. لاشك أنها سوف تبعث بأديب . وقد حدث .. فقد كنا جنودا فى خدمة الوطن ، وهو كلام منطقى تماما .

ثم عاد يقول : إذا كان شعب من الشعوب يرى أن هناك ما هو أهم من الحرية فسوف يفقدها .. ونحن كنا نعمل من أجل تحرير أنفسنا وعالمنا من الإرهاب والطغيان !

ورأيت فى نظرته الثابتة وقلقه الهادىء وحركة السكرتيرة بالقرب منى ما يدعونى إلى أن أنهض . فقلت : سؤال أخير من فضلك !

وكان صمته وهدوؤه دليلا على الموافقة . فقلت : هل قرأت شيئا للعقاد .

- لا .

- أو لتوفيق الحكيم الذى ترجمت أعماله إلى لغات كثيرة .

- لا .

- إذن لابد أنك قرأت لطه حسين الذى ترجمت بعض مؤلفاته إلى اللغة الفرنسية التى هى لغتك الأولى .

- لا .

- إذن ما الذى قرأته فى الأدب العربى الحديث ؟

- ، ألف ليلة وليلة ، 11

وشكرته . واعتذرت له . وشكرت السكرتيرة وكان من الواجب أن أطيل الحديث معها :

ولكنني لم أفعل . وفكرت في أن أعود إليها لأستوضحها . ولكن لم أكن صادقا في هذه الرغبة . ولذلك عدلت ونزلت . وجلست أكتب . وكتبت . ونشرت .

وبعد يومين فوجئت بمقال للأستاذ العقاد يهاجمني بقسوة . وأدهشني أنه يفعل ذلك ، مع واحد مثلي .. أي واحد من أشد المعجبين به والمترددين على صالونه بانتظام عشر سنوات .

وكان مقال العقاد صدمة . فهو قد أساء فهمي ، وهو لم يجد لي عذرا . فهو قد هاجم سومرست موم . وقال : إذا نظر شخص إلى الشمس ولم يرها ، فليس معنى ذلك أن الشمس ليست هناك .. وإنما هو أعمى !

أي أن موم هو الأعمى وهو الجاهل بالأدب المصري الحديث . والعيب فيه هو ، وليس في أدباء مصر !

هذا ممكن . ولكن الذي قاله عني هو الذي أذهلني . فهو قال أنني تعمدت أن أسأله هذا السؤال بالذات ، لكي أهين العقاد ، ولكي أؤكد للقراء ، أنه لا يتجاوز حدود البحر أو مصر أو العالم العربي . وأنني لابد أن أكون قد تأثرت بما يقوله توفيق الحكيم وطه حسين ومحمود تيمور وغيرهم !

ولم يخطر على بالي شيء من كل ذلك . وكل ما حدث هو أن الرجل لم يقرأ إلا « ألف ليلة وليلة » التي ترجمها إلى اللغة الإنجليزية المستشرق المعروف ريتشارد برتون .. ثم إنه ليس من كتب العقاد واحد قد ترجم إلى اللغة الإنجليزية ، وإذا كانت كتب الحكيم وطه حسين وتيمور قد ترجمت إلى أية لغة ، فإنه لم يقرأها .. كما لم يقرأ أدباء كثيرين في العالم كله !

● ● ●

وشعرت في أعماقي بامتنان عظيم للأديب العالمي سومرست موم ، فقد أثار العقاد ليكتب مقالا يهزني ، فلم أكن أتصور أن العقاد هكذا عصبي .. أو هكذا مغرور ، وأنني اصطدمت بكبريائه ، وأن العقاد هكذا ليست لديه أبوة . وأن العقاد الذي يبدو منطقيا ليس كذلك إذا كانت القضية هي « عظمة العقاد » ، وأننا ، وأي أحد ، لا يساوي عنده شيئا .. إذن فالعقاد عندما يجلس إلينا ، فليس

لأننا نساوى شيئا ، بل لأنه لا يحب أن يتكلم وحده ، وإنما على مسمع من الناس ، فنحن مجرد آذان ، أو ميكروفونات . وأننا ، معه ، هذا صحيح ، ولكنه ليس ، معنا ، ولا مع واحد منا ؟

وأقبلت على روايات سومرست موم أقرؤها ، إمتنانا له ، وإعجابا بهذه الموهبة الأدبية العظيمة .

وحاولت بعد ذلك أن أفتعل أعماقا لهذا اللقاء ، ولكن لم أفلح .. فهو ليس الأديب النموذجى الذى أحبه ، ولكنه واحد من العظماء !

كامل الشناوى : شاعر الشظايا

كامل الشناوى : شاعر الظلايا

لم أر البهاء زهير وحافظ ابراهيم وعبد العزيز البشرى وإمام العبد وعبد الحميد الديب ، ولكنى رأيت وسمعت وأحببت كامل الشناوى ..

لم أعرفه شاعرا ولا محدثا ظريفا .. ولكن الصدفة جعلتنى أعرفه صحفيا ـ أهون بما فيه ..

فقد كان كامل الشناوى محدثا ممتعا .. تعرفه لحظة واحدة ، فكأنك عرفته طول حياتك .. هو الذى يختصر المسافة ويدخل فى حياتك .. فى عقلك وقلبك .. فإذا به جزء منك وأنت جزء منه .. هو ضرورى لك ، وأنت ضرورى له ـ هو يعطيك هذا الاحساس ..

ومع كامل الشناوى لا تملك إلا أن تحبه جدا أو تحبه بحساب .. أو تحبه على حذر .. ولكن أنت تحبه .. أما حبه لك فهو ، جاهز ، موجود دائما . سواء عرفته يوما أو ألف يوم .

عرفت كامل الشناوى سنة ١٩٥٠ ..

وعملت معه محررا فى ، الجريدة المسائية ، التى عاشت ٤٤ يوما . وبعدها انتقلنا معا إلى ، الأهرام ، وإلى مجلة ، النداء ، وعندما ترك الأهرام ذهبنا معه إلى ، أخبار اليوم ، ونسينا أن نقدم استقالتنا أو شكرنا للأهرام فعلنا ذلك فيما بعد . فقد كان يكفى أن يتقدمنا كامل الشناوى لنكون معه أو وراءه .. إنه كامل الشناوى . صديقك وأخوك الأكبر المتحدث بلسانك . هو الذى يحدد لك المرتب ، وهو الذى يطلب لنا الإجازة والعلاوة ..

وأنا وغيرى وكثيرون يدينون له بكثير من الفضل ـ تشجيعه الأدبى فى كل وقت ..

وأنا لم أر كامل الشناوى طالبا أزهريا . لم أره بالعمامه .. بعض الزملاء عرفوه ورأوه .. ورأوا شخصيه قلقه فى الحبة والقفطان أما نحن فقد رأيناه أكثر قلقا فى الحلاقه والبنطلون وأشد قلقا فى الحذاء . وكان يحب يأكل كثيرا ويشرب كثيرا وينام طويلا ويصحو أطول . كل شىء عنده بإسراف يشرب القهوه طوال النهار ، ويبلع كميات من الحبوب المنومه ليقضى على مفعول القهوة . فإذا صحا من نومه راح يصب القهوة ليزيل أثر المنومات . فهو - هكذا - يصحو بالقهوه وينام بالقهوة .. وهو مشدود دائما إلى اليقظة التى يحبها والنوم الذى يخشاه .

وكل لحظة عنده هى لحظة يقظة ولحظة نوم ليس .. فقد ينام بعمق وأنت تتحدث إليه ، ويصحو تماما بعد لحظات . إنه يقف على حافة سحيقة يقضى بين عالم النور وعالم الظلمة .. وهو وحده القادر على أن يحقق هذه المعجزة اليومية .

وكان أنيقا فى ملابسه فهو يرتدى أحدث القمصان والكرافتات ، وفى جيبه أفخم الولاعات . وكل ما يملكه كامل الشناوى من العمر أن يهديه لأى أحد فى أى وقت . وهو حريص على العملات الورقيه الجديدة والأقلام البركار الذهبية التى لم يكن أحد يعرفها .. وكان يكتب على ورق صغير .. وكان خطه رديئا . وكان يستطيع أن يكتب وسط الضجيج ، وكان يحب فى الكتابة ، نثرا أو شعرا بل كان شاعرى التعبير دائما . أنيق العباره الشريه فخم التراكيب الشعرية ..

وهو مثل كل الشعراء الذين ينظمون قليلا ، لا يعرف له مقدمات .. فلا يعرف أين بدأ ولا كيف ؟ فهو من أسره من علماء الأزهر . وكان المقدر له أن يكون واحدا منهم ، ولكن روحه القلقه وموهبته الإبداعيه ، وحدة نفسه ، ورجعة الناس حوله وحرصه على أن يكون حديث الناس ، وأن يكون الناس حديثه ، جعله ينحدر إلى العمل الأدبى والصحفى . ثم الصحفى والفنى والإذاعى والغنائى ..

وأنا لا أصدق الكثير مما يقوله الشعراء . لأنهم يبحثون بالعذاب والهوان ، ويجدون لذة فى ذلك . ولو حاولت أن تعذب يدك لواحد منهم فإنه لن يطاوعك . وسوف يسحر منك . لأن الشاعر لا يريد علاج معذبه ، بل عذابه

هو العلاج . وشفاؤه هو الشفاء . ولذلك فأنا أصدق كامل الشناوى ألف مره عندما يقول :

أنا عمر بلا شباب !!
وحياة بلا ربيع !!
أشترى الحب بالعذاب
أشتريه فمن يبيع ؟!

ويتردد هذا المعنى فى كل قصائده الطويلة القصيرة ، وهو الخيط الذهبى فى تأملاته النثرية . وإذا عرفته عن قرب . أيقنت أنه لم يقل إلا الحق ولكن الحق ولا شىء إلا الحق ..

وكان يرهقنا بالسهر الطويل . وكان يغضب إذا نحن تركناه وحده أى تركناه مع عشرين آخرين . فهو حريص علينا جميعا .. يسعل بنا من مطعم إلى فندق إلى كباريه إلى بيت أحد الصابئين : من عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ أو فريد الأطرش أو غيرهم من الصابئين والممثلين الكثيرين ولكنه يحب أن يكون على راحته فى أى مكان آخر ..

فيكون هو المتحدث الوحيد .. أو يكون هو المستمع الأوحد .. ويكون مستمعا واحدا منا . أو نحن جميعا .. وكان يعيش الليالى الطويلة بالعجائب التى هى حديث المدينة .

فى إحدى الليالى كان موعدنا أن نتناول العشاء فى بيت محمد عبد الوهاب ، وتوقفت السيارات عند أحد المحلات . ونزل كامل الشناوى واشترى لنا جميعا علب سجائر صغيرة وبعد العشاء تحدث كامل الشناوى عن انعدام الشخصية عند الشباب وضرب مثلا لذلك : إننا نتحدى نوعا واحدا من السجائر .. مع أن هناك ألف صنف !

ويظل يضحك ويضحك . وفى اليوم التالى تتجدد العجائب ..

□ □ □

وكامل الشناوى هو الذى أحيا ليالى هيلتون ـ كاليفورنيا هيلتون .. فقد كانت

هذه الكاتدرائية هي معرفة الوجيه المصري [illegible] والوجيه جميع فلاح مصر الذي هذه المعرفة بحث عن [illegible] عن [illegible] المتاعب للذي يعمل جرسونا [illegible] ومقاهين كثيرة [illegible] فلا يزورهن [illegible] ذكر الصحف بحث عن الجرسونة نجمة التي تغرب وتغرب فيها [illegible] وتغرب فاتنة هي حتى تصير [illegible] ذلك ..

[illegible] في الكاتدرائية بشكل واضح [illegible] وجحدوه من كل نسب [illegible] والشاعر السماوي هو صياد الليالي وعطاس هذا المحيط .

عجبت منه لها عيال جميلات فكل يقول لها عيناك توجعني !

ولم تفهم الصبية هذا المعنى ، عجبت تقول له : معذرة المعنى الجميل ! إنها عيني أذا ولابد ان توجعني أنا ..

فيقول لها : ولكنها توجعني أكثر !

فلا تفهم فيرد عليها [illegible] من [illegible] ويعالي وضع كل عظمته في عينيك ولم يترك في [illegible] عملا يفهم هذه الحكمة !

ولكنها لم تفهم ..

يقول كامل الشناوي مرة أخرى :

مرت بنا كالطيف تسألنا
ماذا يريد ، فلذت بالصمت .
ودنت لتسألني على حده
عما أريد [illegible] فقلتها أنت ..

● ● ●

عصفت وألقت بطرفها برعت
فلقي وشيبه أني فعلها
فأسه بعيني بلثمها
بأشعة تنساب في بعيها !!
وأريت أرضيها ، عجبت لها

هل تعرفين .. ومن أكون أنا ؟
أنا يا صبية شاعر هرم
قد جاء يستوحي الشباب هنا ..!!

● ● ●

أريـد الهامـة جديـدة
بقـدر ما أنظـم القصيـدة

● ● ●

هاقـد ناظرهـا ومبسمهـا
وقصيدتـي مـازلت أنظمهـا
..وأظل طـول العمـر أنظمهـا !!

حتى الأستاذ العقاد الجاد الصارم كتب عن كاثيريا هيلتون التي غيرت وجه الحياة الليلية في مصر ..

وكان كامل الشناوي يندر قائلا : إن أول مكالمة تليفونية بين الرئيس السوفيتي والرئيس المصري قد تمت بشأن هذه الفتاة الجميلة .. فقد وجد رواد الفضاء السوفيت صعوبة في الهبوط إلى الأرض .. فطلب إلى الرئيس جمال الناصر .. أن يسأل هذه الحسناء هبطوا إلى السماء . وعلى ضوء عينيها هبط رواد الفضاء إلى الأرض سالمين !

وكان يقول عنها : من شدة أدبها إذا فتحت درج مكتبها ، فإنها تدق عليه أولا !

وكان يشعلنا ويشعل كثيرا بكل وجه جديد .. وحب جديد .. وكامل الشناوي كان شاعرا طول الوقت ، صحفيا بعض الوقت ، سياسيا نادرا . فهو رومانسي متمرد ..

ونحن نعرف كل اللاتي أحبهن كامل الشناوي ، ولكننا لم نناقش في ذلك الوقت هل واحدة منهن هي وزن وجمال وروعة التي قال ؟

هل نجاد الصغير ، وفايزة أحمد ونور الهدى ؟

إن أحدا لا يسأل الشاعر من هي التي أحبها ، ولا ما اسمها ورسمها ؟

أو هل مدمعة يسرى هي جمال الشعر الذي قاله العقاد . أو ، مي زيادة ، في روعة ما أبدع مصطفى صادق الرافعي نثرا وشعرا .

لكن التي أحبها العقاد وطه حسين ولطفي السيد وسلامة موسى وجبران خليل جبران ومصطفى عبد الرازق ومحمد عبد القادر حمزة . لا أظن مي زيادة هذه السمراء الفلسطينيه السورية اللبنانية الأوربية جميلة إلى هذا الحد الذي يسعر أكبر عقول زمانها . ولكنها وحدها نعنيت بهم ودخلت مستشفى « العصفورية » للأمراض العقلية في لبنان .

ولا كانت ليلى العامرية ولا دوقة وندسور ولا إيفا بيرون عشيقة وزوجة رئيس الارجنتين ثم رئيسة الأرجنتين .. ولم ير واحد مما شبث واحدا مما وصفه الشعراء :

ولا رأينا الأقمار التي يصنعونها . ولا الجبال ولا الأنهار .. ولا الأسود ابتداء من الشاعر عنترة العبسي حتى الشاعر شوقي أمير الشعر ، ..

ولا يصح أن نطلب إلى الشعراء أن يقدموا لنا صور معشوقاتهم . فنحن نطلب منهم المستحيل . فالمعشوقة من صنعه ومن خياله .. هو يصنعها ويتعذب بها ويعبدها .. وإذا رآها في الطريق ، فلن يعرفها .. لقد عايشها في خياله . ولكنه لم يجلس إليها ، لا أكل ولا شرب ولا نام . وإنما هو صنعها صنما ثم خر ساجداً لها .. وهو في الحقيقة عاشق لصنمه ، ساجد لنصبه ..

يقول جميلا جدا كامل الشناوي :

كوني كما تبغين

لكن لن تكوني .. !!

فأنا صنعتك من هواي ، ومن جنوني .. !!

ولقد برئت من الهوى ومن الجنون !!

أما أنه صنعها ، فهذا صحيح . وأما أنه قد شفي بعد ذلك فليس صحيحا . لأن الشاعر لا يريد أن يبرأ من الشعر أي يكون بريئا من لهمة الشعر ، وأن يشفى عذابه أيضا !

ويقول كامل الشناوي أيضا :

فرأيت أنك كنت لي قيدا
حرصت العمر ألا أكسره
فكسرته !

إن كان الحب ذنبا ، فإنه لا يطلب من الله أن يغفر له هذا الذنب .. ولكن المحبوبة غفرت ذنبه .. وهذا ذنب وجريمة ، لن يغفرها !

وأنا لا أصدق كامل الشناوي حينما يقول ويعيد ويزيد هذا المعنى :

غفرتني لأني
كنت يومـــا أحبهـــا
وإلـــى الآن لـــم يـــزل
نـــابضا قـــلبك حبهـــا !؟
لست قلبـــي أنـــا إذن !!
..إنمـــا أنت قلبهـــا !!

• • •

..لأنه ما يزال وسوف يبقى يحبها ، ويحب العذاب من أجلها .. ولا أصدقه أيضا حين يقول :

لست أشكو صدك
فالشكوى عذاب الأبرياء !!
وهي قيد توسف العزة فيه والإباء !!
أنا لا أشكو
غير الشكوى انحناء !!
وأنا بعض عروقي كبرياء !!
جرأتي راحت ولا أعرف أين ؟
بمعنى ضاعت ودمي بين دين !

..الهوى حيلان داعي الوجيب !
وحبيبي لك مكتوف اليدين ! أنا لا أشكو .
..هي الشكوى فحشاء
وأنا بيض عروقي كبرياء !
ولكني أصدقه وهو يقول :
لا وعيشك ما سلوناك عمري
فسريحي وحاذري أن تريحي
وهو يقول أيضا :
..أنا لم أدرك مداها !
آه منها
.. هي لم تدرك مداها !!
حطمتني منذ حطمته
فهي مني [illegible]
أما أنه كان مخطئا فصحيح [illegible] أو أنهن ، كانت شخصا ليس صحيحا !
ولكنه هو الذي يوهم ذلك !
ويعود إلى هذا المعنى مرة أخرى فيقول :
قد حملت منك حياتي
وحملت مني حياتك
فأنزاح منك .
أو مني
رفاقي ، ورفاقك !!

• • •

ولا أحسب هذا المعنى [illegible] فهو مخطئ ، فليس كامل الصفات ، لا شك في ذلك [illegible] وحده هو من هو كامل الشعور عاشق في صحته وعافيته وشبابه ، وفي هذه الحالة يكون كامل السعادة ، فهي لم تخرج من الرحم في موكبها

فأصبحت الرجل ، الذى كان وحده موكبا .. وكان هو المشاة والمحتفى به فهو الذى صنع الموكب ، شكله وموضوعه ثم صدقه وإن لم يكن له اى هدف ، يكفى أن يحتشد ويتراحم ويدور حول كامل الشناوى شاعراً معبأ بالبهجة والنوم ، معدياً للناس ومحديا بهم ..

وكان كامل الشناوى حاد اللسان جارح النكته وهو ضحية للدس .. فهم يريدونه أن يضحك ويثير ويهز ويوجع ولذلك أوجعنا بقدر ما أضحكنا ..

وأذكر أننى كتبت عنه مقالا قلت فيه : إن كامل الشناوى يدغدغ أصدقاءه بسكين !

ووجدت الأستاذ محمد حسنين هيكل يقرأ المقال للرئيس جمال عبد الناصر ، ويضحك ..

ولما عرف كامل الشناوى . كانت أول فظيعة بينه وبينى ..

وقد أعرضنى ذلك . مع أننى لم أفعل أكثر من أننى استعرت أسلوبه فى مداعبة الناس .. ولكنه لم يطق أن يفعل به أحد ذلك . وفى إحدى الليالى شرب كامل الشناوى كثيرا وراح يبكى على الوفاء والاخلاص . وكنت المقصود بذلك . مع أننى لم أدع فى قلبى مثقال ذرة من حبه والامتنان له . ولكن أكثر الساخرين الهازلين ، لا يحتملون أن يفعل بهم أحد ذلك . فمثل هذه الأسلحة يجب أن تكون حكرا عليهم !

وقد تعبت كثيرا من الاعتذار له ، مع أن الذى قلته ليس شيئا خارجا ولا تجاوزت حدود الادب .. ولا حتى الحقيقة . ولكن أن يضحك جمال عبد الناصر لذلك ، وأن يكون هو نكتة رئيس الوزراء . هذا كثير . وأن أكون أنا السبب . هذا كثير جدا .

مع أن نصيبى من مداعبات كامل الشناوى كان كثيرا جدا .. فهو قال عنى :

أننى إذا ذهبت لدورة المياه دقيقة فلكى أقرأ ثلاثة كتب !

وكان يسألنى عن سيارتى فأقول له : إنها عدد الميكانيكى !

فيعود يسألنى : كم تكلفك من التاكسيات !

وكان يقول إننى أبحث عن سيارتى كل صباح ، فأجدها تلعق البنزين من السيارات الأخرى !

وكان لكامل الشناوى شعر سياسى مثل مقالاته السياسيه ، يجب ألا ننظر اليها بجدية . وإنما هى رائعة فى النظم وعجاجة فى الصناعة ولكن كامل الشناوى كان سياسيا مضطرا ، وكان كثيرون كذلك .

وكما أننا لا نسأل الشاعر عن معشوقه ولا ان يعرض علينا صورتها ، فكذلك قصائده السياسية مثل مطلع « نشيد الحرية » يقول .

كنت فى صمتك مرغم
كنت فى حبك مكره
فتكلم ، وتألم
ونعلم كيف نكره

لقد كنت أروى لكامل الشناوى حكايه كنت مرغما على سماعها ورواياتها وأن أكون طرفا فيها .. ولم تكن مما يسعد كامل الشناوى . فقد كان يعمل فى جريدة الأهرام فى سنة ١٩٥٠ ولم يكن على وفاق مع بعض الزملاء الكبار . وكانوا يحاولون إبعادنا عنه ، والتفافنا حوله . وفى إحدى المرات كان لابد أن أذهب وآخرون معهم إلى عداء خارج القاهرة .. وفوجىء كامل الشناوى بأننا سوف نتركه وحده .

ودار حوار طويل . ولم يكن كامل الشناوى يقبل المرونة . ولا أن يمسك احد العصا من وسطها . فأنا إما معه وإما عليه .. إما هم وإما هو ..

ظلت مداعبا : أتكلم .. أتألم .. أتألم ! أتكلم . أتكلم وأتألم من جديد ..

وبسرعة البرق عاب كامل الشناوى عن الوعى ليمسك ورقة وقلما ويكتب مطلع نشيد حرية مصر كلها ، لا حرية واحد من موقف حرج !

وكذلك كل قصائد الشعراء فى الغزل والصداقه والكفر بالحياة والحياة والسياسة .. إنها تجىء مثل أكبر الحرائق من عود كبريت صغير !

وكان الشاعر الالمانى ريلكه يقول : إن المعانى تسقط عليه كما تسقط الأمطار من السحب . هذه السحب تكونت قطرة قطرة من بلاد بعيدة . وعبرت على الجبال وعلى الوديان وعلى المدن . وتراكمت فيها القطرات .. ثم سقطت على شاعر ما فى مكان ما .. كيف حدث ذلك ؟ إن هذا ما يحدث !

○ ○ ○

وكامل الشناوى مثل كل الشعراء الرومانسيين ، ولا يريد إلا أن يقول لنا شيئا بحاجة إلى أن يجد سببا إنه كالبليل يغنى بالعزيزه ويبكى بالعزيزه ..

فهل لو ظهرت هيوت ، منع الحمل ، فى القرن السابع عشر فى أوروبا وفى الجاهلية عند العرب لكان قد اختفى الرومانسيون وشعراء الغزل ، والأدب العذرى !

لا أظن ذلك . فليس جنسيا ما يريده الشعراء . فقد أيسر الجنس . ولكنه الجمال . الجمال يروونه ويلمسونه بعيونهم .. ثم الجمال الذى يصنعونه لانفسهم . أى الإبداع والخلق فالشاعر ليس صحيحا أنه عابد لغيره ، وربما هو عابد لنفسه . فالشعر لا يرى جميلة أروع من جميلاته . ولا يرى مخلوقا أعظم من مخلوقاته .. فإن لم يكن ذلك عبادة لذاته ، فهى شىء من ذلك ..

بل إن الشاعر يحتضن حبيبته ويذوب ويذيب .. ولكنه يتغنى بالتى بين يديه كأنها ليست هناك .. أو يستشعر غيابها ، ليشتاق إليها .. ويبكى على بعدها .. مع أنها لحم ودم وأنفاس وعطور بين ذراعيه .

ولو استبعد شاعر واحد كلمة ، أنا ، من قصائده ، لم يكن شاعر

فالشعر ، ترجمة ذاتية ، كتبها عاشق لنفسه ، يريدنا أن نصدقه ولكنه لا يصدقه . ولكن عندما نصدقه أو لا نفعل ذلك . فإنه يضحك له .. فما أجمله كاذبا وما أروعه صادقا ، وليس من الأدب ولا من الفن ولا من الشعر أن نقول له : قف من أنت .

وكلنا أصدقاء كامل الشناوى يعرف من الذى يحبها . بل كان هو يدلنا عليها .. ولم نكن نطابق بين ما نراه فى الحقيقة وما نراه فى الخيال . ولكنه يراها هكذا .. ويصير عصيا هكذا .. وهذا هو الفن !

الحكيم ثانرا

الحكيم ثائرًا ..

لابد أن يكون هذا الرجل صعبة لنكتة أطلقها على نفسه ، فتمسك بها الناس ، حبا للنكتة ، أو حبا للتعالي على شخصية عظيمة . هذا الرجل هو : توفيق الحكيم . ففي العام الماضي احتفل التليفزيون بعيد ميلاده . فكانت جلسة في مكتبه بجريدة « الأهرام » .

وبدأ الكلام عن مناقب الأستاذ الحكيم فكانت البداية نكتة ونادرة ، وتوالت الفقشات . وكل واحد منا يحكي قصة ويضحك ويضحك والتليفزيون يسجل كيف عاش الحكيم بخيلا . وكيف أن الفتيات الصغيرات يدرن حوله . وكيف هو سعيد بذلك .. مساكين .

وتقدمت أنا إلى التليفزيون أطالب بإلغاء هذا البرنامج . وألغي . فلم يكن ذلك تكريما لأديب كبير ، وإنما كان تهريجا في حضرة أديب كبير . اشترك فيه عدد من الأشياء . ولم ينتبهوا إلى أن هذا الذي حدث إهانة للرجل ، وإهانة لأنفسنا . فالمطلوب أن نكون جادين ، فلم نكن .. وأن نؤرخ للرجل ، فكان ذلك هروبا من التاريخ ، وتحقيرا وتصغيرا للرجل وظلما لأنفسنا . فنحن نضحك أحيانا ، ولكن ليس في مواقف الجد ، ونحن نهرج ولكن ليس في هذه المناسبة الأدبية !

ولايزال توفيق الحكيم يعاني من هذا الموقف ، فلا تكاد تذكر إسمه حتى يتوقع الناس أن تروى لهم نكتة . فإذا تكلم هو ، فأنت على استعداد لأن تضحك . وهنا تشعر بنوع من الإحباط ، كأنه قد وعدك بنكتة ، فإذا به يقرأ عليك دفتر التليفونات أو ميزانية البنك المركزي أو صفحة الوفيات . لماذا ؟

أذكر أنني تناقشت مع د . طه حسين في هذه الصورة التي علقناها لتوفيق الحكيم ، فكان رد طه حسين : أن الحكيم هو المسئول عن ذلك . فهو قد ارتدى

« البيريه » لبلغت الحظر ، ولأطال شعره ولمسك العصا وسحب وراءه حمارا . وأضاف إلى ذلك أسطورة : أنه رجل بخيل .. ولا يهمه في هذه الدنيا إلا الفلوس !

وكتبت هذا الرأي فقال لي الأستاذ العقاد : ولكني لبست البيريه قبل أن يلبسه الحكيم ود . حسين هوزي !

إذن .. لقد ارتدى العقاد البيريه ، ثم عدل عنه . ولكن الحكيم تمسك به حتى عرف به !

ولكن الأستاذ الحكيم يفضل أن يكون إنسانا محبوبا لطيفا ظريفا . وهو يجد متعة في الحديث إلى الناس ، والناس يجدون ذلك أيضا . وهو بالفعل من أمتع المتحدثين . فإذا تحدث فإنه يتدفق بالتاريخ والأدب والنوادر والذكريات . ولابد أن تضحك ولكن ليس كل ما يقوله مضحكا أو يبعث على الضحك ، أو من أجل أن تضحك !

والحكيم له مقالات بعنوان « حماري قال لي » . وله مقالات بعنوان « قالت لي العصا » . حتى هذا الحمار فقد أنه اقتبسه من الكاتب الأسباني « خانثته بنافنته » الذي كان له كتاب بعنوان « بلانيرو وأنا » . وبلانيرو هذا هو إسم حمار الأديب العظيم الفائز بجائزة نوبل في الأدب . وقد ترجم الأستاذ العقاد هذا الكتاب .

وقد حدث أن عرضت مجلة « الإثنين » القديمة صورة للحكيم مع حماره . وطلبت المجلة إلى عدد من الكتاب أن يعلقوا على هذه الصورة .

- فقال كامل الشناوي : إنه إعلان عن كتاب توفيق الحكيم .

- وقال العقاد : باحمارة الحكيم روحي لحماره !

- وقال مصطفى أمين : لحتير ذكائك .. أيهما توفيق الحكيم ؟ !

وضحك الحكيم ، ومن بعده ضحك الناس . واحتفظ الحكيم بالحمار ، واحتفظ بهما الناس صورة مضحكة إلى غير نهاية .

ولكن هذه الصورة التي تجعل الناس يحبون الحكيم ويشعرون بأنه منهم ، أو أنه دونهم في الطيبة والسذاجة ، وأنه أضعف منهم أمام الفلوس ، قد أخفت الجوانب الهامة في حياة الرجل وفي فكره وفي أثره على الأدب العربي الحديث .

فالحكيم مثل طه حسين من أبناء الثقافة الفرنسية. طه حسين قد اختار « المنهج » الفرنسي في الوضوح . . في التحليل والنقد . والحكيم اختار العبارة السهلة واتجه إلى المسرح الفرنسي والموسيقى والفن .

وإذا كان رفاعة الطهطاوي أول أزهري سافر إلى باريس وبهرته الحضارة الفرنسية وعاد ينعى لمصر كل شوارع وميادين وحرية وعدالة وعبقرية فرنسا . إلا سماءها طبعا ! فإن طه حسين والحكيم كان إشعاعهما الأدبي والفني على مصر عميقا . فقد حملا المشاعل وأقاما الجسور وسربا العقل الأعلى ، وأرسيا القواعد ثم مضى كل منهما يبدع ويضيف جديدا إلى الأدب والفن .

وتوفيق الحكيم قد جرب كل الأشكال الأدبية : الرواية والقصة والمسرحية و « المسرواية » أي . المسرحية والرواية معا . والمقالة ، ونظم شعرا أحيانا .

وإذا كانت النكتة أو الفكاهة قد أضفت عليها أن يرى توفيق الحكيم بأبعاده وأعماقه ، فإن اهتمامنا بمسرحياته وقصصه ، قد أخفى عنا براعته في كتابة المقال . فهو من أحسن من كتب المقال القصير .

والسهولة والوضوح كثيرا ما كان جناية على الكاتب فكل أصحاب العبارات السهلة والجمل القصيرة كانوا ضحايا هذا الأسلوب : الحكيم في الأدب المصري و « آلان » في الأدب الفرنسي ، و « إدموند ويلسون » في الأدب الأمريكي ، و « رجيرو » في الأدب الإيطالي ، و « أورلاندو » في الأدب الأسباني ، و « هكسلي » في الأدب الإنجليزي . فالذي يرى دودة القز تأكل أوراق التوت وتجعلها خيوطا من حرير ، يخيل إليه أن هذه عملية سهلة .. فالورق يدخل من ناحية في هذا الكائن الهلامي ، ويخرج من الناحية الأخرى . إنها عملية كيميائية شديدة التعقيد . إنها معجزة من معجزات الله . وكذلك من يرى نحل العسل يمتص الرحيق من هذه الجهة ويخرجه عسلا شهدا من الناحية الأخرى . سبحان الله ! ومن يرى حيوان اللؤلؤ وهو يمرر هذه المادة اللامعة حول ذرة من الرمل دخلت إلى جسمه فأوجعته .. فراح يمررها عن جسمه طبقة من الصدف بعد طبقة ، حتى تتكون حبة اللؤلؤ . إنها دمعة كبيرة لعين عبقري ، بدلا من أن يبكي دمعا بكى لؤلؤا !

وكذلك من ينظر إلى العبارة السهلة ، والمعنى الواضح ، والمنطق المقنع

يحيل إليه أن المعاني هكذا واضحة ، وأن التعبير عنها هكذا سهل .. ولكن الحقيقة أنها ليست كذلك . وإنما هو الفنان استطاع بالموهبة والممارسة والمجاهدة أن يجعلها كذلك . ولذلك لم يلتفت أحد إلى مقالات وأبحاث الحكيم . وإنما اتجهوا إلى النكت المسرحية ، وإلى الإيماءات الإصلاحيه والثورية في رواياته .

والحكيم يعتز كثيرا برواية « عودة الروح » ، ويرى أنها هي البداية لكل ثورات الغضب ، وكل مقدمات الإصلاح في مصر . ولكن من يقرأ هذه الرواية الآن ، لا يجدها كذلك . فقد تجاوز المجتمع بتغيراته وتقلباته ما كان يحلم به الحكيم من خمسين عاما . ثم إن الحكيم عندما أصدر روايته هذه ، لم يكن قادرا على التصريح ، وإنما اكتفى بالإشارة .. بالتلميح . ولذلك عندما أدرك الأستاذ الحكيم بعد ذلك أن « عودة الروح » قد حققت ما كان يتمناه ، وأن المجتمع في حاجة إلى يقظة جديدة ، وإلى نهضة .. أصدر كتابا خاصا بعنوان « عودة الوعي » .. أي عودة الوعي بضرورة عوده الروح !

ولم يكن ضروريا أن يتابع الأستاذ الحكيم الآثار الكاملة لروايته . فهو قد قال كلمته ومشى . أي أنه كأديب ومفكر التزم بقضايا المجتمع ، ولم يسكت . وإنما درس وحلل وقفز إلى الأمام وطلب من الناس أن تلحق به . انتهى دوره . انتهى دور الأديب ، وبدأ دور المصلح الاجتماعي والسياسي . وليس من الضروري أن يكون الأديب مصلحا سياسيا ، أو ثوريا ، وإنما هو يحس ويعبر . وبعد ذلك تبدأ مهمة القادرين على تحويل الآمال إلى أعمال ، والأفكار إلى آبار ، والأحلام إلى واقع . ثم عاد الأستاذ الحكيم واستأنف الحكم في كل قضايا العصر .. قضايا مصر والأمة العربية في كتابه « مصر بين عهدين » ، وكان قاسيا على مصر وعلى العرب عندما قارن بيننا وبين الحضارات الأوروبية والأمريكية . والكتاب نظرة إلى الوراء وأخرى إلى الأمام : إلى الوراء في غضب ، وإلى الأمام في يأس !

وكان هذا آخر ما أصدر الحكيم . وهو حريص على أن يؤكد أن هذا الكتاب قد صدر أخيرا وآخرا . فلم يعد لديه ما يقوله . انتهى دوره في الفكر المصري والعربي . فقد قال كل ما لديه . ولم يعد لديه ما يضيفه .

وهذا طبيعي . فهناك عمر فن لكل أديب أو مفكر : عمره الفني وعمره جسمي . فهو جسميا قد تجاوز الثمانين . وهو نفسيا وعقليا قد وقف عند الخمسين أو الستين .

وفي التاريخ أدباء وشعراء قالوا كل ما عندهم في العشرين أو بعدها بقليل . ثم لم يقولوا شيئا هاما بعد ذلك . فالشاعر الفرنسي « رامبو » قد نظم كل دواوينه دون العشرين . وبعدها لم يقل شيئا . والشاعر الفرنسي « لوتريومون » قد نظم كل شعره في السابعة عشرة وبعد ذلك لم يقل شيئا له معنى ، وكذلك الشاعر الألماني « نوفالس » .

ومن الممكن أن تكون للأستاذ الحكيم تعليقات على الأحداث . ولكن لن تكون فيه نظرية جديدة . فالنظرية قد جاءت في كتبه . وهو قد أغلق على نفسه باب البرج العالي الذي اتخذه مرصدا لدراسته للناس والتاريخ . والآن بدأ يطل من النافذة أو يستمع منها .. والذي يراه مكرر ، والذي يسمعه أيضا .. ثم إنه لا يريد أن يكرر نفسه .

ولكن من الصعب أن يتوقف .. من الصعب ألا يغضب ، وإذا غضب لا يثير . وإذا أشار ألا يقول . وإذا قال ألا ينتظر الصدى . وإذا جاء الصدى ألا يرد عليه .

أنكر أني كتبت مقالا موجها بصورة غير مباشرة إلى أم كلثوم أملا في أن تكف عن الغناء في أيامها الأخيرة . وطلبت إليها أن تقرأه . وكان طلبا غريبا . أما تعليق أم كلثوم فقد كان أغرب . المقال موضوعه : مادا لو كان الأستاذ العقاد قد توقف عن الكتابة من عشرين عاما وطه حسين والحكيم ، ومحمد عبد الوهاب توقف عن الغناء ، وصلاح طاهر عن الرسم ؟ وقلت : إن الذي قدموه لنا قبل ذلك يكفي جدا أن نعتز إليهم على أنهم مستازون ، وأنهم من معالم الفكر المصري .. أما المهم وماذا يحدث لو أن أم كلثوم توقفت عن الغناء منذ سنوات .. خمس سنوات ، أو ستتين أو هذا العام ؟ فالذي قدمته قبل ذلك كثير جدا . وهذا الكثير يجعلها تنفرد بالعظمة في الأداء والغناء . ولكن أم كلثوم لم تفهم هذا المعنى البعيد .

ولابد أن كثيرين قد بكوا على أم كلثوم في آخر حفلاتها ، فقد تقطع صوتها ، وما زالت تتعثر على السلم الموسيقي طالعة نازلة حتى تدحرجت الدموع من

[illegible]

[illegible] عندما [illegible] ، [illegible] ، او [illegible] ، [illegible] فرنسا ، كان الحكيم أسبق وأسبح جميع المؤلفين إلى [illegible] [illegible] [illegible]

ومن الصعب أن نكون الحكيم أستاذا لأحد . فهو ليس صاحب « نظرية » . وإنما نظريته بطبعها سرا في أعماله ، دون أن يفصح عنها .. فهو مشغول بتوفيق الحكيم . وليس مشغولا بمن يمشي وراءه أو يلتف حوله . فهو قال وحيد .. أو كما يقول « أندريه مالرو » أديب فرنسا العظيم : إن الفنان يجب أن يكون عاريا معردا يحمل سلاحه وعلم بلاده ، ويضعه في أي أرض .. ثم يقف مدافعا عنه حتى الموت !

والحكيم لم يحمل سلاحا ، وإنما كان يحمل أعلاما ، يغرسها في الأرض ، ويتركها منهجا إلى أرض جديدة .

أما معنى ذلك فمتروك للمؤرخين والنقاد .. وأساتذة الجامعات كلهم أصحاب نظريات ، ولكن ليست لهم تلامذة .. أي ليس لهم حواريون يمشون وراءهم . وإنما الدراسة الجامعية تعرى التلاميذ بالثورة عليها .. على جمودها وعلى قوالبها الجافة . كذلك فعل طه حسين في ثورته على الدراسة الأزهرية ، وكذلك فعل الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني والزعيم السياسي سعد زغلول ومن قبلهم رفاعة الطهطاوي ..

والحكيم كان ثائرا على « النفين » .. فقد درس القانون وكان وكيلا للنيابة ، ولكنه كان مشغولا بالواقفين أمامه ، أكثر من انشغاله بتطبيق القانون عليهم .. فالمتهمون أمامه هم ضحايا قوى اجتماعية وسياسية ونفسية متضاربة . ومن تضاربها يتطاير الشرر الذي يلتقطه الحكيم ليصوغ به المسرح والقصة والرواية !

مرة واحدة جمعت العقاد وطه حسين والحكيم على خط تليفوني واحد . أسأل الواحد ، ثم أعود فأسأل الثاني ، وأسأل الثالث عن رأيه في الإثنين . ونشرت هذا الحديث من عشرين عاما . ثم طبعته في كتاب لي بعنوان « بمنقط الحائط الرابع » ... ومن هذا الحديث الفريد في الأدب الحديث ، عرفت كم هي شاسعة المسافة بين هؤلاء الثلاثة المعاصرين ، وكيف أن الحب والاحترام والتقدير

معقود بينهم جميعا . فكل منهم ينظر إلى الآخر من فوق .. من بعيد ، فيراه صغيرا جدا . فهم جميعا يمتلئون قوى متفاوتة . وقد عرفت ثلاثتهم عن قرب وعن حب وعن امتنان عظيم لهم . ولكن أحبهم الحكيم ، وأرقهم طه حسين ، وأعمقهم العقاد . .

والحكيم هاز ، وطه حسين مزرح ، والعقاد ناقد .

والحكيم يعني لك ، وطه حسين يحدثك ، والعقاد يصحك !

ولا يبقى من ثلاثتهم إلا الفن .. إلا ما هو إنساني : ، شعر ، العقاد و ، أيام ، طه حسين و ، سجن عمر ، توفيق الحكيم .

ولابد أن المرارة على شخص توفيق الحكيم سببها أن أحدا لم يقدر دوره التاريخي ، وأن النقاد قد اكتفوا بأنه ، رائد ، القصة والرواية والمسرحية ، والأستاذ الحكيم يعلم أكثر من غيره أن الأديب يصبح عظيما فقط بعد أن يذهب - مع الأسف - أي بعد أن لا يكون فيسمع ما يقال عنه ، وإن كان الحكيم قد حظي بكل أنواع التقدير والامتنان من الدولة ومن الهيئات الأدبية .. ولكن كل ما قدمته مصر في السياسة وفي المجالات الدولية ، لم تشفع لها عند مؤسسة ، نوبل ، فيفوز الحكيم بما فاز به أدباء دونه في القيمة والوزن .

إنه ليس الأدب هذه المرة ، وإنما هي السياسة !

مرة واحدة أغرمني الأستاذ الحكيم كان ذلك من عشرين عاما . فقد عرضت ولخصت واحدا من كتب الأستاذ العقاد . فقال لي الحكيم : ولماذا لا تتخصص في عرض الكتب الصعبة للعقاد ؟!

تماما كما فرغ الشاعر كامل الشناوي عندما كانوا يطلبون إليه دائما أن يلقي قصائد شوقي .. لقد انزعج كامل الشناوي الذي هو شاعر رقيق عميق أن يكون ، قارئا ، أو ، منشدا ، لقصائد شوقي ، كأنه مبكرفون ، وكأنه ليس شيئا !

وكأنني أيضا لست إلا قارئا هاما لمؤلفات العقاد . وتوقفت عن هذه التجربة . وبعملية حسابية قلت لنفسي : مستحيل أن آخذ من عمري وأضيف إلى عمر العقاد !

وكان امتناني للأستاذ الحكيم عميقا . فقد ضربني وفتح رأسي على حقيقة : أنني كاتب أيضا .. أو سوف أكون كذلك !

قال توفيق الحكيم وقلت

قال توفيق الحكيم وقلت ..

كانت غرفة الأستاذ توفيق الحكيم مثل « طبلية المجانين » فيها بقايا كل شيء وبقايا الحكيم . فقد تساقط جسمه ، وانسحب الدم من وجهه ، والبريق من عينيه ، والصوت من حنجرته .. وهذا الذي من فمه يخرج ليس إلا نفساً يحمل ما يقدر عليه من المعاني .. فالعقل لا يزال يفكر .

وتكن الأستاذ الحكيم ـ بعض الأستاذ الحكيم ـ بعض السرير .. سبحان الله كل هذه العظمة الفكرية والبراعة الفنية والعبقرية القومية ـ كلها تكومت .. تهيأت لأن تكون شيئاً آخر . لم يبق من وهج الحكيم إلا الشرارة الأولى .. لم يبق إلا ما يدل على أنه كان هنا ، وصار هناك . أو لم يعد هنا ، ولم يرحل إلى هناك . شيء فظيع أن ترى عريراً عليك يتهيأ للرحيل .. يرحل بعضه وراء بعضه .. رأيت أبي وأمي وأخي والعماد وطه حسين وعلي أمين وعبد الحميد حافظ والسادات

كان الأستاذ العظيم عباس العقاد ممدداً على سريره .. كنا نراه أكبر من السرير أكبر من الغرفة . من البيت .. من مصر الجديدة .. كنا نراه يصدح إلى جيش من الملائكة : لنقله إلى السماء .. بل كنا نرى السرير نسراً قد صمم جناحيه . وما هي إلا لحظات حتى يطير بالأستاذ .. ولكنه انتظره حتى يكمل الحديث عن أعماله العربصه قال يرحمه الله . أعلى أن أشرح القرآن الكريم شرحاً جديداً .. وسوف أبدأ بسورة الرحمن !

آه لمرحوم علي أمين فقد قرر كما قال كثيراً : « أن أموت واقفا ! » وحتى عندما كان عاجزاً عن الوقوف كان يستعد لإصدار صحف ومجلات من كل نوع . وكان يصنع مشاريع المجلات والصحف على الأرض ، ويظل إليها نائماً من فوق السرير . وكان يقول لي . لا تترك أخبار اليوم .. سوف نصدر مجله « أكتوبر » معاً .. كما أصدرنا مجلة (هي) معا اسطربي !

وكان الأديب الفرنسي مارسيل بروست يستعجل سكرتيره أن يعيد إليه الصفحات الأخيرة من كتاب فرغ من تأليفه .. وظل يصححها ويعيد كتابتها بسرعة جنونية .. والورق يتساقط مكتوبا على الأرض حتى كانت القطعة الأخيرة من آخر عبارة في آخر الكتاب .. مع آخر أنفاسه !

والرسام الكبير بليك أمسك لوحته الأخيرة واسمها « أيام زمان » وراح يرسم خطوطه ، ونقطة هناك .. وبعد تراجعه باللوحة ليراها أوضح .. وعندما

رأى زوجته تبكي قال . الله .. لم أرك أجمل من اليوم .. فمي مكانك لكي أسجل هذه الصورة الملائكية ..

ورسمها .. ودخل في إغماءة طويلة واغاق ليجد زوجته ماتزال تبكي فقال لها : هات اللوحة . هات اللوحة .. لقد سئمت أن أوقع عليها !

ووقعها .. ووقع من فوق السرير !

والكاتب الساخر برنارد شو عندما زاره الطبيب لآخر مرة ، قال له الطبيب : ولكن صوتك يامستر شو أحسن .. إنك تبدو مثالاً رقيقاً .. أنت اليوم أفضل من الأمس ..

قال شو : بل اليوم أسوأ من كل يوم .. أما المثال فقد تدربت عليه طول الليل ..

والشاعر الألماني هيدريش هيبه فقد كان فقيراً يتيماً . مات وحده في غرفة حقيرة في باريس . ويتلى عنه كل الناس إلا الموسيقار هكتور برليوز .. وبعد مناقشة طويلة في الفن والجمال والشعر والسياسة والمرأة ، التفت هيبه فسأل صديقه برليوز : هل خرجوا ؟ فرد عليه : من هم ؟ إن أحداً لم يحضر إليك منذ ثلاثة شهور !..

وكان تعليق هيبه : لقد آمنت دائماً . أنك فنان فريد في كل شيء !..

وفي مثل سن توفيق الحكيم أعلن الكاتب الفرنسي شارل سانت ـ أوموس : أظن أنني سوف أعيش عشر سنوات أخرى .. فأنا آكل الكافيار صباحاً والاسفاكورا ظهراً وأشرب الشمبانيا ليلاً .. وأنام بعد العمل .. لقد كان شعاري : أن أضحك دائما وأن أكسب كل يوم صديقا !

أما أبو الفلاسفة جميعاً أستاذنا العظيم سقراط فبعد أن دارت مناقشات طويلة مع تلاميذه ، استأذنه واحد منهم لأمر هام فسأل سقراط : ما هذا الأمر الهام ؟

قالوا له : إنه ذاهب ليتزوج يا أستاذ .

قال سقراط ، وقد أدار وجهه بعيداً عنهم : من الضروري أن تتزوجوا .. فإن كانت الزوجة طيبة ، فسوف تجعلكم سعداء ، وإن كانت شريرة فستجعلكم فلاسفة !

اقتربت من فم الأستاذ توفيق الحكيم لأسمع ما يقول ، رغم أن فمه امتلأ بالطعام المسلوق ، قال لي : من أنت ؟ ! قلت له . فعبرت وجهه إبتسامة إلى غير رجعة . قلت له : في أي شيء تفكر يا أستاذ ؟ !

قال : آه .. عندما سألوني .. أنت تعرف أين . سوف أقول : وأنا أيضا عندي بعض الأسئلة .. إنني لم أعرف ما هي الحكمة من هذا الوجود .. ما معنى هذه الطبيعة .. لم تكن كلها خيراً .. ولم يكن الإنسان مؤهلاً لأن يفعل الخير فالإنسان ناقص التكوين - غير قادر على أن يكون خيرا دائما نافعاً مبدعاً دائماً ، فقد ولد واقتل معه .. ولد والشر معه والضعف معه .. والموت في دمه ، وكل ما أريده ، ولآخر مرة هو أن أفهم معنى الحقيقة .. معنى هذا العمل الغبي الناقص .. ولا إيه رأيك أنت ؟

قلت : إن شاء الله سوف تدخل الجنة يا أستاذ ، إن كذبك عن الرسول عليه الصلاة والسلام يكفي ثمناً لتذكرة الدخول !

وتحولت ضحكته إلى غضب مهزوم ليقول : ومن الذي قال لك إنني أستحق عليه الجنة ؟ ! أنت تقول بمقاييسنا وحسابنا نحن .. ولكن من يدري أن هذا الكتاب بالذات هو الذي سوف أدخل به النار جالساً فوق حاروق عظيم !

قلت : إسمح لي أن أتكلم أنا يا أستاذ . لا داعي لأن ترهق نفسك يا أستاذ . أن سوف أتكلم بعض الوقت أرجوك .. أو إذا كنت تصر على الكلام سوف أخرج وأتركك للذكرة

وأشار الأستاذ الحكيم بيده بما معناه أن أبقى وأن أمضي في الكلام . قلت له : الأستاذ العقاد هو الآخر كان مشغولاً بمثل هذا المعنى ..

وكان الاستاذ العقاد يعتقد ان العلماء البسطاء جميعا سوف يدخلون الجنة .. أما المثقفون فيدخلون النار .. بعض النار .. اما العلماء والفلاسفة فالنار مثواهم جميعا .. لانهم درسوا وتعلموا وعرفوا .. ولكنهم ضعاف الايمان .. وكان الاستاذ العقاد يقول لنا عندما يعترم السفر الى الاسكندريه في الصيف : ان لم نلتق في هذا البيت ، فالنار مثوانا جميعا ان شاء الله !

وكد نحن طلبة الطبعة نضحك لهذه العبارات التي تدل على غضب العقاد وعلى سخريته .

وحاول الأستاذ الحكيم أن يرد أو يعلق ، ولكن اقتربت منه لكي يسكت حتى أكمل عبارتي قلت له : ولكن رحمة الله ان تضيق بك أنت والأستاذ العقاد .. ولا بأحد .. هل تذكر يا أستاذ النكتة التي أطلقها المرحوم كامل الشناوي عندما قال أن العقاد وطه حسين والحكيم وهيكل باشا ان يدخلوا الجنة ، فقد ألف كل منهم كتاباً عن الرسول عليه الصلاة والسلام وكسبوا من ورائه

الكثير في الدنيا ، فلا مكافأة لهم في الآخرة . هل تتذكر يا أستاذ مسرحية الشاعر الإيطالي جيوفاني بابيني التي عنوانها « عوايه الشيطان » والتي ترجمتها أنا ونشرتها مسرقها بالكامل أحد الوزراء السابقين وجعل عنوانها « دموع إبليس » وكتبت مقالاً فضحت فيه دموع السيد الوزير ! في هذه المسرحية يطلب الشاعر بابيني الرحمة لإبليس .. فقد كان إبليس كبير الملائكة . ولكنه عصا الله . فحكم عليه بالطرد من السماء » وتساءل الشاعر . هل معقول أن نصدق رحمة الله بواحد من مخلوقاته » بواحد من ملائكته لمجرد أنه ارتكب معصية !

بل سيعفو الله عنه وسوف يشمله بوسع جدته .. وهاجمت الكنيسة على الشاعر وحرمته من دخول الجنة فقد رأته شيطاناً أسوأ من كل شيطان . فلا خوف عليكم أنتم الأربعة يا أستاذ ..

واحتفى الدكاترة وعادوا ومعهم جهاز تسجيل لهذا الحوار مع الأستاذ الحكيم . وكان لابد أن أسكت فقد قرر الأستاذ الحكيم أن يتكلم . وكان صوته ينطلق مبحوحاً بلا معالم ، مثل نظراته ولغته . إنه مثل مصنع كبير انطفأت فيه الأضواء وسكتت كل الآلات الدقيقة .. ولم يبق إلا حارس المصنع يحاورني بما لديه من معلومات ضئيلة وصلاحيات قليلة وبما سمع من الأستاذ طالعاً ونازلاً مفكراً ومبدعاً قلقاً صاحكاً متأملاً غاضباً من ماضينا يائساً من مستقبلنا .. قلت : يا أستاذ ومضى الحكيم يتكلم وكأنني لم أقاطعه : يبقى هذا السؤال : ما معنى هذه الحليقة .. هذه المقالة .. هذه المقولة .. هذه القصيدة .. هذه اللوحة ؟ ! إننا عشنا وقرأنا ما عاشه غيرنا .. ولكن لم نصل الى فهم دقيق .. فحين لم نفهم : ما معنى ما جدوى .. ما ضرورة كل ذلك ؟! هذا هو السؤال الذي يسد كل الأبواب والموانع .. إنه السؤال الذي يحترسنا . ويقف في زوري وأنا سأظل واقفاً في زوره .. هه والا إيه رأيك أنت .. طبعاً الذي سوف أقابله هو أحد الملائكة . فأنا لصغر من أقابل الله وربما استطاع هذا الملاك الصغير أن يرد على سؤال الأصغر فإذا أجاب وأقنعني فسوف أشعر بحقارتي أكثر .. لأنني في مرتبة أقل من أن أكون جديراً بأن أسأل الله سبحانه وتعالى .. أما إذا لم يقنعني الملاك فماذا أفعل به ؟ هه .. ما رأيك ؟

قلت : يا أستاذ دعني أكلمك أنا بعض الوقت .. أليس هذا حواراً يا ملك الحوار ؟

واقترب جهاز التسجيل من أنفاس الأستاذ الحكيم .. وتقدمت أنا إلى الأمام : إسمع .. يا أستاذ طبعاً أنت تذكر روايه « الإخوة كرامازوف » تأليف دستويفسكي .. في الجزء الثاني منها نقرأ هذه القصة الطريفة الملفقة . يحكي أن الناس في مدينة أشبيلية فوجئوا بأن السيد المسيح عليه السلام يمشي في الشوارع .. المسيح شخصيا .. فخرج الناس من الكنيسة وتركوا الكاردينال الفخم الضخم يصلي وحده .. وعصب الكاردينال وحرج يرى . إنه المسيح فعلاً بثوبه الأبيض حافي القدمين .. مرفوع الهامة .. والناس في ذهول من رؤيته عليه السلام . واقترب منه الكاردينال وقال له في جرأة وغضب : سيدي أنت تعلم أننا نعذبنا كثيراً من أجل نشر دينك . مات منا الألوف وأحرق كثيرون ولا نستطيع اليوم أن نطبق تعاليمك التي تقول فيها : لن يدخل الجنة غني ، إلا إذا دخل الجمل من خرم الإبرة .. لا نستطيع .. إن الأغنياء هم الذين بنوا الكنيسة .. ولا أستطيع أن أمشي حافياً وأن ألقي كل ممتلكاتي الذهبية والصليب الذهبي .. أرجوك ياسيدي أن تخرج .. أخرج من المدينة فوراً .. أخرج وإلا ألقيت القبض عليك وحاكمتك بتهمة الخروج على المسيحية .. ثم صلبتك من جديد .. أخرج .

وقال الحكيم وقد عجزت قراءة ما رسم مشاعره على وجهه : وأنا أستطيع أن أفعل شيئاً من ذلك مع أحد من الملائكة بالذوق . سؤال والرد عطاؤه . سوف أقوله له : من فضلك ما معنى هذه الحليمه ، ممكن أن يصعني في النار حتى يتبحر معي ويبحر معالم هذا السؤال والأسئله الاخرى .. وبهذا الشكل أتحول إلى ملاك مثله .. ولا عندي أسئلة ولا متاكل وربما أصبحت أشد سخرية من البلهاء أمثالنا الذين يسألون ولا يدوقون الإجابة حتى لو لم تكن لها أي معنى .. صحيح ما معنى هذا السؤال ما فائدته ؟! لا معنى له إلا عندنا .. ولكن بعد ذلك فلا أنا سأكون كما أنا .. ولا دنيانا هي الدنيا التي فوق .. تماماً كما تكون مشغولاً بأسعار الخضروات والدولار ، ولكن فوق : لا خضروات ولا دولارات .. وأشار بيده أن أقترب منه جداً ثم قال : ..؟!

وسألته : ولمن تقول هذه الكلمة ؟! فأجاب : لله . وضحكت لمعة ذم الحكيم حتى في هذه اللحظات التي يختفي فيها الذم والجسم والدنيا ليتحول كل شيء إلى لا شيء ..

قلت : يا أستاذ أنا عندى حل .. وهو أن تعرض قضيتك وهى قضية فلسفية وجودية على محكمة « القاضى ساج » هل تتذكر هذه المسرحية التى عنوانها « وحكم القاضى ساج » للأديب الأسبانى الساخر أرنولدو ديتث ؟ أن أتذكرك بها يا أستاذ .. هى مشكلة عمدة طيب مات فوجىء بأنه ألقى فى الدير .. واستطاع أن يظهر فى النوم لزوجته .. وطلب إليها استئناف الحكم فى محكمة القاضى ساج وهو أحكم الناس فى زمانه .. وذهبت الزوجة والأولاد والأحفاد إلى المحكمة .. وترافع أحد المحامين عن العمدة الذى عمل الخيرات وأقام الكتاتيب وتبرع للفقراء وعالج المرضى مجاناً .. ولم يكذب ولم يسرق .. ولم يغتصب من أحد ولا أغتصب أحداً . وحكم القاضى بضرورة نحول العمدة الجنة فوراً . وذهب موظف إلى السماء ومعه صورة من حكم المحكمة . ودق أبواب الجنة . ورد عليه سيدنا رضوان : مين ؟ قال : أنا معى حكم واجب النفاذ أنت تعلمه طبعا .. أو فى استطاعتك لو أردت . قال له رضوان : إنتظر حتى أسأل ..

ثم عاد رضوان ليقول له : الحكم صحيح ، ولكن سوف يتم بعد ألف مليون مليون سنة يقضيها فى جهنم .. ويقول الموظف . ولكن الحكم نفذ النفاذ الآن .. ويقول رضوان . « الآن » عندكم غير « الآن » عندنا .. يقول الموظف : الآن عندما هو الآن عندكم .. أى فى نفس اللحظة التى أقرأ لك فيها الحكم .. قال رضوان . هذا صحيح ولكنى محتاج إلى كل هذه الملايين من السنين لكى أصل إلى مكانه من النار .. وفجأة ظهر موظف آخر من نفس المحكمة بضرورة تغيير بواب الجنة رضوان لأنه يعطل سير العدالة بين الأرض والسماء .. وفجأة ظهر موظف ثالث يطالب بسحب الحكمين معاً فقد انتحر القاضى .. هنا قال رضوان : الحمد لله سوف يجلس القاضى على يمين العمدة فى جهنم .. إنزلوا .. إنزلوا .. وأغلق الباب !

وأشار الأستاذ الحكيم بيده أن إضرب أكثر . واقتربت وهمس فى أذنى وصمتت . وقال : هذا ما سوف أقوله . أريد أن أرى ما الذى سوف تقوله أنت .. طبعاً كلنا فوق سوف نعرف ما الذى سيقول وسنعرف إن كان العقاد أو طه حسين أو حسين هيكل قد أعلنوا فوق ما كانوا يرددونه تحت !!

قلت للأستاذ الحكيم : هل تتذكر يا أستاذ أنك أعطيتني النسخة الوحيدة من كتاب مسرحية « فاوست الثالث » عندما كنت مريضاً في مستشفى المقاولين العرب .. قال : نعم .. لماذا

قلت . هذه المسرحية التي هي من تأليف شاب مصري صعيدي من الفيوم وحيد غير شرعي لشاعر فرنسي هو إبن غير شرعي للشاعر الألماني جيته .. إن هذه المسرحية تضم محاكمة بين الطبيب فاوست والشيطان مفيستوفلس .. وعندما يتعالى صوت الطبيب والشيطان ينزل أحد الملائكة ليتوسط بينهما ويوقف هذه المعركة التي تسامعت بها السماوات ومكان جهنم والجنة .. هنا يتهجم الإنسان على هذا الملاك ويسألانه ؟ إنه نعس سؤالك يا أستاذ : إشرح لنا من فضلك ما معنى هذا الكون .. ما حكمة هذه الكائنات .. ومتى ينتهي العالم ، وكيف تكون هيئة الإنسان بعد ألوف ألوف ملايين السنين .. وهل الإنسان بعد هذه السنين الطويلة سوف يحاسبه الله كما يحاسبه هذه الأيام .. بنفس المقاييس والموازين .. أو هل لكل زمان حساب من نوع خاص .. فالطفل له حساب والرجل له حساب من نوع خاص .. ولما اكتشف الإنسان أن الملاك ليست لديه معلومات إفرحا عليه أن يتحمر معهما .. ويكون هذا الانتصار المعاصي إحتجاجا على ضخامة الأسئلة وسذاجة العقل .. أي كيف تصدر عن العقل الصغير مثل هذه الأسئلة العويصة .. ثم كيف يكون الجواب عنها ؟

وسألت الطبيبة التي أمسك الأستاذ الحكيم يدها : لماذا لم يتوقف عن المضغ مع أنه ليس في فمه طعام ؟!

فقالت : ولكنه لا يريد أن يبتلع الطعام ..

وعاد الأستاذ الحكيم يردد السؤال الذي لم يجد له حلاً .. هنا أدركت أنه ليس طعاما هذا الذي في فمه ، وإنما هو سؤال يحاول مضغه أو استحلابه .. ولكن السؤال لايزال له من حلق .. كما أن الأستاذ الحكيم ما يزال واقفاً في « رور » الكون يسحب وراءه كائناً غريباً على شكل علامة استفهام .

ويصدق على الأستاذ الحكيم حكمة يونا : وراء هذا الأفق كل شيء يعمى . أبدي .. الأسئلة هنا والإجابات هناك !

إننا ندعو الله أن تتوالد أسئلة الأستاذ الحكيم فتكون طابوراً طويلاً يمشي وراءه .. لعله يبقى بيننا لطول ، وقيتنا أعمق ، ولذا أمتع ، يا أرحم الراحمين !

الذى هو توفيق الحكيم

الذي لم توفيه الحكيم

من السهل أن تكره : العقاد
من الصعب : طه حسين .
من المستحيل : توفيق الحكيم .
فليس له أعداء .. حتى أعداؤه يحبونه فالعقاد يصدمك . وطه حسين يراوغك .. والحكيم يسحك على نفسه وعلى الناس . فهو يصنع الطاقية على دماغه ، والعصا في يده ، ويسحب وراءه حماراً .. وأحياناً يطيل لحيته ، وأحياناً يطيل شعره .. ثم إنه يحمي يديه في جيوبه دائماً ، خوفاً من أن يراها أحد فيطلب منه مساعدة !
ونحن أسعد حظاً ، فقد عرفنا الثلاثة العمالقة .. أما المفكر فهو العقاد والأديب : طه حسين ، والفنان الحكيم ..
وقد اختلفوا في كل شيء ..
ولكنهم جربوا المقال وترجمة حياة « محمد » عليه الصلاة والسلام ..
أما العقاد فقد صنع من تاريخ الرسول درعاً محكمة من الحديد ..
وطه حسين جعله عباءة من الحرير ..
والحكيم جعله من التريكو ..
والعقاد إذا كتب عن العظماء ، فهو يتقمصهم ويسحب تاريخهم وراءه .
وطه حسين يمشي إلى جوارهم يحادثهم ويجادلهم ..
والحكيم يمشي وراءهم وينور حولهم ثم يختفي .. وأذكر أنني جمعت العقاد وطه حسين والحكيم على خط تليفوني واحد ، ونشرت مادار بينا في صفحة كاملة من « الأخبار » وكان ذلك من ٢٥ عاما .

أما العقاد فيرى أن طه حسين أفكاره قصيرة وعباراته طويلة ..

وطه حسين يرى أن العقاد إذا تحدث عنك نزع نفسك ووضع نفسه هو

أما الحكيم فيرى أن العقاد جسر إلى الثقافة الإنجليزية ، وطه حسين كوبرى الثقافة اللاتينية - أى أنهما يمثلان الحضارة الغربية .

ويرى العقاد أن الحكيم فنان ، وناقد ، ولكنه يحتاج أن يكون أديباً

وطه حسين يرى أن الحكيم يريد أن يتحدث عنه الناس ، ولذلك كانت أفكاره الشاذة . أنهم ثلاث قمم متقاربة .. إذا تطرب من الواحدة إلى الأخرى لم تحدث بعيدة عنك ، ولا عالية فوقك . ولكننا نحن نراهم عظماء وقد أسعدنا التاريخ بهم فجهرنا العقاد ، وحدثنا طه حسين وأسعد الحكيم ..

* * *

وتوفيق الحكيم هو « أديب » القصة القصيرة والرواية والمسرحية والمسرواية . التى هى نوع من الرواية والمسرحية .

وتوفيق الحكيم هو صاحب أجمل مقال فى الأدب العربى الحديث - وإن لم يكن مشهوراً بذلك !

ولم يشتغل الحكيم بالسياسة مثل العقاد وطه حسين ولكنه اشتغل بالفكر السياسى .. ولذلك كان مسرحه اجتماعياً ، وكانت رواياته « عودة الروح » هى أم الثورة المصرية . فهى رسم خطوطها وأطلق بوقاتها .. والتى بشرت ، وانتظر النتيجة وأسعده أن كانت ثورة يوليو تحقيقاً لآماله البعيدة ..

وعندما انحرفت الثورة ، وتحول الثوار إلى طغاة وعاد الشعب المصرى إلى الهوان والذلة والمسكنة ، ثار الحكيم وصعه الأدباء وكتب « عودة الوعى » .. ورأى العالم كله ثلاثة من الأدباء العظماء يقفون طوابير الساخطين على أوطانهم : برنارد شو فى بريطانيا ، وسارتر فى فرنسا ، والحكيم فى مصر .

وحاول الحكيم أن يفعل شيئاً ، فأمسك المقشة وكنس شوارع القاهرة ، أملاً فى أن يكون رمزاً لنظافة الأرض واليد والضمير . ولم يمسك المقشة أحد من بعده !

... كانه في السنوات الأخيرة دليلاً على قمة اليأس من النجاة
... قد لخص كل فلسفته في هذه العبارة : أفطر وراءك في غضب ،
... في يأس !

... لم يتوقف عن المحاولة . فكان أسبق الأدباء إلى نقل ، مسرح
... إلى مصر ، فكانت مسرحياته العبثية التي بدأها بمسرحية .
... النجاة ، فعرق المسرح المصري بمحاولات لا معقولة .. حتى
... المسرح المصري بهذا العبث الذي لا معنى له ، سوى تقليد الحكيم وتقليد
... ايضا

... في مواجهة الطوفان الذي حاول الحكيم ما حاوله ابن نوح عليه السلام
... من الغرق بأوى إلى جبل يعصمه من الماء . وكاد الحكيم يغرق
... مكتبه العظيمة عندما ، ولولا صدق نبيه .. وكان ذلك دليلاً على أن
... أكبر من الحكيم ، والعواصف أعنف من غضب الحكيم ، فقد ذهبت
... هذا الحدث ولكن العنت دليل في التاريخ ، على أن الحكيم حاول أن
... شمعة مضاءة في قلب العاصفة . فأحرق أصابعه حتى لا تطفىء
... شمعة ولم تطفىء !

★ ★ ★

... أحب الناس توفيق الحكيم ، لبساطته ولأنه قريب منهم ، وبسرعة يكون
... واحداً وإياهم ، فلا هو العقاد قد ارتدى ملابس مدرعة وأمسك سيفاً ،
... هو طه حسين إمبراطور الأدب وإنما هو الذي يقبل أن يمنحن مدى بحله
... حرصه على الفلوس .. وكيف أنه يساومك حتى لا تشرب عنده فنجاناً من
... قهوة ، ثم إنه ، الموسوس ، الذي يخاف من الهواء والأمراض . أي هو
... البسيط الضعيف مثلك ، بل أضعف ، مما يجعلك تشعر أنك أقوى وأنك
... عنه . وهو الذي يحب أن يتحدث عن الفلوس !

قال طه حسين : إن الحكيم يحب أن يكون حديث الناس ..

ولكن الحكيم ليس بخيلاً ، وإنما هو رجل فقير تحله محدود .. وهو قد جعل هذا العيب المادي موضوعاً للفكاهة ..

وعندما كان له مكتب في المجلس الأعلى للفنون ، كان إذا رأى صديق مهموم واستقبله عند الباب وقال : إشرب قهوة عند يوسف السباعي ، وبعد ذلك أنا في انتظارك !

وعندما يزوره أحد في مكتبه في « الأهرام » يبادره بقوله : إشرب قهوة عند ثروت أباظة ، أو صلاح طاهر وسوف تجدني في انتظارك !

أتذكر أنني سألت إبنه الفنان المرحوم إسماعيل الحكيم : كيف حال والدك ؟ فقال إسماعيل : أدفع له الديون بانتظام !

سألت الحكيم تعليقا على ما قاله إسماعيل فقال : فعلاً .. أنا أجلس أمام باب عرفته ، حتى إذا صحا من النوم طلبت منه أن يدفع الكمبيالات التي عليه وهو يدفعها بانتظام !

أما حكاية الديون هذه ، فهو أن المرحوم إسماعيل الحكيم قد طلب من والده قرضاً ثلاثة آلاف جنيه ليشتري آلة موسيقية .. فوافق الأب بشرط أن يدفع عنه ثلاثمائة جنيه كل شهر .

وكان إسماعيل الحكيم يضحك قائلا : ولكن والدي لا يعرف أنني دفعت القسط مرة واحدة . أنا أعطيه المبلغ وهو يعطيه لوالدتي ، ووالدتي تعيده لي .. ولو نظر والدي إلى الطوس وأرقامها لعرف أنها هي هي !

وكان الحكيم إذا شرب قهوة على حسابه . ومن النادر أن يحدث ذلك . فإنه يدفعها عند نهاية الشهر ، ويرهص أن يدفعها يوما بيوم .. فماذا ؟! يقول الحكيم : عذاب يوم ولا كل يوم !

وعندما إحتفل الأهرام بعيد ميلاده أخيراً ، إلتف حوله الأدباء يتحدثون عن شخص الحكيم ، وكان تسجيلاً لا يمكن أن يذاع ، فقد وقعنا جميعاً في مصيدة مداعبة من الحكيم

ولم نتحدث إلا عن بخله وحمقة دمه ومداعبة العفيات الصغيرات له وتهديدهن له بالزواج بالإكراه . كأنه لم يكن أديباً كبيراً ولا ناقداً ناقداً ولا مؤلفاً مسرحياً وروائياً ولا أستاذا للجميع ، ولا ملهماً لجيل كامل من المثقفين ..!

* * *

أذكر أنني حاولت إغراءه بأن يكتب لمجلة ، آخر ساعة ، وكنت رئيس تحريرها فوافق إلا قليلا ، وعرفت أن السبب هو الفلوس .. فأعريته بمبلغ كبير فوافق .. ثم عدل .. والتقت مع السيدة صفيه المهندس على أن أسجل الحوار التليفوني بيني وبين الحكيم دون أن يدري . وبغتة بإذاعته .. فلم يسمع أحد صوت توفيق الحكيم وكان يعلم أنه ليس محترفا ، فلا هو مثل طه حسين ولا هو مثل العقاد ، ثم إنه مثل الشاعرين شوقي وإبراهيم ناجي ينهيه ، واتصلت بالحكيم واستأنفت المفاوضة والمساومة لكي أسجل له الحديث .. وطال الحديث الطريف الممتع . ولكن أجمل ما فيه بعض الجمل والعبارات الساخرة اللاذعة التي لا يمكن إذاعتها ! ثم وافق بشرط أن أدفع له مقدماً ، وأنه لا يتقاضى شيكات . وإنما عشرات الجنيهات يراها ويعدها واحدة واحدة ، وكنت أذهب إليه بالفلوس يعدها أمامي ويضعها في درج مكتبه ويغلق الدرج ثم يعطيني المقال ! ثم ساومته مرة أخرى على أن يكتب مذكراته في مجلة أكتوبر ووافق بشرط أن أدفع له ضعف ما يتقاضاه من الأهرام ووافقت . وقال : مقدما ؟ قلت : مقدماً !

وكنت في جلسة فوجدت إلى يساري السيدة سميحة أيوب وإلى يميني د . عمر وزير الأوقاف .. وفتحت سميحة أيوب حقيبتها وأخرجت المبلغ .. وقدمته للحكيم وراح يقلب في الفلوس ويتأكد من أنها ليست مزيفة .. أعادها إليها .. فقد تأكد من صدق النية . ولكنه عاد يسألني : إذا كانت سميحة معها مثل هذا المبلغ فكم يكون عندها من فلوس في البيت ؟.. ثم افترض أنني أحدث الفلوس ولم أكتب ولم أردها لك فماذا تفعل أنت ؟ أو افترض أنك أكرمت وأنا لم أنكر أنني أخذت منك فلوساً لكن في نفس الوقت أنكرت أنني رأيت سميحة تعطيك هذا المبلغ ؟ ثم ما مصلحتها هي في أن تبادر ؟ وافترض أن الشيخ عمر رأى سميحة تعطيك المبلغ ولكنه لا يعلم أن هذا المبلغ من أجلي ؟ وافترض أن وزير الثقافة منصور حسن رأى سميحة تعطي الفلوس للشيخ عمر ، ولم يرك ولم يرني . ووقعنا جميعاً وحلفنا أمام القاضي .. وقلت أنا : لم أتعاص وقلت أنت : ولا أنا .. والشيخ عمر قال : ولا أنا وقالت سميحة على سبيل تعقيد الموقف والدعابة : ولا أنا دعست ! ثم جاءت ممثلة معمورة تريد أن تكون حديثاً

للصحف و لإذاعة والتليفزيون وقلت ... التي تعجب أن اصنعها عند قدمي سميحة أيوب ... فهل من حق رجال الأمن في ضوء هيلوز هذا أن يطالبونا برد هذا المبلغ إلى أن يظهر له صاحب ؟!..

فرحني توفيق الحكيم . وتكلم كتب عدد من المقالات في مجلته ، اكتوبر ، وبنفس الشروط وبنفس الطريقة التي حددها ثم اتصل بي الحكيم وقال لي الآن يجب أن أتوقف ..

فقلت : لماذا ؟!

قال : أنت الآن تكتب سلسلة في صالون العقاد وتهيىء الجو الأدبي والفلسفي لقصائد كبرى تصنع منها التاج والصولجان وتنصب العرش للعقاد وأنا اجعل من نفسي مهلوناً ليضحك الناس !؟ كفى !

واصل توفيق الحكيم إلى هؤلاء العباقرة الذين لم يحصلوا على جائزة نوبل في الأدب : تولستوي وشيخوبي وجوركي ومارك توين وبلس وهاردي وريلكه وشربنبرج وبروست وبرشت وفاليري وأوكيشي وكازانتزاكس وموراهيا ..

والحكيم مثل العقاد يكتب على ورق صغير وله خط دائري واضح .. ويكتب بالحبر الأزرق وكان العقاد يكتب بالحبر الاحمر ثم الأحمر

والحكيم يقول . لقد كان العقاد احكمنا جميعاً . كان يأكل الطعام المسلوق وطه حسين يأكله نصف مسلوق

ومات العقاد اكل المسلوق عن ٢٣ عاماً ، ومات طه حسين آكل نصف المسلوق عن ١٤ عاماً . مات الحكيم سنة ١٩٨٧

وقد نصح الاطباء توفيق الحكيم بان يمسك عصا لتكون خطوته منضبطة وبذلك ينتظم التنفس والدورة الدموية وتكون خطوته أبطأ فلا يعرق كثيراً ، لأنه يتعطى فرنسيين من الأسيرين يومياً .. والحكيم يسخر من الأطباء قائلاً : الآن لا أستطيع أن أحمل العصا ، ولكن أعطيها لمن يمشي إلى جواري .. فإذا رأيت الطبيب من بعيد ، سارعت وأمسكت العصا ..

وكان الأديب الفرنسي الكسندر ديماس يشكو من الأرق فنصحه الأطباء أن يأكل تفاحه في الساعة السابعة صباحاً تحت عرش العصر .. لكي يصحو

في مواعيد محددة ويأكل طعاماً واحداً وفي مكان واحد ـ تنظيماً للبيطة والمشي والأكل والهضم والنوم .. وكان نيماس يعد تعليمات الأطباء حرفياً ، يأكل بملعقة في الساعة السابعة وقد وضع صورة لقوس النصر فوق رأسه ، ثم يدير ساعته إلى السابعة ويكمل الأرق حتى الصباح !!

هل تعرف ما الذي قاله توفيق الحكيم عندما زرته في مستشفى المعاولين بحلوان ـ وكان مريضاً .. سوف أقول لك ..

وبالمناسبة فهذه هي أيضاً آخر كلمات هؤلاء الثلاثة . قالوها عندما اشتد عليهم المرض . وعاشوا أيضاً بعدها : كانت آخر كلمات العالم داروين : لا أظن أنني أخاف الموت ..

والشاعر جيته : مزيداً من الضوء ..

أوسكار وايلد : مزيداً من الشمبانيا سوف أموت كما عشت فادح التكاليف .

برنارد شو للأطباء : يحاولون أن أعيش أطول .. لا داعي .. أنسى أنا .. سوف أموت حالاً .

لورد بيرون : يجب أن أنام الآن !

أبسن : أنا لا أتحسن .. انتهى ..

نولستوي : ولكن كيف يموت العلماء يا ترى !

سقراط : أيها الثلاثة بدلت أن أنبحه . لا تنسوا الوفاء بالنذر .

روسو : أريد أن أرى الشمس لآخر مرة ..

رابليه : أغلقوا الستار .. لقد انتهت المهزلة .

فولتير : دعوني أمت في هدوء

الشاعر هيبه : أترك زوجتي لزوجتي بشرط أن تتزوج فتاتي برجل يرثي لحالي .

ديوتن : لا أعرف ما الذي سوف يقوله العالم عني ، ولكني أرى نفسي مثل طفل صغير كان يلعب على الشاطيء فعثر على طلطة داعمة من حين إلى حين ويسعده ذلك .. بينما المحيط الشاسع الواسع يظل مجهولاً ..

فلاطون - إني أحمد الله أن وهبني رجلا ولم تجعلني امرأة ، إغريقياً ولست همجياً ، وإنني عشت في عصر سقراط ..

ـم الذي قاله توفيق الحكيم وكان شاحب الوجه مرتجف اليد منطفىء العينين ، تحلى عنه بحمه وشحمه حتى صار الهيكل العظمي لتوفيق الحكيم : من الذي سيدفع تكاليف العلاج ..

وقبل أن أضحك وجدت شعاعاً حاداً من شعني الحكيم وعينه .. إنه مشروع يشاره مرور إلى الطريق إلى قلبك . إن الحكيم ما يزال يضحك أو يحاول ذلك رغم صعوبة الموقف !

توفيق الحكيم ينظر
وراءه راضيا وأمامه يائسا

توفيق الحكيم ينظر وراءه راضيا وأمامه يائسا..

لن يكون الاستاذ توفيق الحكيم سعيدا ، اذا وصفت كتابه الاخير ، مصر بين عهدين ، بانه أروع الدراسات الحضارية التي كتبها وسوف يكون غضبه لا بسبب انني امتدحت كتابا يستحق عظيم التقدير ، ولكن لأنني وصفته بانه دراسة فالحكيم لا يحب ان يوصف بأنه باحث او دارس او انه قرأ مئات الكتب . فهو يخاف ان يوصف بانه قد تأثر باحد إنما هو فنان . اى مبدع

بعض النقاد يحسبون مجال « الإبداع » فيتوهمون انه خاص بالقصة والقصيدة . وقد عد ذلك من اشكال الاسف لبؤس ابداعي . فالذي كتبه طه حسين عن السيرة النبوية وعن ابي العلاء والمتنبي إبداع في الفكر والمضمون والأسلوب وما كتبه العقاد عن العبقريات وعن ابن الرومي وسواويه ودراساته النفسية والحضارية إبداع ايضا والقصة والمسرحية لا تختلف عن ذلك ، فهي تنبثق من الواقع وتعيد صياغته . وتكون رؤية للنمط والأسلوب هما الإبداع وكذلك كل الجوانب تخيلية والمتخيل ، ما هو سابق ، من الواقع فأيسماني او الواقع الشخصي ثم ينقله الى الناس

وقد يرى الحكيم هو الذي جعله يصنع ما صنع طه حسين تماما بمثل ، ويصنع العقاد مثلهما بكثير . فالحكيم عندما يتحدث عن حركة التنوير في العشرينات يرى انه يزعم التنوير في الفن ، وطه حسين في الجامعة ، والعقاد في المطالعات مع ان ما صنعه حسين لم يدخل الجامعة لكن قد خرجها من حدودها ومع ان العقاد لم يلتحق بالجامعة ، فإنه هو الآخر قد هز أركان النقد الأدبي والفكر الجامد ، وادخل منهجا جديدا في تحليل الشعر ودراسته الشخصية الإنسانية وفهم التاريخ . ولذلك لا يعتبر الحكيم كثير مما كتبه هو من دراسات ومقالات . مع أنه من أحسن وأبرع ما كتب العقاد في الأدب العربي الحديث فعبارته سريعة شديدة قاطعة .

وكتاب « مصر بين عهدين » أجمل وأمتع وأعمق ما كتب توفيق الحكيم . ففي هذا الكتاب (٢٤٠ صفحة) خلاصة نظرته الطويلة العميقة الى مصر والمصريين والحضارات الفرعونية والهندية والإغريقية والعربية . والحكيم بنظرته الشاملة إلى الأدب واللوحات والتماثيل والأهرامات والمعابد والكنائس والموسيقى ، يؤكد لك اقتداره على استخلاص المعنى الواحد من أشياء كثيرة مختلفة . منتهى الذكاء والبراعة . فقد ارتفع كعصفور يلقي نظرة قريبة من مصر ، ثم تحول إلى نسر يدير عينيه فوق الحضارات . ومن كل ذلك يتأكد لديه : أن مصر القديمة أقوى وأرسخ وأعمق .

وقد لاحظ في شبابه في محافظة البحيرة أن في مصر ثلاثة أنواع من الناس : الأتراك والبدو والفلاحون . التركي العثماني هو الحاكم السيد ، والبدوي هو الذي يعيش على الحدود المصرية يحميها ، وهي نفس الوقت لا يخضع لقانونها .. ثم الفلاح ، المصري ، الذي يزرع الأرض ويقدم الطعام للذين يتعالون عليه ويحتقرونه . فالبدوي يرمي إبرته للتمساح ولا يزوجها لفلاح . كما يقول المثل . والتركي يرى الفلاح إنسان قذرا ..

ولم يسأل المصريون عن هويتهم ، ومن هم ؟ . وما هو المصري ومن هو المصري ؟ . وأين هو ؟ . إلا بعد ثورة ١٩١٩ ، وإلا بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى . ذهب الوفد المصري يطالب بمصر للمصريين . أي باستقلال مصر ، وهذا ما أراده توفيق الحكيم في روايته « عودة الروح » سنة ١٩٢٦ . أراد أن يبين : أين الروح المصرية ؟ . وكيف تظهر ؟ وما شكلها ولونها وحجمها ؟ .. وما رائحتها ؟ . والروح والريحان والرائحة بمعنى واحد . والحكيم لذلك لا يتقدم « بدراسة » عن الشخصية المصرية ، إنما هو يشم رائحة مصر . أي يشم روح مصر .. معتمدا في ذلك على تجربته الشخصية والعبقرية في مصر وبعيدا عن مصر .. في باريس كما فعل رفاعة الطهطاوي قبله بمائة عام . والحكيم قد سمع كلمة « الهي » ولايزال يردد ذلك ، من عوالم الأفراح والمريكانية والمشخصاتية والصعاليك ، من دراويش العتبة الشعبية والمسرحية ..

وأول شيء يهز رفاعة الطهطاوي في فرنسا : مائدة الطعام ونظافة الشوارع .. فقد لاحظ أن الناس يجلسون على مقاعد وليس على

لأرض . وأن « طبلية » عالية يصعودها أمامهم . وأمام كل واحد طبق خاص وكوب خاص . وشوكة وسكينة وملعقة . وأن كل واحد يغرف لنفسه من طبق كبير .. أما الشوارع فيستخدمون عربات الرش التي لها ثقوب يخرج منها الماء بقوة ويجرها الحيول .. وأما المرأة في المقاهي فالإنسان إذا وقف إلى جوارها فإنه لا يبدو سميجا .. إنما يظهر كما هو . أما الحكيم فقد بهرته المسارح والمتاحف وقاعات الموسيقى والكتب على الأرصفة ودور السينما وبائعات التذاكر .. ولاحظ أن الفرنسيين إذا شاهدوا فيلما للمغريات الجنسية فإنهم ينظرون إلى ذلك بجد : لا حركة .. لا همس .. لا ضحك . إنهم جادون . يريدون أن يعرفوا . وإذا عرفوا بحثوا . وإذا بحثوا طبقوا . وإذا طبقوا أتقنوا . ونحن لا نعرف الإتقان في شيء . وإذا كانت المرأة الأوروبية قد رفعت الحجاب ، فإن المرأة المصرية مازال نصفه على وجهها ، والرجل مايزال يضعه على عقله .

أيضا لا يعرف « الصيانة » . فالفرنسيون إذا أنشأوا عمارة ، جعلوها متينة كأنهم سيعيشون أبدا ، أما نحن فنجعلها من الطين كأننا سنموت غدا . ولذلك فهم

لا يرممون عماراتهم القوية ، ونحن لا نرمم عماراتنا المنهارة !

ومضى توفيق الحكيم يرقب ويحلل ويعد إلى ما هو أبعد وأشمل وفي عينه مصر وفي خياله وآماله .

واهتدى الحكيم إلى أن ملامح الروح المصرية : العلم والإيمان والفن معا . فالأهرامات الفرعونية : عمارة وهندسة وفلك وكهانة وإيمان وأسرار .. وفي العهد المسيحي . كانت الأديرة والكنائس والمكتبات واللوحات والأيقونات .. وفي العهد الإسلامي . المساجد وأعمدتها ورخرفتها وحلقات لدراسة الدين والطب والفلك ..

ومن مظاهر الحضارة المصرية : الشمول والاستقرار .. بينما الحضارة الأوروبية مجيء على شكل موجات : موجة إيمان وتعصب .. وموجة إلحاد وكفر .. وموجة تطور صناعي مادي .. وموجة تمرد على الآلة والصناعة ورفض لكل شيء .

ولم يكن الحكيم في حاجة إلى أن يسافر إلى مصر من حين إلى حين ، إنما

كان له صديق إسمه د . سعيد .. هو مصر كلها . فهو يصنع المصحف إلى جوار الميكروسكوب ولا يقرب الخمر ولا يبعد عن السماء ! . وعندما عاد د . سعيد إلى مصر أقام في بيت به عدد من قوات الاحتلال البريطاني . وكانوا يضحكون كلما فتح الراديو على القرآن الكريم وكانوا يقولون له : كفى موسيقى ! . فبعث بخطاب إلى السفير البريطاني . وارتعج السفير . وخشي أن يؤدى ذلك إلى ثورة دينية - إلى هذه الدرجة كان متمسكا بالدين والعلم معا

وكان د . سعيد هذا لا يفهم كيف يكون الحكيم مؤمنا ومتطلعا أيضا ؟. أي كيف يؤمن بالله ويتساءل عن معنى ذلك ؟. ويكون رد الحكيم معناه : أنه ولد وفي داخله هذا الجهاز الدقيق الذي لا يكف عن التساؤل .. أو أن في داخله زرارين . واحد إذا ضغطت عليه سمعت من يقول : أؤمن بالله .. وزرار آخر إذا ضغطت عليه سمعت من يقول : ولكن لماذا ؟

ومن ملامح الروح المصرية : التسامح . فلم تعرف مصر المذابح الدموية بين أبناء الديانات المختلفة ولا بين أبناء المذاهب في الدين الواحد . وفي أوروبا ماتزال الحرب دموية بين أبناء الدين الواحد ، وبسرعة انزلق المصريون من التسامح إلى التساهل .. ، والتساهل هو الوجه القبيح للتسامح ، .. فلم يعد أحد يهتم كثيرا بالحقوق والواجبات ، أو بالبحث والمعرفة والدقة الواجبة والصيانة اللازمة ، أو التنوير والتطوير .. ويكون الرد على التساهل هو : معلهش . ومعاها ما عليه شيء .. ما على أحد شيء إن لم يفعل ، وبذلك تدهورت وتدحرجت مصر إلى حفر التخلف وكهوف الجهل !

وكان بعض الناس يعتقد أن الغيبيات والإيمان بها ، من ملامح الشخصية المصرية وحدها . ولكن صحف باريس تنشر ، البخت ، وفي شوارعها من يقرأ الكف والطالع . فهل حدث ذلك لأن اضطرابا ما قد أصاب العقلية الأوروبية بعد الحرب العالمية الأولى ؟ . أو هل السبب أن العقلية الأوروبية تبحث عن ممالك أخرى لما وراء الحياة والعقل ، أو أنهما معا ؟ . ومع ذلك فهي فرنسا كانوا ينظرون إلى هذه الغيبيات ، وإلى القوى الخفية كالحاسة السادسة ، نظرة علمية . إنهم يريدون أن يعرفوا . ولذلك فتناولهم لمثل هذه القضايا علمي في الدرجة الأولى . وليس تصديقيا كاملا ، كما هو عندنا .

وقد أثرت الحضارة المصرية في الحضارة الأوروبية لاشك في ذلك . ـــ ء من اكتشاف الفرنسيين لحجر رشيد . فبعد ذلك إنفتحت لهم وعليهم كنوز الحضارة الفرعونية القديمة . وظهر ذلك واضحا في الفن . وبعد الحضارة الفرعونية إتجهوا إلى الحضارة الإغريقية الشرقية ، والأساطير القديمة وقد سهرت وقامت الرومنسية الأوروبية كلها على الهجرة إلى بعيد والاحتماء في بحرة السوداء والاعتصام بالسحر القديم ..

ومن خصائص الروح المصرية أيضا : الشعور بالبقاء أي بالإستمرار . الاستمرار . فالمصريون على أرضهم هذه من ألوف السنين ، تغيرت اللغة حولهم ، وهو كما هم جاء غزاه وهزموا وظلوا على أرضهم والقراعنة قد كسبوا نوعين من الكفن : الحجارة والشعب . وإذا كانت الأحجار تآكلت واضمحلت إلى من يرممها ، فالشعب أيضا .

(وفي الحضارة الهندية اكتشف الزعيم غاندي أن أعظم قوة هي التكتل الشعبي . يضعه أمام سيارات الإنجليز وقطاراتهم وجيوشهم . فيجدون أنفسهم عاجزين عن تحطيم هذه الكتلة البشرية وإذا أمسك كل هندي حبة ملح من « ملاحات الإنجليز » أفلست الملاحات . وهذه هي المقاومة الشعبية . كلام جميل قرأته أخيرا للكاتب الكبير كامل زهيري) .

وكلما مضيت في كتاب الحكيم بهرتك روعة التحليل وإشراقة العبارة وبعد نظرة ، وارتفاعه الشاهق فوق الحضارات ، والتصاقه الدائم بمصر

وأجمل صفحات الكتاب جميعا هي العشرون الأخيرة . فقد إستطاع الحكيم بخطوط سريعة وأحكام قاطعة أن يفصل بين الحضارات المصرية والإغريقية والهندية .. والعربية . فالذي كتبه هنا في عشرين صفحة من الممكن أن يكون معتمدا في ألف صفحة . وهو أكبر دليل على الإطلاع الواسع والتأمل الطويل والتذوق السليم .

ويختار الحكيم التمثال شاهدا على الفرق بين حضارة مصر وحضارة الإغريق . فالتمثال الإغريقي عريان دائما . والتمثال المصري يصنع قماشا خفيفا . والسبب هو أن المصري يجب أن يكون خفيفاً مثل الروح ، والإغريقي يجب أن يكون واضحا مثل المنطق والفن المصري لا يهمه جمال الشكل

ولا جمال الطبيعة ، ولكن فهمه الفكرة وهو لذلك ترك الحجر يقول كلاما كثيرا . والمصرى إلهى معاوى . وكل شيء عنده قد هبط من السماء ، وهو لذلك لا يجد ضرورة للكفاح . وكل شيء متوافر عنده . ولذلك فهو آمن على يومه وعلى غده ولذلك نلم أبناء الحضارة المصرية والهندية تحت الأشجار المقدسة ، يحلمون بما وراء الحياة .

وقد قامت حضارة مصر على الروح لأنها شبعت من المادة . أما حضارة الإغريق فهى لم تشبع من المادة . عبلاتهم جافة . والحياة قاسية . وصراعهم مع الجبال والبحار طويل . ولذلك حاربوا وكانت لهم غزوات فى كل القارات ، فلا عرفوا الأمان ، ولا وجدوا الإستقرار .

أما المصريون فلم يعرفوا إلا الإستقرار . بل إنهم جاءوا من بعيد . بل لا أحد يعرف من أين جاء المصريون ؟ . ولا كيف ظهرت الحضارة الفرعونية هكذا متكاملة مرة واحدة ؟، كما يظهر قرص الشمس كاملا عند الشروق ..

والحضارة العربية تشبه الحضارة الإغريقية : فيها قلق وحركة والبحث عن المادة واللذة وزخرف الحياة . وعرف العرب الحروب والغزوات .. بل كانوا أسرع الغزاة فى التاريخ . ولأنهم لم يعرفوا الإستقرار فلم يعرفوا التأمل ، ولأنهم لم يعرفوا التأمل لم يعرفوا فنون الأساطير .. ولم يعرفوا أيضا البناء . إنما عرفوا زخارف البناء ، وزخارف النثر والشعر . فالفن فسيفساء . والشعر أرابسك . والبناء تموجات وإنحناءات وإنكسارات وتقاسيم .. وسيد درويش ذلك الفنان العبقرى هو أول من أدرك أنه فى حاجة إلى الدراسة لكى يغير شكل الأغنية والموسيقى . ولذلك تمنى أن يسافر إلى إيطاليا ، ولكن أحدا لم ينتبه إلى هذا .. إلى أحلام هذا الرجل !

وبعض المؤرخين يرى أن الدين هو الذى منع العرب من أن تكون لهم لوحات وتماثيل وعمائر . ولكن العرب لم يكونوا هكذا متمسكين بالدين ، فقصور الخلفاء والوزراء عرفت الجون والخمر وكل المحرمات . والشعر العربى يصف لنا كل ذلك فى أروع وأجمل صور البديع .. وإنما الرسم والنحت والعمارة فى حاجة إلى فهم شامل وتأمل طويل وتذوق جمالى مختلف ووعى وإنسجام داخلى .. بل إننا لم نجد بين الكتب العربية كتابا واحداً عن موضوع واحد ، فكل الكتب فهارس وكشاكيل ! .

ويرى الأستاذ توفيق الحكيم . أن مصر والعرب متكاملان . فمصر هي الروح والسكون والإستقرار والبناء أما العرب فهم . المادة والسرعة والزحوف .

ويتمنى الأستاذ الحكيم لمصر والعرب أن يتزاوجوا . روحا ومادة وقلقا وسكونا . . وقد استطاعت الحضارة الإغريقية أن تحقق ذلك مرة واحدة !

ولابد أن تقرأ كتاب الأستاذ توفيق الحكيم مرة أخرى . لأنه قد سحرك وبهرك وشغلك عن مناقشة كل أحكامه المطلقة . وأنا قرأت المقدمة والفصل الأخير مرة أخرى . وقد أمتعني الأستاذ الحكيم وأسعدني ، ولكن لابد أن أختلف معه في كثير من أحكامه ومقارناته الخاطفة ..

• • •

ومن سنين عاما لم يكن الأستاذ الحكيم منفائلا ، فقد جاء في رسالة له من الإسكندرية يقول :

« أود لو أكتب إليك بأحباري ومشاعري ، ولكني أراها لا تساوي شيئا كلها ، اهي شيء غير إطراق طويل وابتسامة حزينة ، كلها رأفة ورثاء لكل ما يقع أمامي هدفا ، وبأس قاتل وغرق دائم ، وأيام تجري كالدموع الباردة ، وحياة أتمنى ردها لخالقها لو لم يعطني حق استعمالها كما أريد ؟.. هل تراني مستطيعا أن أكون شيئا غير ذلك الآن ؟ ».

ولكنه بعد ذلك قام بحركة « التنوير » التي أرضته وأسعدته وأسعدتنا ..

أما في نهاية الكتاب وفي الثمانينات يرتد الأستاذ الحكيم تشاؤما . فهو قد اختلف مع طه حسين في أن « التعليم كالماء والهواء » . أي يشمه الناس ويشربونه ، ولكنهم لا يستطيعونه أو يتعمقونه . وكان من نتيجة ذلك : محو الأمية على أوسع نطاق ، وتوزيع الشهادات على عشرات الألوف ، دون أن يؤدي ذلك إلى تنوير مصر وتكوين شخصيتها ، ودفعها إلى الأمام ..

« فمصر الخالدة قد تكونت شخصيتها على مدى العصور ، من العهد الوثني إلى العهد الإلهي بأديانه الثلاثة الموسوية والمسيحية والإسلام ، فترسبت في قلبها كل حضارة الإنسانية ، وعرفت في عهد من عهودها ما شاهدته أنا في

« الكوليج دى فرانس » من تحول أى شخص إلى الأزهر الشريف ، يستمع إلى عالم جليل يستند إلى عمود المسجد ويلقى علمه على الناس المجتمعين حوله ، ولا هدف لهم من شهادة أو وظيفة أو أى مطلب من مطالب الحياة المادية ـ لا شىء إلا تلقى الضوء الذى ينير عقولهم وقلوبهم .. لم يعد هذا موجودا اليوم . فالعلم والتعليم للحصول على الشهادات والدرجات .. أما التنوير الروحى والعقلى لتكوين الشخصية ، فلا تفكر فيه .. حتى الجامعة المصرية التى تدخل كل بيت واسمها « التليفزيون » ، إن هى إلا أداة تنوير وتكوين .. ويرحم الله الشخصية المصرية والأسرة العربية الكبيرة .. »

ولكى يؤكد لنا الأستاذ الحكيم من أين بدأ وإلى أين انتهى ، فإنه يضع فى فصول الكتاب فصلا بعنوان « العوالم » .. هذا الفصل الذى يراه « إبداعا » فنيا هو ـ مطلب .. بركة .. مستنقع .. حظيرة هى طريقك إلى القبة السماوية .. إن الأستاذ الحكيم قد صنع بالقارىء أرصفة القاهرة وقلوب وطبط ورصيف سيدى جابر ليؤكد لك بالكلمة العامية والإشارات الشعبية .. أن هذا هو « المورد » الذى ولد فيه .. وأنه بعد ذلك قد ارتفع إلى سماوات باريس وأثينا وصنعاء .. أو أنه أراد أن يقنعك « عمليا » أنه من هذا الوحل أو هذه الأسمدة العضوية التى تنمو منها أجمل أشجار التفاح ـ ممكن .

ولكن يستحيل أن يخرج الأستاذ توفيق الحكيم بشىء من وحل شارع محمد على إلى « شارع الشانزليزيه الفكرى » دون علم وثقافة ودراسة ودون موهبة ـ فقد استعان الأستاذ الحكيم على « العوالم » بالعلم والفن ..

اصبحت من اهل الكهف

أصبحت من أهل الكهف ..

لقد ظل مدى ثلاثة شهور ، على أن يجيء فصلا فى كتاب جديد يصدر قريبا .. وقد رأى الأستاذ الحكيم أن أنشره فورا .

كل الذين زاروا الحكيم جاءوا يقولون لى عبارة واحدة . يأخى إن الرجل يسأل عنك ، إذهب لزيارته !

أى أننى مقصر فى أداء هذا الواجب لأستاذ وصديق عزيز .. فكأننى لم أقصر فقط ، بل إن الحكيم قد غضب ، ثم إنه وجهنى إلى ما هو واجب .. وهو يشهد كثيرين على ذلك .. وعندى أسباب . فكل الذين رأوه يصفون عوده الذى إلتوى وإنكسر .. يجمعون على أستاذ الحوار كيف أنه أصبح عاجزا عن الكلام .. وأنه يتعذب بسماع الناس يتكلمون وهو غير قادر على ملاحقة ذلك .. وأنه لا يرى أحدا أو لا يصح أن يرى ويسمع .. فانسحب الناس ، كما انسحبت كل الألوان ، فلم يبق إلا اللون الأصفر لوجهه وعينيه ..

ولابد أن أراه .. وأن أتعش كل أنواع العذاب والوجع لقلبى ورأسى . فأبى عندما مات طلب أن أراه .. ورأيته وهمست فى أذنه أننى نجحت فى الليسانس وكان تعليقى الأول ليقول أبى : مبروك ياولدى ..

وبعدها يموت !

وأمى كنت مسئولا عن أن تفقد الوعى بى وبالدنيا وكل ما أنكره قبل وفاتها بأيام أنها أوصتنى بمكان أدفنها فيه .. بعيدا عن كذا وعن فلان .. وألا يمشى فى جنازتها فلان وعلان .. وشكرت الأطباء فقد حذروها حتى ماتت ، وهى لا تعرف ذلك !

ويوم رأيت الأستاذ العقاد مريضا وميتا ..

ويوم زرنا طه حسين لآخر مرة ناقشه فى التليفزيون ، ويوم حملته مع سكرتيره على مقعد من الطابق العلوى إلى الطابق الأرضى .. وهمست فى أذن المخرج التليفزيونى أنه لو مات طه حسين وهو يتحدث إلينا ، فيجب ألا يهزه ذلك ، بل يمضى فى تصوير هذه اللحظة التاريخية - أى أننى لن أسارع إلى إنقاذ طه حسين أو محاولة ذلك ، وإنما سوف أضع الآخرين من التزاحم حول طه حسين حتى يموت ونصحا على الشاشة ! وقد أحجلنى هذا الموقف اللا إنسانى بعد ذلك !

ويوم سافرت إلى الاسكندرية عندما عرفت أن الشاعر عبد الرحمن شكرى الذى قيل أنه مات فى يوم سعيد من عشرين عاما ، ما يزال حيا ، قابلت الشاعر الكبير . وكان ينتظرنى بطربوشه وسطاره .. الرجل نحيف هزيل . العرفة ألوانها فى لون بشرته وجزمته وملابسه وشعثه : باهتة . مينة .. وعلى استعداد لذلك فى أية لحظة !

وكبت عبه ..

وبعدها بأيام مات الرجل . فكأن الرجل عاش مرا عشرين عاما ، وأنا الذى جعلت وفاته علنا !

وبقلت للأستاذ العقاد بدأ العثور عليه ، ثم بدأ وفاته .. وسمع النبأ وبكى فى التليفون ، فأحرمنى حرن العملاق فبكيت لبكائه !

ويوم ذهبت للقاء شاه إيران فى قصر القبة بالقاهرة ، كنت آخر من أجرى معه حديثا وآخر من رآه .. كان الشاه كما رأيته قبل ذلك فى مهرجان فورش ، مشدود القامة .. كل شىء فيه مشدود .. القوام والعنق وشعر الرأس .. والأنف .. قال لى الشاه : أنا أعرف أننى سوف أموت .. هذه حقيقة علمية .. ولعلك تلاحظ أن شعرى يتساقط .. وأننى أتساقط من الداخل .. تماما كأننى إيران . وكأن السرطان خومينى !.. وأحزننى الذى رأيته ، فلم يكن فردا ولا إمبراطورا وإنما إمبراطورية !

ويوم ذهبت إلى مستشفى المعادى لأرى كيف يتمكن الأطباء من إنقاذ الرئيس السادات بعد إطلاق الرصاص عليه . وفى المستشفى وجدت الرئيس مبارك . سألته قال : ربنا كريم ..

ولفيت السيدة جيهان السادات قالت : ربنا كريم ..

ثم أسأل ممدوح سالم : كان قد ذاب دمعا . سألت الأطباء .. قال لى صديق : أنه يحتاج إلى معجزة .. ولم يرد عندما قلت له : هل أستطيع أن أراه ؟..

ذهلت ورأيت ما لا أزال أندم عليه .. لم أجد إلا ملابس ودما وقلبا يمزق أى قلب .

ويوم رأيت السطرية فايزة أحمد فى ساعاتها الأخيرة ، أجمل وأحر الأصوات الجميلة .. وقد تساقط شعرها وغاب لونها وتقطعت حبالها الصوتية ..

نقد حرسيد الموت

أن الاستاذ الحكيم قد عارضه الحبوبه اى العرج والكلام والجلوس طويلا
مع الصيوف سعيد صالحه إبنه إيها سمراء الثوب ملامحها حمه
الحاجبين و لاأنف والعينان والسنان وفيها عصبيه الحكيم

ثم رأيت عصا يخرج من دوره المياه ووراءه توفيق الحكيم الحقيبه
بيضاء مشدوده كطلقيه المدرسين وبعض الاطباء البيجاما صفراء مرسومه
الزرائر وهو واقف بعيدا يقول ياأخي إنني أبحث عنك وقت لعصى لابد
لك سوف تجيء لابد أن تراني في آخر يوم لي لابد لك تريد أن تعرفه
هذه الدهاليه فهي نهايه فعلا سعيد بذلك ولكن الاطباء هذا يقول لي هذا
المقلب ان اعيش مره أخرى أي أن اصطنع الغباء والفكر و الإحساس
بالهموم فانا لم يعد لي دور إنهيت عند الثلاثينات فلا
عندي كلام ولا رأي ولا موقف ولا مطلوب مني اى شيء الشيب
يعيرب الثلمه المطلوبه ليست هي لعصى . انا كالسمك في الماء ان لم
يعير ولكن الماء كان حلو فاصبح ملحا ، والذي كان ملحا أصبح عذب
يعيرب الحروف والبيه واصبحت بحرا ست لا يعبر لي
قلت فلا وسهلا محمدا قد على سلامتك ست لعصى كثيرة جدا
فان مع الاسف لقد رسبت بعض على الموت فعصفت وجعت صدري
بعصى وقلبي لا يطيق أن أكون حيا ، وعصف رسبي بلي السعاده وقلت بارب
عبد هي اللحظه اوقف بعصى ، وسوف يجتني بسرعه إلى جوارك ..
بد ان أكون الى جوارك ، ولكن لا اعترف بي كنت مريد سلك وعندي بعصه
سلطه اود ان اسمع معك جواد عصه لو سمحت

واعترف الاستاذ الحكيم ، وعصى ن بصداقتي وحبي وطلب عصير
ليرتقل وسألني كان لاسترجي الذي يقتنيه هو بعض النوع الذي يحتاطه ،
و انه يحتاج إلى نوع آخر وكنهه علامات على انه يريد ن يكون
افضل ن يكون نصح اليوم وغدا أو يكتم بلغه الصحه التي حصلت ن
العمر طال لو سوف يطول ، وليس بلغه هي يرغس الحصان والسراط والبغاء ،
لأنه إنتهى او قرر ذلك لو حسن ن هذا هو القرار

وأسعدني أن أجد الحكيم قد استسلم للصحة والرغبة في الحياة .

قلت : يا أستاذ هل تنسى يوم الاحتفال بعيد ميلادك أن اقترح أحد الأصدقاء أن يختار لك عروسا .. واحتفلنا في عصر هذه العروس .. وكان إصرارك على أن تكون فتاة صغيرة .. ولم تسأل إن كانت سوف ترضى بك ؟

فضحك . وأسعدني ذلك .

وقال : صحيح . غرور . لم أسأل إن كان قراري هو قرارها .. هل قلت أنني سوف أتزوجها ؟ أظن أنني قلت أنها سوف تتزوجني إعجابا أو عطفا أو شفقة .. هل تعرف أنني فكرت في هذا الموضوع ، وفكرت في الرجل الذي يختار عروسا صغيرة .. ثم يتوهم أنها تزوجته لشخصه .. أي لشيخوخته وليس لفلوسه .. أو تزوجته للإعجاب به .. إنها تعاريف الشيخوخة .. شيخوختكم أنتم .. فأنا لم أفكر في هذا الموضوع قط !

وضحك مرة أخرى ، واسترد عصاه ووضعها أمامه . وأسند رأسه إليها ، وراحت عيناه تتحركان في قلق شديد ..

وانتعشت شهيته للحديث ، وقال لي : أنا سعيت أن أسألك .. لقد كنت أبحث عنك . وطلبت إلى كل الذين زاروني أن يأتوا بك من تحت الأرض .. أريد أن أسألك هل كتبت في كتابك ، صالون العقاد ، عن إنتحار العقاد ؟

قلت : نعم ..

قال غريبة أنا قرأت الكتاب ونسيت ذلك .. هل كتبت أن العقاد حاول الانتحار لأنه عندما أصدر كتابه عن ، سعد زغلول ، قاطعه الوفديون ؟ قاطعوا العقاد وقاطعوا الكتاب .. وهو أحسن كتاب عن الزعيم سعد زغلول .. في ذلك الوقت كان العقاد فقيرا تماما لا يملك مليما واحدا .. وكان يتوقع أن يعود عليه الكتاب بمال وفير .. فعرر العقاد أن ينتحر وعاد إلى بيته . واستعد لهذه اللحظة الفاصلة . ولكن عندما أغلق الباب ، سمع طرقا .. إنه رائر يرجوه أن يبيعه كتاب ، أبو الشهداء ، على أن يدفع الثمن مقدما .. ودفع للعقاد مائتي جنيه . وهذا مبلغ يكفي أن يعيش به العقاد سنه على الأقل .. إنها إرادة الله .. منعني من ذلك .. ولولا أنني لم أجد عندي هذه القدرة على أن أحدق بعيني . ولا أن أتعلق من السقف .. فأنا في حاجة إلى قوة لكي أقف وأربط الحبل وأتدلى منه ..

ولا أعرف وسيله للحصول على السموم . فأنا هنا تحت رقابة شديدة ولا أعرف كيف يكون أثر انتحارى أمام هذا الحشد من الأطباء والممرضات الذين يهتمون بى اهتماما فائقا .. إن هذا الانتحار إهانة لهم جميعا .. لم أستطع .. أنت حاولت الانتحار ؟ أنا قرأت لك ذلك .. كيف قررت ذلك ؟ هل تأثرت بالعقاد ؟ قل لى كيف !

قلت : فى ذلك الوقت لم أكن أعرف العقاد .. فقد كنت طالبا متفوقا .. كنت الأول فى كل مراحل التعليم لا الأول على المدرسة وإنما على طلبة مصر .. وفى التوجيهية كان ترتيبى الأول . وكنت أول الفائزين فى مسابقة الفلسفة .. وظهر الخبر فى الصفحة الأولى من جريدة « الوفد المصرى » .. واشتريت الجريدة .. وعدت إلى البيت ، لأجد أمى مريضة تنزف دما .. أما إخوتى ، فلم يكن معهم أحد بالبيت .. ووجدت أمى قد سقطت على الأرض . ولم أعرف ما الذى يمكن عمله .. وأنا إنسان عاطفى جدا ، رغم أنى لا أبدو كذلك . فمن الممكن أن يذوب منطقى وفلسفتى أمام هزة عاطفية .. وركضت أجرى فى كل مكان .. بحثا عن أى طبيب لم أجد أحدا.. عدت إلى البيت .. وجدت الباب مفتوحا .. لقد نسيته كذلك .. ووجدت قطته تلعق دم أمى ، التى تساندت على الجدران واستقرت على السرير .. ولقد تعذبت بحب أمى كثيرا .. وتمنيت لها الموت قبلى .. حتى لا تتعذب بوفاتى .. فقد كانت تعتقد أنى إبنها الوحيد مع أنا أحد عشر .. وبعد أيام تحسنت صحة أمى وبدأت تستأنف عملها فى البيت .. ولم تسألنى إن كنت نجحت . ولا أحد سألنى . وفى ذلك الوقت جاءت سيدة غنية وعرضت على أمى أن تتبناني . ووافقت أمى . وهى لا تعرف أنى سوف أعيش أفضل وآكل وأشرب أحسن ، وأنام أهدأ ، وأذاكر أطول .. وبالانتقال إلى بيت هذه السيدة الغنية عرفت كل آلام العصران العليظ وتشنجات المعدة .. فقد كان ذلك إغتصابا إجتماعيا ونفسيا ، وأحسست أنى شخص غير مرغوب فيه .. غير مطلوب .. فى غير موقعى . وقررت أن ألقى بنفسى فى النيل . وذهبت إلى كوبرى المنصورة ، إلى الماء وفى حالة من اللاوعى ، رفعت ساقى لكى أقف على السور .. عندما شدتنى يد .. إنها يد السيدة التى تعطى والتى الحق .. وقد ظننت أنى أريد أن أسبح فى الماء ، فعاتبتنى قائلة : يا إبنى إخلع ملابسك بدلا من إرهاق والدتك بغسلها وكيها بعد ذلك

قال توفيق الحكيم : لأن لك دورا في الحياة الأدبية والفكرية إنها إرادة الله .. لك دور ولا تزال في مكانك وموقعك .. لا تزال ممتعدا لأن تعطى .. ولكن أنا بلا دور الآن ، لذلك كان من الواجب أن أموت ، لم تعد هناك القيم التي عشنا من أجلها .. الآن كل شيء بالطوس ومن أجل الطوس .. لا أحد عنده الإستعداد الذى كان عندنا للتضحية من أجل الرأى .. من أجل الإصلاح .. أنت الآن تجد لاعب الكرة يتقاضى ثلاثين ألف جنيه إذا أصاب هدف الخصم .. تصور لكي يتفوق الإنسان في اللعب ، يجب أن نعطيه مكافأة مادية لذلك .. إن جمال عبد الناصر أراد مكافأتي على إعجابه لما كتبته فأعطاني نيشانا رفيعا .. لم يعطني مكافأة مالية .. ولو أعطاني لفصلت النيشان .. أي احترت التقدير الأدبي . أي احترت القيمة وليس الثمن !

قلت لتوفيق الحكيم : عندى مثل أذكره كثيرا .. لقد نشرت سلسلة من الكتب للأبناء الشبان .. والذى أدهشني ليس فرحة الشبان بصدور كتاب لهم . وإنما حرصهم على أن يتقاضوا مكافأة عن ذلك .. فأنا مثلا عندما أصدرت كتابي الأول ، وحدى مع الآخرين ، سنة ١٩٤٩ تمنيت أن أتقاضى أجرى عنه .. وإنما رحت أشترى من هذا الكتاب كل ما أستطيع لكي أهديه إلى الأصدقاء والزملاء .. وعندما أحدث مكافأتي عن الكتاب إشتريت بها مئات النسخ لكي أعطيها لمن يطلبها .. وأذكر أنني كنت أتعرج على المكتبات في بيروت فوجدت كتابا جديدا من تأليفي .. إنه (ألوان من الحب) إشتريت منه كثيرا .. وبعد ذلك رحت أبحث عن الناشر الذى أعطاني مائة نسخة . وخرجت سعيدا وتمنيت أن أطلب أجرى عن الكتاب .. إنما الفرحة ، هي أن كتابا لي صدر .. عملا أدبيا ظهر .

وضحك توفيق الحكيم واعتدل في جلسته ، ولما جاءه عصير البرتقال أمسك الكوب في يد والعصا في يد .. ومال إلى الأمام واستأنف الكلام .
قال بل إنني لم أفكر لحظة في أن أتقاضى أجرا عن كتاب .. بل ترددت في النشر .. فأنا كتبت ، أهل الكهف ، وتركتها في البيت .. ولما جاء أحد أصدقائي ليزيت عندنا ، سألني إن كان عندى كتاب يتصلى به فقبل أن يدام قلم أجد ما أعطيه له ، فاقترح والدى أن أعطيه ، أهل الكهف ، وكانت مكتوبة بخطى .. وفي الصباح فوجئت بأنه ترك لي ورقة يقول فيها ، أعجبني الكتاب وسوف أعمل

حو ـــ ـ في مصر وأرعجني ذلك . فقد كنت وكيل نيابه محترما .
ـ ـ ـ ـ ـ تعمد سعيي تهما الكذب ولكن صبري اصر على نشره . وقد
حكم ـــ عشرين جنيها على ان ادفعها بالتضييط بعد ذلك .. وهو مبلغ كبير
د في ـــ الوقت وتحيرت بين ان ادفع وأن أشتري بدلة جديدة ، وقال
صدقني بين شراء بدله وجريمه افضل . فلم أفكر إلا في الكتابه . وإذا
ـ ـ فعلي بعدي . فلم تكن الملابس هي الدافع الأول .. ويوم كانت ، عودة
ـ ـ ـ ج حر الناس على أنهم بالعاميه . وقالوا بني سوف افسد اللغه العربية .
ـــ بمدشر أطلب إليه أن يضع صدور الكتاب . ورحت أفكر في
ـ ـ ـ ـ ـ

فاطمتي الحكيم قائلا : صديقك الذى ترجمت له عشر مسرحيات .. فى غاية الروعة ..

قلت إن مسرحية ديرنمات هذه تحكى أن طبيبا سمع عن جماعة من السويسريين يعيشون فى أحد الوديان حول مستنقع . فى ظروف سيئة جدا فأحس بأن هذه إهانة للإنسانية كلها .. ولسويسرا بوصف خاص ، وهى الدولة التى تعلم هيئات تحارب من أجل حقوق الإنسان وسلامة الإنسان وشفاء الإنسان .. ولذلك قرر أن يذهب إلى هناك ، واستعد للدخول فى هذه المنطقة الموبوءة ، فأعطى لنفسه العفاريت الواقية من كل الأمراض ، وأخذ معه سيارات ومستشفيات متنقلة وعددا من الأطباء والممرضات . فوجد الأطفال فى صحة جيدة ، يسبحون فى المياه الراكدة المعفنة ويشربون منها .. الوجوه وردية والقوام ممدود والشعور ذهبية .. وفى الجو بعض الحشرات والهوام .. وظهر الآباء والأمهات .. إنهم يملأون الأكواب من الماء الراكد ، ويشربون ويغسلون الأطباق والأكواب .. ثم يسبحون .. شىء عجيب . واقترب الطبيب منهم ، وسألهم عن مذهبهم .. فقالوا له . لا شكوى لنا . والأطفال أصحاء .. والأرواح سعداء . وفى الليل يذهبون إلى الكهوف المظلمة الفاسدة الهواء وينامون .. لا شكوى ولا أمراض القلب ولا سكر ولا تسوس الأسنان ، والوفاة فى التسعين وما فوقها .. وأنهم يعيشون فى هذا المكان من مئات السنين .. راح الطبيب يحلل دماء الأطفال والآباء والأمهات .. لا مرض .. وعندما عطس أحد الأطفال فزع الآباء والأمهات ، وقالوا هذه هى المرة الثانية التى يعطس فيها مواطن منذ مائتى سنة .. وعادت القافلة الطبية .. لأنها لم تجد مبرراً للبقاء .. فأهل الكهف هم الذين رعصوا وبدوا الحضارة الإنسانية .. فلا هى حضارة ولا هى إنسانية !

وسألنى توفيق الحكيم إن كنت أحب أن أشرب قهوة أو شايا أو عصير برتقال أو نسكافيه ، وكان جادا . وهو عادة كذلك عندما يكون الدافع أحدا آخر غير توفيق الحكيم . ولذلك لم أشأ أن أطلب شيئا . فلا منعة هناك ، إنما المتعة هى أن تكون على حساب توفيق الحكيم ، وهو يحاول أن يقنعك بألا تشربه على حسابه !

عاد الحكيم يقول : على أيامنا فى الثلاثينيات والأربعينيات كانت لنا قصبة ، والقصبة هى مصر ، أن نشغل بالأدب المصرى وليس بالأدب العربى ، فتكون

القصة المصرية .. والمسرحية .. وأن ننقل إلى مصر تجارب الآخرين .. فعلة حسين فتح باقة على فرنسا ، والعقاد فتح باقة على انجلترا . وانجهنا جميعا من أجل نهضة مصر .. هذه هي القصية .. من أجل ذلك كانت ، عودة الروح ، وكان المسرح اجتماعيا مصريا .. كل ذلك فيما مضى .. أما الآن فليس عندى شيء أقوله ، أو أضيفه .. ولست مطلوبا ..

فضحكت لأقول نحن الآن أيضا عندنا قضية هي : مصر .. يكفي أن تفتح تليفزيون لتجد عشرات الأغاني لمصر .. حياة مصر .. وأمس مصر .. وجمال مصر .. وحبيبتي يا مصر وأمي يا مصر .. لا مانع من أن يكون ذلك موزعا بين البرامج وبين الأيام ، ولكن كل ذلك في وقت واحد وميكروفون واحد شيء عجيب ، فلا أحد قد هدد مصر ، ولا أحد قد خطف أمها ، ولا أحد قد حذف إسم مصر .. لا شيء .. وإنما الأغاني تريد أن تدفعنا إلى أن نتوهم ذلك فهي قد افتعلت قضية .. أما السبب الحقيقي فهو أن أحد المطربين قد غنى لمصر ، وبسرعة سار وراءه مطرب آخر ، حتى لا يتهمه أحد بالتقصير ، ولا أعرف معنى التقصير هذا ، فلا أحد يشك في وطنية أحد ، ولا في إخلاصه ، ولكن هذا الإسراف يجعلنا نشكك في ذلك ، وتكرار هذه الأغاني يجعل أقل إحساس بها ، وأكثر صيغا بذكر مصر والتغني بها ، فمصر لم تعد قضية أدبية سياسية ، وإنما أصبحت قضية غنائية مزورة . والمشكلة الآن هي مشكلة أدبا بلا قضية واضحة ، ونحن بلا قضية لأن هذا الجيل ليس واضح الطريق واضح النظرة . إنه مضطرب مرتبك ، وسوف يبقى طويلا حتى يحدث شيء ما ، أو يظهر كتاب ما ، أو شخص ما يكون محوريا .. عليه وأمامه ويسببه يختلف ويتفق الناس .. ويجدون أنفسهم أمام قضية الخلاص من هذا الشخص أو الإخلاص له .. وأتذكر موقفا مسرحيا للكاتب الأسباني ارابال .. عندما وقف الناس حول شخص . هم قصار القامة وهو طويل .. ثم هو واقف على أحد المقاعد ، فكان أطول .. وهو يمسك مسدسا وكتابا ويصيحها ويصرخ .. قالوا له : نحن معشي وراءك .. نحن ننتظرك ، ولكن ساعدنا على ن نفهمك . وهنا قال الرجل : إذا كنتم ما تزالون في حاجة إلي أن أساعدكم ، فقد جئت سابقا لأوانى .. ولذلك يجب أن يتخلص أحدنا من الآخر .. وسوف ساعدكم . خذوا المسدس .. واقتلوا أنفسكم أو اقتلوني .. ولم يترددوا لحظة

في أن يعلموه ! فهم لم يبلغوا درجة التصنع ، ولا الرؤية الواضحة أو الرؤى الصادقة ، ولذلك فقد احتفظوا فيهم الرجل ، وسبقوا زمانهم .. كأنهم عاشوا في زمان غير زمانهم ، وتصبروا عليهم بطلا خرافيا .. وبدلا من أن يقتلوا أنفسهم ، قتلوه . فاحتفى الرجل ، وظلوا هم أماكنهم .. في زمانهم . بلا قضية !

وأتذكر أنني كنت في أسوان مع الشاعر الروسي يفتشنكو وهو ، ملحقا ، الإتحاد السوفيتي ، كنا ثلاثة . الأستاذان كامل زهيري ورجاء النقاش وأنا .. وكان الذي دعانا إلى مصاحبة الشاعر الروسي هو الأستاذ أحمد بهاء الدين .. كان الليل في أسوان هادئا ضريا ، وتمدد الشاعر في زورق وانسدار يسألنا : ما الذي يشغل المفكرين والأدباء في مصر هذه الأيام ؟..

ما هي قضيتكم ؟.. ولم نكن جاهزين للإجابة .. فذهبنا في كل اتجاه .. وأخيراً قلت له : إننا نناقش قضية ، الواقعية الاشتراكية ، ولم يفهم الشاعر يفتشنكو ، وقال : الواقعية هي الواقعية . فإما واقعية وإما خرافية .. وأثار عددا من الاعتراضات ، لم نجد لها إجابة .

وقال : أنتم إذن تتمايلون على المشاكل أو تهربون منها ، أو تهربونها أو تزورونها .. ثم قال : عندنا في روسيا نكتة .. يقال أن أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي طلب فنانا ليرسمه .. جاء الفنان فوجد عضو اللجنة المركزية أعور فاربك الفنان : إن رسمه كما هو فهذه هي الواقعية ، ولكنه لا يعرف كيف يكون أثرها على نفسية الرجل .. وإن أضاف له عينا فهذا أجمل ، ولكنه تزوير للواقع .. وإن فقأ العين الأخرى فهو أسوأ ، وهو تزوير للواقعية . أما كيف خرج من هذا المأزق ، فقد رسم الرجل ، بروفيل ، ـ أي صورة جانبية .

وكان الذي قاله يفتشنكو أقرب إلى الواقع الأدبي والفكري في مصر في الستينيات !

وجاء شاب أسمر نحيف . إنه إبن ناشر كتب توفيق الحكيم وقد علمت أن توفيق الحكيم قد نصح هذا الشاب بأن ينشر كتابين . أحدهما إسمه ، ثورة الشباب ، من تأليف إبراهيم ناجي واسماعيل أدهم ..

وقال لي الحكيم : عندما قرأت هذا الكتاب إندهشت كيف كان هناك علماء مصريون يفكرون بهذا العمق وهذه الجرأة ونحن لا ندري بهم .. إن صدور

هـ الكتاب الآن ، يؤكد أنهما كانا متقدمين على عصرهما كثيرا .. إنهما ينتميان بلغة العصر .. لغة هذه الأيام التي لم أعد أعرفها ..

ـ طلب توفيق الحكيم من هذا الشاب الأسمر النحيف الذي يبدو كأنه ابن ـ فيق الحكيم ، وفيه شبه كبير من ابنه الغالي المرحوم إسماعيل الحكيم ، أن يحضر لي كتابا بالفرنسية .

، هذا هو الكتاب الثاني الذي نصحه توفيق الحكيم بطبعه ، وليس بشرائه !! . كد لي الحكيم أنه ليس مسئولا .. لأنه كتاب ملىء بالإلحاد !

ونهض الشاب ، درجا ، إلى جوار سرير الحكيم وأعطاني الكتاب .. الكتاب صغير عنوانه ، فاوست الثالث ، ـ من تأليف ، جيته الابن ، أي الجزء الثالث من فاوست . فالشاعر الألماني جيته قد نظم فاوست في جزءين الجزء الأول من نظمه هو ، والجزء الثاني وهو غير مفهوم ، إشترك فيه مع الشاعر سيلر .. وهذا هو الجزء الثالث .

و لعله الثالث ، لأن الشاعر الانجليزي مارلو قد أصدر فاوست الأول وجيه أصدر ، فاوست ، الثاني .. وهذا هو الثالث .

ثم صدر ، فاوست ، الرابع للأديب الألماني توماس مان ـ من ثلاثين عاما .

اما مؤلف هذا الكتاب فهو حفيد الشاعر جيته ؟!

يقول الناشر المصري علي حسن في مقدمة هذا الكتاب أن عالم الآثار الفرنسي جاستون ميت قد جاء إليه وقدم له هذا الكتاب الذي ألفه شاب مصري من مصرية كانت عشيقة للشاعر الفرنسي جيرار دي نرفال الذي كان واحدا من أحفاد الشاعر الألماني جيته .

وهذا الحفيد المصري كان اسمه يوهان لوحدا المصري . وقد كتبه باللغة الفرنسية الرقيقة الجميلة الساحرة العميقة السخرية .. والالحاد ..!

وقال لي توفيق الحكيم وأنا أقرأ مقدمة الكتاب المكون من ثلاثة فصول وفي ١٤ صفحة : أنا لست مسئولا عن هذا الكتاب .. فالكتاب مطبوع منه خمس وعشرون نسخة ، وهذا لمعلوماتك فقط ، فأنا لا أستطيع ، ولا الناشر أن نحمل ما به من زندقة صارخة وإلحاد عميق .. ولكنه أثر أدبي لا يصح أن يموت .. وقد يستعين به الباحثون يوما ما ..

ولما بدأ صوت توفيق الحكيم يخفت قليلا التفت أنا إلى إبنته وقلت لها أستطيع أن أتكلم أنا ويسكت هو إذا كان الأستاذ الحكيم لا يزال راغب في بقائي ..

ولكنه أصر على أن أبقى وعلى أن أتكلم وأن يتكلم هو أيضا .

وكلما أراد أن يلخص هذا اللقاء الطويل قال : وهكذا ترى أنني ارددت حيرة عن ذي قبل .. فالله قد أطال في عمري .. ولا أعرف ما الذي اعمله له .. فليس عندي ما أقوله ، فلو أنني مت لكان ذلك أمرا متوقعا .. ولكن الذي لم أتوقعه هو أن أعيش .. والآن أنا أعرف أنني حي ، وفي نفس الوقت أعرف أنني حي متوقف عن الحياة ، ممنوع من الحياة .

وكان يجلس معنا د . عبد المنعم حسب الله مدير مستشفى « العقاولون العرب » الذي أعد لوحة فنية جميلة لتوفيق الحكيم ليضعها في هذا الجناح الذي سوف يطلق عليه اسم « توفيق الحكيم » ..

فقال الطبيب . عندك فرصة يا أستاذ أن تكتب عن تجربة المرض والعلاج .. عن تجربة المستشفى ..

فأجاب الحكيم : أن أكتب .. من المؤكد أنني لن أفعل .. ولكن أمامكم أنتم فرصة لكي تتحدثوا عن هذا المريض الذي جاء ليموت ، فصدر ضده حكم بالحياة .. أنا الآن أعرف بالضبط شعور الذي حكم عليه بالإعدام ، ثم صدر الحكم بالبراءة بعد أن كان حبل المشنقة قد إلتف حول عنقه ..

أو بعد أن استقر رأسه تحت سكين المقصلة .. لا عندي شجاعة سقراط ولا شجاعة العقاد .. وإنما أنا تجاوزت عمري الإفتراضي ، وأنا الآن ألعب في الوقت الضائع . بلعة الكرة التي هي أحسن وأروع وأرقى اللعبات .. إنها لعبة العصر الهزيلة ؟!! ، لعبة الغلم ، لا ، لعبة العلم ، كما كتبت إليك في جوابي أشكرك على مقالك الرائع الذي كتبته عن كتابي .. أنت عندك ميزة فريدة أنت تعيش هذا العصر وتكتب له ولكن عندك قيم العصر الذي مضى .. أنت تقرأ وتتعب وأنت جاد .. ومع ذلك لم تنهزم أمام الرعب الجهل لهذا العصر ولذلك كان لابد أن يؤجل الله وفاتك .. اليوم قررت الإنتحار ، كان الله قد قرر لك دورا ، مستمرا ، ووظيفة متجددة .. وهذا الطراز من الأدباء والمفكرين قليل بيننا .. لأن الموهوبين قلائل ولأن المجتمع يصنع ، مثلا ، عليا أخرى

تتفق مع لغته وهدفه واحتياجاته .. بل أنا أشك كثيرا في وجود مثل عليا لهذا الجيل .. وإنما مثله العليا . لاعبو كرة القدم والمطربون أي اللعب والأداء .. وليس الإبداع أو الخلق ..

ومددت يدي ولكنه لم يتنبه إلي ذلك وظل يفكر فقلت له : لا تشغل بالك يا أستاذ سوف تمشي وراءك كما سار الناس وراء المسيح في مدينة أشبيلية في رواية « الإخوة كارامازوف » لدستويفسكي .. أنت طبعاً تتذكر ما حدث في ذلك اليوم . كان أحد أيام الآحاد .. الناس في الكنيسة يصلي بهم الكاردينال .. وفجأة تهامس الناس . وتمرروا إلي خارج الكنيسة .. لقد تسامعوا بأن المسيح عليه السلام قد هبط المدينة .. وكان المسيح نحيفا أسمر طويل شعر الرأس واللحية والشارب .. يمشي حافيا عاري الصدر .. ولم يكد الناس يرونه حتي تجمهروا إليه .. التفوا حوله ومشوا وراءه .. وكان المسيح يتجه بعينيه إلي السماء . وفي الكنيسة وجد الكاردينال نفسه وحيدا فخرج ليري .. ورأي المسيح فسايقه أن ينصرف الناس عنه . فاقترب من السيد المسيح يقول له . هل أنت سعيد بما أحدثته من فرقة وإنشقاق بين المؤمنين بك ؟.. هل هذا ماجئت من أجله ؟ هل تقبل هذه الإهانة التي وجهت إلي رجل مثلي يدعو إليك ؟.. وكان الكاردينال قد ارتدي المسوح الحمراء والحزام الذهبي فوق كرشه الضخمة .. وارتدي حذاء لامعا .. ووضع خاتما أنيقا .. وتدلت السلاسل الذهبية من عنقه .. وكذلك الصليب الضخم وعليه المسيح مصلوبا .. ثم استوقف المسيح بقوة قائلا : إسمع إذا لم تخرج الآن من المدينة فورا سوف أصلبك بتهمة الخروج علي المسيحية . إننا قد تعذبنا كثيرا من أجلك .. كانت الحروب الصليبية مئات السنين .. لقد أحرق الرومان عشرات الألوف من المسيحيين و .. أحرقوا الرهبان والقساوسة والقديسين كل ذلك دفاعا عن دينك .. ثم تجيء اليوم وتريدنا أن نمشي حفاة مثلك وعراة الصدور ونرهد في الحياة .. عملا بقولك : إن يدخل الجمل من سم الخياط .. إذا لم يكن في الدنيا أغنياء ، فمن الذي يبني لك الكنائس والمدارس ويدفع علي التبشير بدينك .. وتريدنا أن نستسلم عملا بقولك : من ضربك علي خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر .. وتريد أن نطر إلي السماء مثلك عملا بقولك : من نظر إلي مرأة فاشتهاها فكأنه زني بها .. من الخير لك أن تعود من حيث أتيت ،

وإلا وضعتك في السجن .. أخرج فورا حتى لا يكبر شعبك العصبي .. أخرج أحسن لك !

وضحك الحكيم قائلاً : يا سيدى إنه المسيح .. أما أنا فسوف أجد ألف واحد يضع قلمي وقلمه في عيني .. ويملأ فمي بالماء .. ومعدتي بالورق .. أو أمشي أنا وراء الناس وتهتف جميعا : يسقط توفيق الحكيم .. هل تذكر قصة « نهر الجنون » .. إنها قصتي كما تعلم .. الناس جميعا أصابهم الجنون لأنهم شربوا من نهر الجنون .. فكان على حاكم المدينة إما أن يحاربهم وإما أن يقتلوه . فشرب هو الاخر من نهر الجنون .. وأصبح الجميع مجانين .. وهذا ما يجب أن أفعله أنا !

قلت ليس هذا هو الموقف الذى يناسبك .. لأنك في قصة نهر الجنون قررت أن تساير الناس .. أن تكون مجنون مثلهم .. ولكن هذا إستسلام للناس .. وأنت اعتدت أن تتقدم الناس وتهديهم .. والناس يسعدهم أن يتكاثروا عليك .. أن يهزموك .. وهكذا يكونون جميعا توفيق الحكيم . أما الآن فأنت تقوم بدور الإنسان المتحرف الذى يحتاج إلى علاج جماعى .. أى تكون تلميذا في مدرسة بها ألف مدرس .. أى التلميذ الوحيد .. كما تكون المريض الوحيد في مستشفى به ألف طبيب .. هل تذكر ما حدث للسيدة لوكريسيا الجميلة في مسرحية « من أجل سواد عيونها » للكاتب الفرنسي جيرود .

فاطفئ الحكيم : آه .. أنت ترجمت هذه المسرحية .. جميلة .. هل تذكر تفاصيلها .. أريد أن أعرف ..

قلت أن لوكريسيا زوجة أحد القضاة .. المدينة كلها منحلة . الرجال والنساء إلا هى .. فهى رمز الفضيلة والطهارة والصفاء .. أى رمز القوة .. قوة مواجهة الإنحراف والبقاء كما هى . الجميع حولها يتهاوون سفالة ودناءة وعفونا وكفرا .. الرجال يتصون بالجمال والفضيلة هى شخص لوكريسيا .. والنساء يصفن بهذه المرأة التى تحتقرهن وتتعالى عليهن .. وأخيرا كان لابد من إسقاطها فأقامت النساء حفلة غداء بعيدا عن المدينة .. دعت إليها كل الرجال .. وتآمرن على أن يذهب أحد الرجال إلى حيث لوكريسيا ويعتدى عليها بالقوة ، ليرى زوجها بعينه أن ثمراته ليست كما كان يتوهم .. وتتم المؤامرة . ويرى الزوج وكل الرجال ما حدث للسيدة الفاضلة .. وتسعد كل النساء .. لقد سقطت كما سقطن وأصبح الجميع سواء في الوحل !

وينهض الحكيم واقفا قائلا : وهل تظن أنني قادر حتى على مقاومة الرذيلة ؟ .
بدا ليست عندى قوة ولا رغبة إنني ساقط تماما .. بل إنني لم أعد لا هد
ولا هناك ، ولذلك أستطيع أن أتدحرج إلى الهاوية .. وبذلك أوفر على الناس
ى مجهود .. بل إنني أدعوهم إلى إستخدام طاقاتهم فيما ينفع الناس ..

ثم سكت طويلا وعاد ليقول : إلا محمد عبد الوهاب .. محمد عبد الوهاب
من جيلي وهو لا يزال مستمرا .. إنه استطاع أن يعيش حتى اليوم .. وحياته
سهلة ممتعة .. فهو في كل سنة يسافر إلى الخارج ويعيش ثلاثة شهور
و أربعة .. يعيش وينعم ويعالج نفسه فيكون أصح وأقدر على العطاء ..
وعنده الصحة والمال والجمال .. فهو الوحيد بين جيلنا الذي يتكلم لغة العصر
ويعطي .. والعصر يعطيه بلغة العصر : الشهرة والطوس .. فقط محمد عبد
الوهاب .. هو الوحيد الذي عنده فلوس !

وكان لابد أن أنهض .. وصافحت الأستاذ توفيق الحكيم .. فشكراً قد أنه
أحس حالا وأصبح بدنا . ومن المؤكد أنه يفكر بصوت عال في عمل سوف
يكتبه بعد ذلك .. ولابد أنه قال كل الذي سمعته منه لزواره حتى حفظته تماما ،
ولا يبقى إلا أن يسجله على الورق بقلمه .. وسوف يتأكد لدينا أنه قادر على
ن يكتب وأن يفكر وأن يسخر من الكتاب والمفكرين والقراء ، وسوف يقول
للقراء : إنه كان وما يزال يقول كلاما معقولا ، فشكراً قد ولهم إن كان يقول
كلاما لا معنى له ، فاللوم على الأطباء .. فقد ذهب ليموت ولكنهم قرروا أن
يحيوا سريره لشخص آخر ، وأنهم سوف يندمون على ذلك !

ومن تحت .. من بعيد كان يجيء صدى صرخات النساء ، فقد مات لهن
حد .. ولابد أن الأستاذ الحكيم يستمع إلى ذلك كل يوم .. ولكنه لم يفزع ..
قد إعتاد على التفكير في الموت وإعتاد على رؤية الحزن في وجوه وعيون
صبوفه .. ولم يعد يخاف الموت ، ولا ما بعد الموت فقد ماتت زوجته ، ومات
إبنه الوحيد .. قال توفيق الحكيم للدكتور حسين مؤنس وهو يمشي إلى جواره
في جنازة إبنه : لقد وجدت تصويرا سريعا .. بعد وفاة إبني أصبحت كالذي
صيب بعاهة دائمة : ذراع مقطوعة ، ساق مبتورة ، وسوف أعيش بهذه العاهة
حتى الموت .. ولذلك يجب أن أعتاد على ذلك .. فلا أمل في استعادة الذراع
و الساق أو الابن .

ولا أمل عند الحكيم الآن في استعادة الحياة .. لقد ذهب يموت ، وقرر أنه مات .. وأن زواره هم زوار لقبره ، وليس لغرفته في المستشفى .. وأنه هو وحده الذي يتكلم ، أما صديقه فلا يتكلمون .. فهو الميت الأكثر حياة من الأحياء ، وهم الأحياء الأكثر إغراقا في الموت من توفيق الحكيم ..!

ثم إستأذنته في أن أكتب هذه الأبيات التي أضحكته وجعلته يسمح أن يصافحني وأن يلقي بالعصا على السرير .. وأن يتجه إلى المقعد ويجلس كأنما كان يتحدث إلى نفسه وليس إلى أحد على مسمع من أحد . قال توفيق الحكيم : لا أعرف من هو الذي قال هذه الأبيات .. إنها أقرب إلى حالي . مع فارق واحد .. هذا الفارق سوف أقوله لك بعد أن تكتبها ..

إن لله عبـــادا فطنـــا
طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا
أنها ليست لحـي وطنـا
جعلوهـا لجـة واتخـذوا
صالح الأعمال فيها سفنـا

أي أن الإنسان لن ينجو من بحار هذه الدنيا إلا بالسفن .. وهذه السفن هي الأعمال الصالحة .. فأين هي هذه الأعمال الصالحة التي أركبها لكي أنجو من طوفان التفاهة دعني .. أغرق .. أغرق كتب الله لك النجاة .. وإن كنت لا أعرف كيف ؟..

قلت للحكيم هناك حديث نبوي يقول : لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه فإن كان لابد فاعلا فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي ..

ولما نظرت ورائي وجدت الأستاذ توفيق الحكيم قد إعتدل في مقعده ، وضم ساقيه وأسند ظهره وسوى ملابسه .. وأرخى ذراعيه ..

إنه يستريح من الحوار ويسحب ما تبقى من الأوكسجين في الغرفة .. كأنه بعد التعاليم التي جاءت في أحد كتب اليوجا - إنها تمرينات الراغبين في الحياة السليمة وبعد ذلك في التفكير السليم ..

فانتظروا معي ما سوف يقوله الحكيم في كتاب جديد - سيكون عجبا !

ثلاثة مؤلفين يبحثون عن مخرج

ثلاثة مؤلفين يبحثون عن مخرج !

ذهبنا إلى الأستاذ توفيق الحكيم في المستشفى . فتحنا الباب . وجدنا ممرضة ومن ورائها ممرضة .. أما الحكيم فكان جالساً على سريره ، ولم يكد يشعر بوجودنا حتى أرجع الطاقية البيضاء إلى الوراء ..

قلنا : سلام عليكم .

قال : أنتم مين ؟ أنتم مين ؟ بكاترة ؟!

أنيس منصور : أنا يا توفيق بك

صلاح طاهر : أنا يا أستاذ توفيق . ما شاء الله أنت اليوم أحسن .

الحكيم : أحسن ؟ في إيه ؟

ص ط : جالس ومستعد للكلام .. قبل ذلك لم تكن تدري بأحد .. تدخل وخرجنا .. وأنت ولا أنت هنا .

ت ا : أنت أيضا تتكلم كالبكاترة .. كل يوم يلتفون حول السرير ويناقشون بالإنجليزية واللاتينية ، كما في الأفلام العربية .. ويتحدون قراراً واسمحا أنني رى الفل .. وأتلمس رجلي فأجدها في مكانها منذ أيام .. وأنا غير قادر على الحركة .. وكأنني تمثال قد أقاموه على مرتبة ، تمهيداً لإلقائه في أحد مخازن مصلحة الآثار ..

كل يوم البكاترة يقولون لك أنت رى الفل .. مع أنك رى الرفت والطين .. الفل بناعهم هو البصل بتاعنا .

أ م : أنت اليوم تقول وتفكر وتحلل وتسخر من البكاتره ..

ت ا (مقاطعاً) : كويس قوى .. لكن ما هي الفائدة من الكلام ؟.. أنت تعرف بيتاع الفلسفة أنا من أسوأ الناس حظاً في هذه الدنيا .. نحن صدقنا أن الكلمة ، مقدسة ، الكلمات المعممة .. عشنا في الكلمات . نقرأ ونكتب وندعو الناس إلى إحترامنا .. واحترمونا لأنهم مطلون مثلنا تماماً .. ومن غبائنا وغرورنا أيضا صدقنا أن القراءة والكتابة هي أعظم ما أعطانا الله ..

أ . م : إسمع ياتوفيق بك .. نحن مثل دود القز نأكل ورق التوت ونجعله حريرا .. وليس ورق التوت هو ألذ الأطعمة .. ولكن هذا النوع من الحشرات لا يأكل إلا هذا النوع من الورق . ولو وضعنا ورق التوت أمام الأسود والذئاب لنامت عليها .. ولو وضعنا اللحم والشحم أمام دود القز فسيمر بجواره .. إنهى .. هذا نظام .. أو هذا قضاء وقدر ياتوفيق بك .. عندك « شعلانه » أخرى تأكل منها عيش ؟..

ت . ا : آه لو أطال الله عمرى سنتين فقط .. آه

فلنا : أطال الله عمرك عشرين سنة ..

فظهرت البهجة على وجه الحكيم كأن هذه الأمنية تحققت فوراً . واعتدل فى جلسته ، وسارعنا نضع المخدات وراءه ليكون قادراً على التفكير فى هذا المستقبل المعاجيز ..

ثم أرجع الطاقية إلى الوراء .. وعاد فأمالها إلى الأمام ..

ت . ا : فعلاً .. نحن أفضنا تمثالاً للكلمات .. وأخذنا ندور كالفراش حول النار .. أو كالبدائيين حول الذبيحة المقدسة .. حلقات ذكر .. وطبل ورمز ودروشة .. الله حى .. الكلمات المقدسة .. نحن أناس مقدسون أيضاً .. كهنة فكر .. سعداء بما نقول وما يردده الناس لما نقول .. عشنا فقراء وسوف نموت فقراء .. بينما الذين صناعتهم اللعب بالكلمات على المسرح .. قد أضحكونا على الناس .. وكسبوا الدنيا .. ومن يدرى ربما كسبوا الآخرة أيضا لأنهم أدخلوا السعادة على المغفلين من أمثالنا .

ا . م : ومن يدرى ربما دخلت أنت الجنة ياتوفيق بك فقد أضحكتنا وضحكت علينا ولا تزال .

ت . ا : معلش حايب . لأنى أضحكت الناس .. ولكن الناس ضحكوا على ولم يعطونى شيئاً .

ص . ط : عندنا حل .

ت . ا : فعلاً أنت الذى وجدت الحل .. أنت أحسن منا جميعاً .. طول عمرك واقف على دماغك .. إسمعها إيه البناعة اللى بتعملها كل يوم ياصلاح ؟..

ص . ط : اليوجا ..

ت . ا : آه اليوجا .. أحسن والله .. كل يوم يقف على دماغه .. صحة وحيوية

ـــ وعجب الذيات الصغيرات .. أنا ونجيب محفوظ فوصاك في حكايه
ـــ بصيرة .. والمرأة عموما . وأنا وأنت يا أنيس . طلعنا حمير طول
سهر قراءه وكتابة .. حيبة كبيرة قوى .. مش أنت بتقول إني أنا يمكن أدخل
حته عشان أضحكت الناس .. الحيبة الكبيرة هي العقاد وطه حسين .. لم
حد قدر يضحك إلا في جلساتهما الخاصة أما في كتبهما فالجدية والكآبة رجع
عندي .. الاتنين دول على النار حندعي إن شاء الله .

عندي حل . أنت جربت أن تكون مؤلفاً . فلماذا لا تجرب معاً أن تكون
ممثل كل ما يعجبنا هو المخرج .. الكتابة سهلة . أنت تكتب وأنا أيضا .
صلاح جاهين يرسم ويكتب .. وأنت بطبعك ممثل يا توفيق بك . لو تذكرت
في المرة الأولى لوجدت أنك تحرك يديك وطاقيتك وحواجبك ، وعيناك فلفتان
كده هنا .. والضحك ينهمر منك ويهرب أيضاً .. وكلما تضحك وتقوم وتقعد .
عندك كلام .. لكن إخراجنا لهذه المعاني ليس جيدا ..

ـــ وأنا أقوم بدور إيه بقى ؟ عندي حل .. انا عندي بيريه . والبيريه أنا
لبسه من زمان . والناس عرفوني به . وبعدي حسين فوزي ارتدى البيريه
بعدي . كما كنا نفعل في باريس ..

هذا البيريه أنت أخذته من الأستاذ العقاد ..

ـــ صحيح أنا كتبت هذا على لسان العقاد .. صحيح أنا متنازل عن
بيريه للعقاد .. أو دعني ألبس البيريه مع الإعتراف المؤقت بأنه ملك خاص
للعقاد وأنا اخذته .. ياسيدي سرقته .. حلو قوى .. أطلع على المسرح وقد
مسكت العصا ووضعت فوقها البيريه ـــ وفجأة يظهر العقاد ويطاردني ويطالب
بالبيريه ويقول " يالص .. وأنا أقول . أنت أطول لص .. وهو يقول لي " وأنت
قصر لص وأنا أجري أمامه وأرفع العصا لفوق . تفتكر المنظر ده يضحك
الناس ؟ المهم كم يدفع الناس لو رأونا هكذا على المسرح ؟

م : أنا نحن نطلق عليكما الرصاص .. لأننا أمنا بأنكما من العقلاء ، فربما
قد تكتشف أنكما من المجانين . وأن هذه صدمة ثقافية .. وسوف نشغل طويلا
بالبحث عن مضمات هذا الجنون

ت فعلا هذه بداية جيدة لعمل مسرحي . أنا سوف أساهم في الكشف عن
جنون توفيق الحكيم .. آه من الممكن أن يقال إنني دخلت في مرحلة الجنون

عندما كتبت مسرحية « ياطالع الشجرة » وقد أخذت إسم المسرحية من أغنية شعبية تقول :

ياطالع الشجرة ..
هات لى معاك بقره ..
تحلب وتديني ..
بالمعلقة الصيني ..

صحيح منتهى الجنون أن أطلع الشجرة بحثا عن بقرة ، وأنت متى نجحت يا أنيس ؟

أ . م : لابد أن يكون ذلك عندما درست الطبيعة .. والطبيعة دفعتني لدراسة ٢٨ دينا لأختار لى من بينها دينا خاصا .. وترددت على الكنائس والمعابد اليهودية واليونانية والبهائية والحلايا الشيوعيه والإخوان المسلمين . ثم اتجهت إلى الوجودية .. وقبل ذلك وأنا طفل قررت أن أهرب إلى حمام الفجر .. وأن أعيش بينهم .. ولم أكن أعرف بالضبط ما هذه المعانى التى تدور فى داخلى ؟.. ولما كبرت إكتشفت أننى مثل واحد دخل أحد المتاحف وتنقل بين لوحات وتماثيل الأموات وأشباحهم وأرواحهم ، وتوهم أنه انتقل إلى العالم الآخر .. وأنه مات .. ولكن فجأة قامت عاصفة فأطاحت بإحدى النوافذ . ودخل الهواء والنور والشمس .. وانفتحت الدنيا على شوارع وميادين .. وانطلقت سعيداً بحريتى .. ضائعاً بين الميادين والشوارع وكل أنواع المواصلات .. ووجدت أن العالم الواسع ليس إلا سجنا واسعا .. وأنا ضائع مرة أخرى .. أما أقصى درجات الجنون فهى محاولتى المستمرة أن أفهم ماذا حدث لى ولغيرى من الناس .. وتوهمت أن هذه هى الطبيعة وأن الطبيعة حياة ، وأن الطبس والإفلاس من طبيعة المفكرين .. فمن عاش فيلسوفا عاش معدما . فثروته ورق مطبوع .. كتب .. لا بنكنوت ..

ت ا : والحكاية دى عرفتها امتى ؟

أ . م : اليوم فقط .

ت . ا : يابعتك والله .. أنا بقى مش عارف أوصل للنتيجة دى .. كل ما أطلبه من الله معتاز .. وفى هاتين المعتاز سوف أغير كل شىء .. وأجرب أسلوبا جديدا فى الإقبال على الحياه وضرب الكتب بالجرمة وطرد جميع المؤلفين من

حيسى .. ولن أسمح لكما بدخول مكتبى أو الحديث معى .. فأنا لم أعرف بكما ومعكما إلا الغفر !

م : بالتوفيق بك .. أنت لاتصلح أن تكون ممثلا . لأنك سوف تؤلف وتخرج على النص .. وممكن جدا تطلع على المسرح ولاتنطق بكلمة واحدة . لا تعرف بالضبط ما الذى تفعله .

ت : ممكن أطلع على المسرح وأسكت نهائيا . لأنى تعبت من الكلام .. وانا لاجيء إلى المسرح .. جئت لكى أستريح .. وأملى ألا أنطق وإذا حدث ذلك فسوف تكون أول من يكتب أنى حرامى .. وأنى سرقت هذا الموقف من مسرحية « الكراسى » للكاتب يونسكو .. ففى هذه المسرحية رجل وامرأته .. يرتبان المقاعد ويدعوان الصيوف الوهمية إلى الجلوس ولا يتكلمان حتى يرفع الستار ، وسوف تتخلى عنى ..

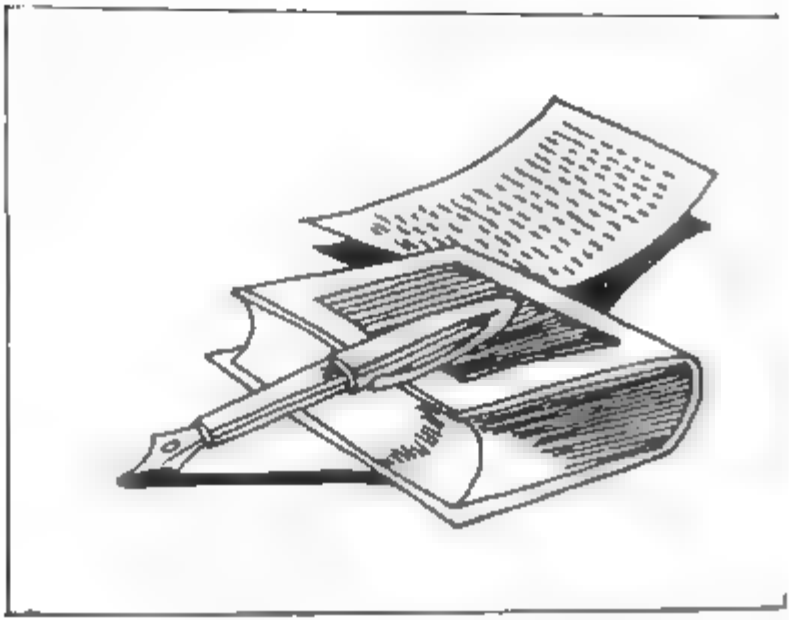

توفيق الحكيم

قديما مايزال جديدا ايضا

توفيق الحكيم قديما ما يزال جديدا أيضا

ثم أسأل نفسي هذا السؤال فقط : ولماذا أقرأ هذا الكتاب ؟

هأنا أمد يدي إلى كتاب وأقلب في صفحاته . وأقرأ سطرا هنا وسطرا هناك . ثم أجد عندي استعدادا للاستمرار . هذا الاستعداد هو : رغبة في متعة . فالقراءة متعة . هذا هو الهدف من القراءة . ففي كل لحظة أجد شيئا جديدا . أعرف . أكتشف . أحب . أصادق المؤلف . وأمضي في القراءة . وإذا حدث أني ضقت أو مللت أو سرحت .. أو أجد مشقة في الاستمرار أو صعوبة في ابتلاع أو هضم ما أجد ، فإني أتوقف فورا . فلم تعد القراءة ممتعة . ولقد أرغمت نفسي على تجرع الصفحات فقد انتفى الهدف من القراءة . ولذلك فمتعتي الكبرى هي البحث عن الكتاب الذي يمتعني . فإذا لم يمتعني هذا الكتاب اتجهت إلى غيره .. وإذا لم أصادف مؤلفا فإني ألجأ إلى مئات المؤلفين .. وتكون متعتي أن أتنقل بين المؤلفين وبين جنبات أفكارهم وعاداتهم .. فبعض المؤلفين يقف على أطراف أصابعه ويقطف المعنى من شجرة عالية .. وبعض المؤلفين يتسلق الأشجار ويتصيد المعاني .. وبعض المؤلفين يسلوك وهو يمد يده ويدك لكي يجد المعنى .. فليكن . المهم ألا يرهقني لا يكرهني . أن تكون الصداقة بيننا سببا قويا في أن أتشجع به وأتصرف إليه ، وحتى له العذر إن وجد قليلا أو لم يجد . ولكن يجب أن يشيع السرور في نفسي .

مددت يدي إلى الكتب أمامي .. وكان كتاب أستاذنا العظيم توفيق الحكيم . عنوانه : يقظة الفكر .. فكره هو . يقول في أول صفحات كتابه : صدر القلم ليس ، بعد الإصلاح عدا .. قالها يوم ١٩ فبراير سنة ١٩٢٩ .

وبقية الكتاب مقالات قصيرة نشرها في أخبار اليوم وآخر ساعة والأهرام في الأربعينيات . وكلها تدل على أن أرباب الحكيم القديمة ، هي موضة هذا العصر .

وكلها تؤكد معنى اهتديت إليه وهو أن توفيق الحكيم الروائي والقصصي والمسرحي يجيء في المقام الثاني بعد توفيق الحكيم كاتب المقال فهو من أحسن كتاب المقال القصير في أدبنا الحديث . وعبارته قوية سريعة شفافة بليغة . روح المرح والسخرية عند الحكيم ، واضحة في مقالاته أكثر منها في قصصه أو مسرحياته .

وقد استهل الأستاذ الحكيم كتابه بموضوع « قصة الفن القصصي في القرآن » وهي رسالة جامعية للأستاذ محمد خلف الله وقد طالب كثيرون بإحراقها أمام الأساتذة والطلبة .. وطالب آخرون بفصل صاحب الرسالة .. وأعلنت بعض الصحف أن صاحب الرسالة قد ارتد عن الإسلام ولابد أن يعلن رجوعه إلى الإسلام وأن يجدد عقد زواجه على زوجته إن كان متزوجا وأن يتوب إلى الله توبة نصوحا ..

وقبل ذلك ألف الأستاذ علي عبد الرازق وزير الأوقاف كتابا « عن الإسلام وأصول الحكم » فقامت قيامة الأزهر وفصلته هيئة كبار العلماء واستقال الوزراء الأحرار الدستوريون من وزارة زيوار باشا احتجاجا عليه . وأقيل وزير العدل من منصبه وكان عبد العزيز فهمي باشا .

وعندما ألف د . طه حسين كتابا عن « الشعر الجاهلي » فشكك في بعض المعتقدات وقامت قيامة البرلمان وأراد مجلس النواب إخراجه من منصبه فهدد عدلي باشا يكن بالاستقالة من منصبه كرئيس للوزراء ، حماية لحرية البحث العلمي .

وبعث الأستاذ محمد خلف الله رسالة إلى الأستاذ الحكيم يقول فيها أنه في مايو سنة ١٩٤٧ قدم رسالة لنيل الدكتوراه في الأدب وأحالها عميد الكلية إلى لجنة . فلمدحها بعض ، وأنكرها بعض .. وأفتى أحد الأساتذة بأن صاحب الرسالة قد كفر . وأما الشيخ محمود شلتوت فقد توقف حتى يتثبت من حكم الله في تفسير كتاب الله .. ويقول الأستاذ خلف الله وهو يطلب رأي الأستاذ الحكيم : إن الدراسة الجامعية لا تستقيم إلا مع الحرية ، وإنا لنعجب كيف يكون

أسئلة الجامعيون قادة الرجعية في البيئات العلمية ، وكيف لا يشعرون بأن في تلك الحطر كل الحطر على العلم العلمي في هذه الديار .. هذه هي قضية الجمعية عرضتها عليكم وعلى القراء ..

ـ جوهر القضية فهو : أن قصص القرآن لم تعتمد على أصل من واقع حدث ، أو من التاريخ بل قد يكون ذلك من عمل الفن الذي لا يعنيه الواقع ـ يجري ، وإنما يبدع عمله ويبرز صورته على أساس الحقيقة الفنية والقدرة على الابتكار والتبديل .

ويكتب الأستاذ أمين الخولي إلى الأستاذ الحكيم يقول : إن الأستاذ محمد خلف الله يرى أن قصص القرآن ليس لتعليم التاريخ ، ولا سرد وقائعه مرتبة مستوفاة لعناصره من الحقائق التاريخية ، ولذلك لا يلزم أن تكون كل حوادث القصص القرآني قد وقعت ، بل ما هو تصوير وتمثيل للمعاني ، واطمأن لهذه النتيجة ـ لاعتماد على مقررات دينية .. ويحسبني أن أقرر لك أنها مقررات فرغ منها الأستاذ الإمام محمد عبده منذ أكثر من أربعين عاما من تقرير ما هو أوسع منها مدى ، إذ انتهى من أن القصص القرآني فيه ما هو مثل لا قصة واقعية ، وعن أن للمؤمنين حق تأويل هذه القصص على أساس أن القرآن يعبر عن المعاني ويصورها بالحكاية وأسلوب الحوار . كما فرغ من أن وجود شيء في قصص القرآن لا تقتضي صحته لأنه يحكي عن حال الأقدمين الصحيح منها والصادق والكاذب . ولأنه يجري تعبيراته على معروفهم ومتصوراتهم ، ولو كان خرافيا لوصف الشيطان في قوله تعالى : « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » .. ومس الشيطان في قوله تعالى : « الذين يأكلون الربا ، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » ، فليس في هذا وصف صحيح من أمر الشيطان أو مسه .. بل إن الأستاذ الإمام قد أول الملائكة بالأرواح والقوى ، والشياطين وإبليس بدواعي الشر ، وعرض في بيان طويل لقصة آدم كلها في سورة البقرة .. ثم فصل التأويل على التسليم بحقيقة هذه الأشياء والأحداث ، مقررا أن الذي يؤول أعلى كعبا في الإيمان من الذي يسلم ، لأنه أكثر اطمئنانا ، وأقل تعرضا للشكوك ..

وفي حالة من الفزع والغضب يتوجه الأستاذ الحكيم إلى رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي باشا قائلا : كل ما أستطيع أن أفعل هو أن أرجو رئيس هذه الحكومة أن ينكلم أو يأذن بالكلام .. وألا يستصغر الأمر .. وأن يعلم أنه ليس هو الذي يخيف الإنجليز بصوته في مجلس الأمن وبصمته في مجلس الوزراء ، ولكن الذي يخيف الانجليز هو هذه النهضة الفكرية التي اعتقدوا أنها سرت في الشرق من مصباح الأستاذ الإمام محمد عبده . التقدم الفكري والروحي في مصر هو وحده مفتاح القضية المصرية .. وإذا جلت جيوش الاحتلال عن أرضنا ، فلأنها لا تستطيع البقاء طويلا أمام أشعة من الفكر والعرفان تعمي أبصارها . وإذا جسب المستعمرون حساب مصر فلأنهم يخشون تلك المنارة الفكرية والروحية أن تلاحقهم بأشعتها في العالم العربي فالأمر خطير يا رئيس الحكومة إلى حد أطالبك معه بواحد من أمرين لا ثالث لهما : إما أن تدرأ في الحال هذا الخطر المحيق بهذه المنارة الفكرية والروحية ، وإما أن تستقيل !

وقد فزع رئيس الحكومة النقراشي باشا من كلمة « الاستقالة » واتصل بالأستاذ مصطفى أمين رئيس تحرير أخبار اليوم ، خاصبا . فكان رد مصطفى أمين أنه يحترم حرية الرأي فليس في استطاعته أن يحذف من مقال الحكيم كلمة واحدة !

• • •

ويتوقف الأستاذ الحكيم عند نهاية كتابه عند الآيات الكريمة : « ... ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون .. حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون .. » .

وتخيل أن الله قد أحيا شخصيات قصصه ومسرحياته وأطلقها على المؤلف يطالبونه بأن يطعمهم ويكسوهم .. وتخيل هذا الزحام من شخصياته التي بلغت

المنات ولكنه لا يدرى مما يفعل فيقولون له : أنت الذى خلقنا أنت الذى سطحنا .

ووجد من السهل أن يجد عملا للأطباء والمهندسين والعاطلين ، ولكن كيف يجد عملا للملوك والوزراء . وأخيرا طلب من الذين يجدون عملا أن يتصدقوا على الملوك والوزراء .

ثم يسألهم الحكيم : وما الفائدة التى تعود عليه هو من تشغيلهم . فاتفقوا على أن يعطوه ، عموله ، ولا شك أن تشغيل هذه الشخصيات أكسب له من صناعة التأليف التى لا تعود على المؤلف إلا بالملاليم . إى عادت !

ثم طلب من الله أن يكفيه شر هذه المخلوقات وأن يصرفهم عنه فلا يعرفوا عنوانه !

الشاعر الجارم

كتب الأستاذ العقاد فى مقدمة ديوان على الجارم ، أن الأستاذ ينتسب إلى مدرسة دار العلوم ، المدرسة الدرعمية ، وأن الجارم ركن من أركانها وهذه المدرسة تتسم بأنها لغوية عربية سلفية عصرية .. وهى أسرة فكرية نفسية خلقها طبيعة الدراسة التى انفردت بها دار العلوم ولم تشبهها دراسة من قبلها فى لغتنا ولا هى لغة أخرى من لغات الثقافة المعروفة لدينا .

ويقول الأستاذ العقاد أن هذه المدرسة قد انقسمت مدرستين لابسو الطربوش ولابسوا العمامة .. يقول الجارم بروحه الظريفة يصف حاله فى أوربا .

لبست الآن قبعة بعيدا
عن الأوطان معتاد الشجون
فإن غيرت شكلى فإنى
متى أضع العمامة تعرفونى

والشاعر الجارم (١٨٨٢ ـ ١٩٤٩) من أبناء رشيد .. التحق بالأزهر تلميذا للإمام محمد عبده والشيخ عبد العزيز جاويش .. ثم درس فى دار العلوم

وأوفد في بعثة إلى انجلترا أربع سنوات وعاد ليعمل مفتشا للغة العربية وعضوا بالمجمع اللغوى وعضوا لدار العلوم .

ولا أزال أذكر صوت الشاعر الجارم في الإذاعة يلقي قصائده : الصوت كان ملينا واضحا حسنا وكان لنا زميل في مدرسة المنصورة الثانوية يشبهه طولا وصوتا وأداء أيضا هو الزميل ماهر قنديل مدير تحرير « حواء » وكنا نحب الاستماع إليه .

وقد حفظت للشاعر الجارم أبياتا مفردة في مدح الملك فاروق وعرشه والترحيب به ذهابا وإيابا ... مثلا يقول الجارم في قصيدته « الناجية الكبرى » يوم تولى الملك فاروق سلطته الدستورية يوم الخميس ٣١ جمادى الأولى ١٣٥٦ (٢٩ يوليو سنة ١٩٣٧) :

عشعت لفيض جلالك الأبصار
ونكت بمسك خلالك الأشعار
وتوسمت مصر العلا في طلعة
قد حفها الإجلال والإكبار
ملك تمار البيرات إذا بدا
أسمعت أن النيرات تغار ؟
غضي جفونك بانجوم فدونه
تتصاءل الآمال والأقدار
يوم تمناه الزمان وطالما
مدت إليه رؤوسها الاعصار
يوم جنا التاريخ فيه مدونا
على ما قد صمت الأشعار
يوم كان صباؤه من أعين
من طول ما اتجهت له الأنظار
فاروق : تلهك رحمة وسعادة
للوالدين وعزة وفخار
فانعم بما أوتيت واهنأ شاكرا
لا زلت بالنصر المبين متوجا

تحيا بك الأوطان والأوطار

وقال في حفل أقيم له في الخرطوم سنة ١٩٤١ :

بسمة رنحت أعطاف وادينا
هي تحييك ، أو عوجي تحيينا
وإن على العهد لا يبعد يحولنا
عن الوداد ، ولا الأيام تنسينا
وقد بدت سمحة الخرطوم مشرقة
كما تجلى جلال النور في سينا
جئنا إليها وفي أكبادنا ظمأ
يكاد يقتلنا لولا تلاقينا
جئنا إليها نمن دار إلى وطن
ومن منازل أهلينا لأهلينا
يا ساقي الحي جد نشوة سلفت
وأنت ، بالجبنات ، الخمر تسقينا
واصدح بدوبية لما هتفت بها
بشرق السمع ، شوقي ، وابن ، زيدونا ،
وتحكم اللحن يا ساقي وغنى لنا
إنا محبوك يا سلمى فحيينا

شرح الكلمات والمعاني في هذه الأبيات
أما ، الجبنات ، فاجبن من الحجار يستخدمونها في السودان للقهوة .
والجارم يشير إلى قصيدتين قالهما دون .. الأولى لأمير الشعراء شوقي تقول :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نأسى لواديك أم نأسى لوادينا

وشوقي يعارض بها قصيدة للشاعر الأندلسي بن زيدون الذي قال :

أصحى التنائى بديلا عن تدانيها

وناب عن طيب لقيانا تجافيها

أما تصحيف البيت الذى جاء فى هذه القصيدة فالشاعر عمرو بن سعد بن مالك وهو شاعر جاهلى كان يلقب بالمرقش الأكبر .. أما البيت كاملا فهو :

إنا محيوك ياسلمى فحيينا

وإن سقيت كرام العى فاسقينا

أما الذى ليس واضحا فى هذا الديوان فهى خفة دم الشاعر الجارم فالذين يعرفونه يجدونه ظريفا يعرف ما لا نهاية له من النكت الأدبية والنوادر التاريخية ..

وقد اختار الجارم علم النحو ليدوق فيه وكتابه « النحو الواضح » قد أرسى القواعد السهلة لعلم النحو .. وفى هذا الكتاب اختفى وراء القواعد والأصول ، ولم نظهر روحه الفكاهية .

ويقولون : إنه كان من أظرف أدباء العصر

وكان أيضا من فحول الشعراء التقليديين ..

وأخيرا صدر « ديوان على الجارم » جزأين فى مجلد واحد

التحدى الحضارى والغزو الفكرى

هذا عنوان كتاب صدر أخيرا وكان محاضرة ألقاها الأديب العراقى الكبير د . يوسف عز الدين الأستاذ بآداب جامعة الملك سعود . فى يونيو سنة ١٩٨٢ .

وقد قدم لهذه المحاضرة الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية بقوله : سوف يتعرض الجيل الناشىء للمؤثرات التى تردد مع وسائل التطور الحضارى . لذا فإن مسئولية المؤسسات التربوية والإعلامية أن تعمل على توجيه الرد فى الاتجاه الصحيح من حيث بناء الشخصية الوطنية المؤمنة ومقاومة المؤثرات الخارجية وبناء عوامل المناعة الذاتية ..

يقول د . يوسف عزالدين : بعد أن حسر الاستعمار مواقعه القديمة التي حصن عليها بالسلاح والقوة العاشمة يثبت مصالحه المادية تلح عليه بضروره عوده إلى تلك المواقع التي جلبت له الرفاهية والخير .. ولم يجد أمامه أسهل من الغزو الفكري والسيطرة النفسية وفيها يأمن لمصالحه وعوده تدفق بضائعه في سوقنا .. ولما قابل ثبات العقل العربي والأصالة الإسلامية ومناعة الفكر شرقي وهي جميعا تحول دون تسلل هذا الفكر ، فانساب إلى القاعدة الخلقية ، في بنائنا التراثي وشموخها الحضاري بعد أن رسخت تقاليدنا الاجتماعية ، وصبحت قوية واثقة من أصالتها وتراثها .

ومعاصرة د . يوسف عز الدين أعمق وأروع نداء وجهه مفكر عربي إلى زملائه من الأدباء وأساتذة الجامعات ورجال الدين إنه لم يطلب إلى أحد تستحيل لكي يرقف ، غزو ، الغرب لعالمنا العربي الإسلامي . إنه فقط يرسم ـ بسهولة وبسرعة ماذا حدث لنا جميعا . ثم كيف نتحلل ونتخلص من هذا الإعجاب العميق ، إذا نحن عدنا إلى حضارتنا العربية الإسلامية ، بعيون جديدة ومفهوم مختلف وليس كل ما هو عربي ، قديما يصلح الآن .. مهما حاولنا إعادة صياغته وتطويره .. ولكن يجب أن يكون الإنسان نفسه ـ أي يكون مخلص نفسه ، صادقا مع وطنه ، واعيا لرسالته .. فلا يرفض الغربي لأنه غربي ، ولا يفضل العربي لأنه عربي ..

وقد مشينا عميانا جميعا وراء الحضارة الغربية الباهرة جديدتنا أحدثنا استولت علينا فسبينا أصولنا .. قلدناها ورددنا ما أعجبنا به فكانت مذاهبنا الأدبية والفنية العاصفة المشوشة نقلناها إلى تعلمنا وتراثنا .. وأصبحنا إلى إفلاسنا الروحي مزيدا من الغموض .. وتحولنا هاربين من ماضينا لاجئين إلى حاضرهم متعلقين بمستقبلهم .. ودرجت آثارهم .. ومرهنا بها أو رهنا وعن الجدوى بها والجدوى صدها ، انهارت الشخصية العربية صحبة سائحة للأفكار الغربية من كل لون وطعم .. وكان الخضوع لها أيسر وأجمل . واستسلم كثيرون وتفرقنا فيما بيننا معها وضدها .. ومعنا وضدنا .. أما كيف نصد التيار ؟

وأنا هنا أختلف مع صديقي د . يوسف عز الدين .. فالتيار كله ليس شراً .. فالتطور العلمي الباهر ليس موجها ضد العرب . بل إننا نستفيد من كل وسائل

المواصلات مثلا . ونحن لا ننام ونصحو فنجد أنفسنا هكذا خواجات لا نؤمن لا بالعروبة ولا بالإسلام .. وإنما نحن نقرأ ونتفرج ونختار ما يعجبنا .. تماما كما أنك سافرت وتأثرت واستمعت وتدعونا جميعا أن نقف سدا منيعا ضد التسلل الفكرى الذى يهدم تاريخنا ويمزق وحدتنا وقيمنا الأخلاقية .

لا أجد صعوبة فى أن يكون الإنسان مسلما وقارئا لكل الأفكار المعادية للإسلام ، وأن يكون عربيا ويقرأ بعشر لغات .. وينكلمها أيضا .. فليست الحضارة عواصف لا تصد ولا ترد .. ولا هى وباء لا علاج له .. ولا هم آلهة ونحن بشر .. وإنما هم بشر مثلنا .. ونحن نأخذ منهم ما نريد ، ونعطى ما نستطيع . ثم إننا لا نستطيع إلا أن نبهرنا حريتهم المقدسة وكيف يمارسونها .. ونعجب بتكاتفهم ضدنا أو فى خدمتنا ..

وأنا أوافق د . يوسف عز الدين فى بعض تخوفاته وأعله أيضا على ضرورة فهم حضارتنا العربية فلا ننسى الماضى ولا نستغرق فى الحاضر ولكن الاعتدال . وهو صعب . هو ما يجب أن نحرص عليه لنا وللأجيال الصاعدة من بعدنا ..

وأما الداء الحقيقى فهو الذى شخصه د . يوسف عز الدين بقوله :
« الغرب يحتضن صاحب الرأى ولو كان معارضا ، وفى الوطن العربى تحرق يد المعارض ويصفى جسديا حتى وإن ترك وطنه إلى بلاد بعيدة وسكن بلاد الغرب .. أو الوطن العربى .. فما يكون رد فعل ما قرأ ؟ إنها الحيرة والضياع والغربة ؟! ..

فقط ؟
فقط !
فقط ؟!

ماذا حدث ولماذا وكيف حدث ؟

لا إجابة عند الأديب السعودى عبد الله الجفرى لأنه لا شىء حدث . وإنما هو يكتب ويتوجع ويلهو بعذابه وعذاب الآخرين .. إنها لذة الفن للفن !

كتبه الأخير اسمه « قط .. » وهو نموذج لأسلوبه الذى هو حياته ومكتبه . لوحات .. اسطوانات .. حوار بينه وبين التى يحبها ، والتى يكويها بأسلوبه .. أو يتوهمان ذلك ..

« عبد الله الجعرى » صحفى لامع . ولكنه اختار « الظلال » مقرا ومستقرا ، وسببا وهدفا لحياته الأدبية .. فهو لا يفتح عينه فى النور ثم إنه لا ينام فى الظلام وإنما هو يتحسس ويتلمس ويتصيد . وإذا كانت الصحافة شمس فهو حسن البقع الشمسية .. فقد اختار خيمة من حرير شفاف فوق الرمال بالقرب من نخله فى واحة صناعية .. ومن حين إلى حين يظل القمر ويبرل المطر معه ، أو الدمع مطرا من عينى حبيبته .

« الحرار » معها أو عدها يشعل النار فيه .. فلا تزال يده ترهف تلامس يدها . فى حديث . وهذا هو الحديث الوحيد فى كل الكتاب . فلابد أن يمسىء القمر وجهها . والكون كله ! .. أو تعلن الساعة انتصاف الليل !

كلام فى سلام فى كلام فى حرير فى دخان فى ضباب فى آهات فى توسلات وحسرات .. ولعنات لليوم الأسود الذى أحب فيه ..

وأنت غارق معه فى هذا الهباء الرومانسى يسألها : ومن هو ابن الكلب الذى عصاك ؟ .. هتردد عليه أنت !

ولا يضحكان . ولكنك أنت القارىء تشعر بأنك أعطيته رأسك فشجها بسرعة وأعادها لك تسعين .

يقول لها : إن نفسى فى حاجة إلى مطر يغسلها .. ولكن نفسى تشبه مدينة « جدة » قليلة المطر .

فقد كتب عليها .. إن حياته تشبه مدينة جدة ولكن ليس فى نفس المطر وإنما فى أشياء أخرى كثيرة ..

وإذا كانت الحياة « جدة » فإن الحب « مكة » ..

والأستاذ عبد الله الجعرى حريص على أن يظل آخر الرومانسيين فى بلاده ، إحياء لتقاليد أدبية اجتماعية نفسية كانت مزدهرة من عشرة قرون .

فيه حاسن شواء الضعيم بالعسل الى ال... بس وحده طبعه ويما رجله
على رجلها ورجلها رقيه . امين !

ومن انصاف للامير عبد الله الحجري من يعرفه بانه عاشق مرى من
ب ي شام سعد ... من اجتمع رجل و مر ... لا كان الشهود شهد !

موراثيا : الطريق الى النار

موراڤيا: الطريق إلى النار..

في حياة كل واحد منا حادثتان : حادثة نصطدم بها ، أو تتعثر بها .. وحادثة تؤدي إلى تغيير مسار حياتك !

الأولى هي الحادثة « الصدفة » .

والثانية هي الحادثة « القدر » .

وكان لقائي بالأديب الإيطالي العظيم ألبرتو موراڤيا من حوادث القدر .. فقد جاء هذا اللقاء في الوقت غير المناسب لي تماما ..

كنت حديث تخرج في الجامعة .. وحديث العهد بالعمل الصحفي .. وكانت ما تزال المصطلحات الفلسفية عالقة بقلمي .. فكان من الصعب إذا كتبت ، لا أجدني قد استخدمت بعض التراكيب غير المفهومة إلا للمتخصصين .. وأحسست أن هذه « عورة » بلاغية . وأنني كالذي يستخدم كلمات أجنبية كثيرا في حديثه أو كتابته .. أي أنا لست مفهوما .. وفي نفس الوقت انفتحت أمامي أبواب الحياة وشوارعها وملاهيها ..

والمطلوب مني هو أن أعمل جادا ، وأن أؤكد وجودي الأدبي .. وأن استدرك ما فاتني من ملذات الحياة ..

وفي ذلك الوقت رأيت أول فيلم سينمائي في حياتي فلم أكن قد دخلت سينما قط .. فقد تفرغت تماما للدراسة والتفوق فيها وفاتني أن أرى السينما والمسرح أو الملاهي . أما هذا الفيلم فهو « غراميات كارمن » بطولة ريتا هيوارث وجلين فورد .. والقصة معروفة للشاعر الفرنسي مريميه .

وكان هذا الفيلم هو « الفيلم القذر » فقد غير حياتي ومسار أفكاري الفلسفية .. أما الذي في هذا الفيلم هو أني رأيت العجز .. حياة العجز .. وقد كتبت عن العجز كثيرا جدا .. وأحدث كتاب صدر لي عنوانه « إلا قليلا » كتبت فيه فصلا طويلا عن علاقتي بالعجز .. وقبل ذلك أصدرت كتاب بعنوان « نحن أولاد العجز » .. وفي كتاب صدر لي من عشرين عاما « وداعا أيها الملل » فيه فصل بعنوان « نحن أولاد العجز » .. فالكاتب والفنان والفيلسوف والشاعر والصعلوك كلهم مثل أولاد العجز .. جماعات .. شرائح .. تعيش على الحافة بين القانون والخروج عليه .. تعيش « كأننا » مبعدون من المجتمع .. والحقيقة أننا أحرارا أن نكون كذلك .. ولكن صفاتنا وموهبتنا ومزاجنا النفسي ، قد جعلنا منعزلين منفصلين .. إنفصال الرهبان في الصوامع . والعلماء في المعامل ، ورواد الفضاء .. والمحكوم عليه بالإعدام فنحن أيضا محكوم علينا بالأفكار الشاقة المؤبدة .. ونحن نحمل أكفاننا التي سندفن فيها ، وصلباننا التي سنموت عليها .. أو هكذا تصورت .. وتصورنا .

وفي ذلك الوقت ذهبت لأول مرة في حياتي إلى كباريه .. ورأيت راقصة أول راقصة شرقية أراها شحما ولحما وابتسامة عامة ، طلبته شخصياً .. وكتبت قصصا ونظمت شعرا ، وبسرعة جاءت حبة أملي عميقة . وكانت هذه الراقصة .. هي « الراقصة القذر » ..

والتقيت بالأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا بالصدفة في فندق سميراميس بالقاهرة .. وكنت قد قرأت له عملا أدبيا واحدا وكتبت عنه كثيرا جدا ، وأنا لا أعرفه .. ثم رأيته . وكان هو وزوجته الأديبة إلزه مورانته .

دعني أصف لك ألبرتو مورافيا .. إنه نحيف طويل رشيق . سريع الحركة أصلع حاد الحاجبين والأنف جامد النظرة ، وزوجته قد أشار هو إليها ، فهمست وسلمت عليها ، ولم أكن أعرف لي أصابعي مثل أنياب الحية أو ذيل الفسفاح .. فلم أكد ألمس يدها حتى خطفتها مني وأخفتها في ملابسها ، وظهر عليها الألم ، وقال لي مورافيا . إنها مرهفة .. وعرفت فيما بعد أنها عصبية جدا ،

، محبوبة إلا قليلا . وأنها محدودة في ذلك ، فهي تعيمه . وهو نجم الأدب الواقعي الإيطالي اللامع الذي تدور في فلكه جميلات كثيرات .

أما الرواية التي كتب قد قرأتها له فهي « فتاة من روما » الفتاة إسمها مريام . جميلة والفتاة بعد الحرب العالمية الثانية فلسفية شافة . وكان من نصيب أدريان هذه أن تصور كل ما يلقاه الناس من هوان وبيع وشراء . والسبب الحرب .. والسبب . الفاشية الدكتاتورية في إيطاليا ..

وكتب روايته « فتاة روما » أول رواية اقرؤها في حياتي بلغتها الأصلية . لأسلوب جميل العبارة سهلة قاطعة صفحات الجنس مشعل النار ، حتى لقد صبحت نفسي مرة بدلا من أن اقلب الصفحات ، فليتني أتوقع فيها !

قلت لألبرتو مورافيا : إن روايته فتاة روما قد أوقعتني في كارثة عاطفية . لقد وصفت فتاة إيطالية بأنها مثل أدريان .. ولم أكن قد قرأت هذه الرواية بعد ، وبعد قرأت عنها لما هي فقد قرأت الرواية ، وعصبت . وانفصلت وحاولت بعد ذلك أن أعتذر ولكن لم أفلح .

قال مورافيا . حدثت ذلك للأديب الإيطالي بيرندللو .. فقد إدعى في إحدى المرات أنه قرأ الخطاب الذي بعثت به محبوبته .. وشاجر معها ، وانفصلا . وبعد عاد إلى البيت يقرأ الخطاب وجد أنها قد وافقت على كل شروطه ، أن تترك زوجها وأن تعيش معه وأن تبيع أرضها . ولكنه لم يكن قد قرأ لا خصها فكتب لها ..

وعندما حاول أن يعود إليها معتذرا وجد خطابا بعث الباب يقول فيه : إن النساء العجائز لا يعرفون إلا البكاء على الماضي فإن كان عندك متسع من الوقت تبكي فهذه هي الفرصة .. لقد فتحوت !

ثم قابلت ألبرتو مورافيا بعد ذلك في برلين .

وقابلته هو وزوجته الجديدة الأديبة الجميلة داشيا ماريني التي كتبت رواية « حدة هي » رمز المرارة ، وكان ذلك في هافانا عاصمة كوبا .

ثم انفصل عنها . وقابلته مع الصديقة الجديدة ماتيلدا جالليني في بيته في روما .

وبعد ذلك توالت رواياته موراهيا : رمز للاصالة .. والإمرأتان .. والحب الزوجي .. والملل .. وعشرات القصص القصيرة .. ورأيته ، ١٩٣٤ ، .. وكتب الرحلات في الصين وروسيا وأفريقيا . وترجمت له أربعون قصة قصيرة .. واكتشفت جانبا مجهولا لنا في حياته : المقالات الأدبية الممتعة التي كان ينشرها في الصحف . والتي جمعها في كتاب بعنوان « الإنسان غاية » .

وعندما قرأت رواية « فتاة روما » .. إهتزت حياتي وانفجرت أمامي سراديب الليل في القاهرة والعواصم الأوروبية ..
وعندما ذهبت إلى روما مشيت في نفس الشوارع التي كانت تمشي فيها أدريانا .. وطبعت أقدامي قبلتها .. في ميدان البندقية وإنطلقت إلى شارع دلكورسو . أي شارع السباق ، حتى ميدان الشعب .. (بياتسادل بوبولو) .. وصعدت إلى حديقة بورجيزة .. إلى كباريه هيلا فرانكا .. ودخلت ، وكما دخلت خرجت بسرعة ، فقد وجدت الملك فاروق ، وكان قد خرج من مصر منذ أيام .. وكانت السماء ممطرة .. ومشيت .. ومشيت .. حتى وصلت إلى ميدان بربريني . واتجهت إلى أول مطعم . وكان المطعم صغيرا . وفي أحد الأركان أشرت إلى أنني أريد أن آكل أي طعام . ولم أر بوضوح من الذي وقف أمامي .. إنها فتاة جميلة .. سوداء الشعر والعينين . وقد استندت بجسمها على المنضدة وانحنت إلى الوراء فأبرزت نهديها وسحبت حصرها . واعتدلت أنا لأرى فقلت : أنت أدريانا !

فهزت رأسها : نعم
قلت : شيء عجيب حقاً !
قالت : ماهو العجب .. إسمي أدريانا وأنت سألتني بالأمس فقلت لك .. ولم أكن أعرف أنني جئت إلى هذا المكان بالأمس .. وأحسست فجأة أنني مجنون أدريانا ..

وبقية القصة عادية .. ولكن الأثر الذي تركته هذه الرواية في حياتي كان عجيبا . فقد أحسست في ذلك الوقت أنني مثل عربة يجرها حصان وحمار .

ـ الحصار فهو المستغل بالطبيعة أما الحصن فهو الذي يريد أن يحوطني الحياة
بقبضته في إصرار ، ويرمي بقبضته على الثياب والصفائر التي يمتلئ بها بين
ـ ر الهوى والسنين

وحدثت ـ ر حنظ بالحصار ، إحساسي فجعلت الحصان يجر عربتي
ـ الحمار فقد ربط في مؤخرة العربة بعد حسبت أنه وأنا أكثر مني
حسب إليه وإنه حسب كبير مني وصعب الحمار فوق العربة ورحت
أطعمه من العلف فقد حسبت أن الحصان يطير ، ولم أفكر لحظة واحدة
ـ أن أترك العربة والحصان والحمار وانطلق وحدي هائما على وجهي !!

وحدثت وكان البرنو صوراهيا يتحدث روايته وراء روايته وقصته وراء
قصته إلى ما هو عميق لكي أرى وأن أحس

وربما كان صوراهيا هو الذي علمني أن أعتمد أسلوب الكاتب الأمريكي
همنجواي وفيما بعد ، لولا أن همنجواي هو أيضا الحصان المريض ، بل صوراهيا
فهو أيضا الجسر الذي هو صحته وعافيته وأنا !

سألني صوراهيا في نهاية الأول في الظهيرة وبعد أن ربما ساعتين

قلت إنها أول عمل أقرؤه لك وأنا ولن من قلمك إلى اللغة العربية
وهو يريد إلى الحكايات فسوف نجد هذه الرواية وحدها

سألني وهل الحياة في هذه الرواية قريبة النسمة بالحياة في مصر الآن

قلت بعد الحرب العالمية الثانية كانت القاهرة مثل روما لولا أن
القاهرة لم تهدم ، ولا مصر كلها كما حدث في روما أو في إيطاليا ، لكني
لا أستطيع أن أعرف ما الذي حدث في مصر في ذلك الوقت فقد كنت طفلا

قال صوراهيا إني قد أقرب إلى الطبيعة الوجودية منك إلى الوجودية
الأدبية

قلت ، صحيح فقد اشتغل بالطبيعة الوجودية أستاذها والقوم يدرسها
في الجامعة

قال صوراهيا وكان يقف كثيرا في جلسته ويرفع صافا ويضع صافا
وعرفت فيما بعد أنه أخرج بسبب سلس الأطفال الذي أصابه وهو طفل

فهمت .. إذن أنت مجبور بالألوان الصارخة في الرواية وفي الحياة .. و ـــ سعيد بتلك الألوان . ولكن في نفس الوقت لا تهتم كثيرا بالعلاج الاجتماعي أو السياسي . فأنت إذن مستعد أن ترى أدريانا تنتقل من حضن رجل يحبها إلى رجل يعذبها ، وآخر يذبحها ، ورابع تدبحه ، دون أن تتدخل .. ودون ـ تثير شعورك . ألا ترى أن الطبيعة هنا مظهر من مظاهر القسوة أو البلادة والطبيب الذي يرى مشهد القتل وصراخ المرضى ولا يهتز ، ليس لأنه مب الحس ، ولكنه إعتاد على ذلك . بينما أهل المريض يصرخون ويبكون بعد .. ألا ترى أن الطبيعة ليست إنسانية . فقط أن نرى وتعرج وتحتل وتكون مسعدا بالذي إهتديت إليه في النهاية .. ثم إن هناك قدرا من الأنانية .. فأنت تريد أن تكون أدريانا فقاتك وحدك . دون أن تعر بهذه التجارب ودون أن تكشف لك المجتمع الإيطالي بعد الحرب فهمت .. أنت مازال شابا وأن عندما كتبت روايه ، رمان اللامبالاة ، كنت أتحدث عن شبابي في ظل الحياة ، الفاشية ، في عهد موسوليني .. ورأيت أن اللامبالاة علاج .. وفي نفس الوقت جريمة .. وأنه في ظل الأزمات الكبرى نجد الناس ، مندفعين بالكراهية والرغبة في الإنتقام . أو لامبالين كأن الأمر لا يعنيهم .. وفي الحالتين فإن المجتمع يخسر القوة التي من الممكن أن تنقذه مما هو فيه ولذلك لا يكون الخلاص إلا بعد ذلك .. أي بعد أن تنخفض درجة حرارة الناس .. وبدون أوضح .. أي بعد أن تكون الديوت قد صوبت بالأرض .. ويكون الناس أنفسهم حرائب نفسيه وعقلية ومن هذه الخرائب وعليها ، أقيمت أعمالي الأدبية : فنا وتشريعا ودعوة لإصلاح شيء !

لم يكن الحديث مع ألبرتو مورافيا الا سحرا متدفقا . هل كنت أكتب كل الذي يقول ؟.. كنت أفعل ذلك وفي نفس الوقت أنظر إليه . إن الكلام يخرج جاهزا .. فليس على وجهه أي مجهود في إخراجه أو تنسيقه ..

وجاءه من يناديه .. ووقف مورافيا لأجده يعرج بشدة . ونظرت إلى زوجته لقد لفت رأسها بمنديل أحمر . وألصقت وجهها في يديها ثم انحنت هي في بالطو ثقيل .. وكان الفرع والقرف والقسوة هي إسم الشعاعات التي تخرج

من شيء في دور الحرر وفي حجمه أيضا . وعندما حاولت أن أحييها ، نظرت في الناحية الأخرى . فصلت الكلام في حلقي .

جاء موراڤيو وجلس يقول . وكأنه رأى دهشتي لأنه أعرج فقال : أنا لم أصب في مدرسته ، تعلمت كل شيء في السرير . فقد أصيبني شلل الأطفال . تعلمت اللغة الإيطالية والفرنسية والإنجليزية والآلة الكاتبة على السرير . وسمعت من أمي نصيحة واحدة مضحكة . ولكنها في غاية الصعوبة والعمق . قالت لي : لم أستطع أن أفعل أكثر مما فعلت . جعلت وولدت ولم أستطع أن أجعلك أكثر قوة .. هذا كل الذي استطعت . وعليك الباقي ! وفعلا كان الباقي هو العبء الأكبر .. ولا أعرف كيف قررت أن أكون كاتبا فليس ثمة شيء يستحق المشاول إلا أن يقرأ وإلا أن يقرأ وإلا أن يفكر . أما أثر هذه القراءة في نفسه ، فليس معلوما من البداية .. وكل الذي تمنيت أن أحققه ، جعلته في عيني روايتي . فقد فعلت كل الذي لا أستطيعه .

وسألت موراڤيا إن كان قد قرأ شيئا من الأدب العربي الحديث .. لم يقرأ شيئا ولكنه سوف يحاول ذلك ، فلا يمكن إغفال الحضارة العربية أو ما تبقى منها . ولكنه ذكر بعض الأسماء التي أعرفها في الأدب اللبناني الذي ترجم إلى الفرنسية ..

وفي يوم جاء ألبرتو موراڤيا إلى القاهرة .. وقابلته قائلا : من محاسن الصدف أن ظهرت لك اليوم روايتان مترجمتان ..

وكانت يده قد امتدت إلى جيبه وأخرج ورقة وقلما ، قبل أن أكمل هذه العبارة . وقبل أن تظهر على وجهه معالم السعادة . إن كان يسعده ذلك . وقبل أن أكمل سألني عن اسم الناشر واسم المترجم . قلت : لا تحاول أن تكتب .. فحتى لم توقع على « إتفاقية برن » فليس لك أية حقوق مادية عند الناشر أو المترجم ..

ووضع الورقة والقلم في جيبه . ولم أجده سعيدا بأن تكون كتبه قد نقلت إلى العربية . وطلب مني أن أحضر له نسخة من كل من الكتابين . وفعلت . ولم يعلق بشيء !

وسألني : ما هي قضاياكم الأدبية .. أو ما هي قضاياكم السياسية الآن وكنا في سنة ١٩٥٥ ..

قلت : لاشيء أكثر مما نعرفه عن الأحداث التي طرأت على مصر والعالم العربي بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ .. ويمكن أن يقال أن المجتمع قد وجد « الصيغة » و « المعلم » .

فاعتدل في جلسته واتجه بأحبي باهتمام شديد قائلا : أنت قلت شيئا هاما جدا .. وشيئا عميقا جدا .. وقد شغلني ذلك في العشرين عاما الماضية . الصيغة . والمعلم .. هل تعرف أنه من الممكن أن يجد مجتمع من المجتمعات صيغة جديدة لتفكيره وحياته .. وتكون الصيغة قوية مقنعة .. ولكنه يحبط في تطبيقها لماذا لأنه لايجد من يعلمه كيف يعمل ذلك . ومن الممكن أن يوجد « المعلم » ويكون قوي الشخصية قادرا على الإقناع . ويكون قدوة ومثلا أعلى .. ولكن بلا صيغة .. أي بلا نظرية تحدد ترتيب وتنسيق وتطوير أدوات العمل في أي بلد .. ويمكن تطبيق ذلك في عالم الأدب أيضا .. فهناك أدباء عندهم صيغة جميلة . كما وجدت أنت مثلا في رواية « فتاة روما » هذه هي الصيغة .. ولست أن المعلم .. ولكنك أنت الذي علمت نفسك بنفسك كيف تعيش على ضوء أدريانا وإلى جوارها وفي ظلالها وعلى صداها .. وكذلك من الممكن أن تجد شخصية أدبية بارزة باهرة . يلتف حولها الناس . ويكون له صالون أدبي ويقوم هو بصياغة سلوك وحياء المترددين عليه .. ولكنه يعجز عن صياغة الفكر الاجتماعي والسياسي في بلده كلها . ولكن إذا كان المعلم هو صاحب الصيغة ، فأنت أمام ثورة كبرى في كل شيء .

قلت هل أنتقل إلى الطبخة ..

قال : أحبها .. ودرستها ..

قلت : أساتذتنا العظام أفلاطون قد كتب محاوراته الشهيرة « الجمهورية » ووضع فيها الصورة المثالية للحياة في زمانه وكل زمان .. فهو صاحب « صيغة » صاحب « نظرية » .. ولكن عندما طلبوا إليه أن يطبق نظريته هذه في إحدى الجزر فشل . أي نجح فيلسوفا وفشل سياسيا .. أي نجح نظريا وفشل عمليا ..

فهو صنعت أكبر نظريه ناجحه ، وصاحب أكبر تجربه فشله
، بسرعه و بحضور الجواز من الممكن أن يكون طويلا جدا قال وعين
عبد الناصر في مصر
قلت نحن في عصر المعلم الذي يبحث به عن تجربه ولذلك ليس
غريبا أن يعلن جمال عبد الناصر في كتابه ، فلسفه الثوره ، أنه هو ورملاءه
من الضباط كانوا على ، حد تعبيرهم ، يبحثون عن مؤلف ، وهم إسم مسرحيه
لأحد الإيطالي بيراندللو ، قد أعجبتهم عند الناصر فقال أنها ، روايه ،

ومعنى ذلك إنه موجود وعنده زعمه وعنده المسدس لكن ينقصه
فقط تجربه ولاحظه عمق ، إنه عام والناس حوله الناس ولكنه لا يجد
ما يقول أو موقف يجد ما يقول بعد ذلك
وهو عوراهب راسه وقال ، اعرف ذلك في التاريخ إذن لنحكم مرحله
من حكم الفرد والديكتاتوريه الجديده أي مجتمع هو المعلم الذي يبحث عن
تجربه ، أي المجتمع الذي يبحث عن مؤلف يلفه ما يقول .. نعم في المرحله
التي تحتلها إيطاليا وعلى رأسها موسوليني فقد كان موسوليني هو ، المعلم ،
أما التجربه فهي التي وضعها له صديقه الشاعر الإيطالي ، دانسو ،
وكانسي وضعت في فم عوراهب قصته من السجين المليء بالتدابير ، فأطبق
فمه على مضض .. واستمت قصه عن الكلام
إنني أعرف هذه الحاله وقد مررت بها ولا أزال من حين إلى حين
ولكن تصبح عوراهب مستبدي ومن منع الحياء وتدفعه أن أقرأ له كل
ما يكتب وأن أبحث عنه والتقي به وأسأله أني هو ؟ وأين نحن ؟
و عندما أنه من أعظم الروائيين في العالم وأكثرهم عمقا وأطولهم باطن
وأنياب
و قدرهم عني أن يهدي إلي المعنى ورا ، كل الفرنسي وللتناقضات ،
إنه في مكان رفيع من نفسي

من الذى ليس عدوا للمرأة ؟

من الذى ليس عدوا للمرأة ؟

« عبيط مغفل حمار ـ وحيوانات أخرى ! »

قلتها فى غضب وخجل من نفسى !

ما هذا الذى قلت . ما هذا الذى صدقت . ما هذا الذى استرحت إليه . وكيف ؟ وبهذه السرعة . وما الذى تعلمته ؟ أين العقل ؟ .. أين المنطق ؟ .. أين التحليل أين البحث فى أعماقى ..

ما الذى جعلنى أتعلق بهذه الزميلة ..

هل هذا هو الحب ؟

كنت أقول لنفسى ذلك . ولكنى لا أصدق نفسى . فأنا مندفع . وبعد ذلك أنسحب بسرعة ، فليست عندى هذه القدرة على أن أندفع وأظل هكذا .. مهما كانت النتيجة . فأنا إنسان عاطفى . ولذلك فكثير من أحكامى على الناس خاطئة . هذا مؤكد . ولذلك يكون الابتعاد عن الناس سريعا . ويكون السبب أنى اكتشفت خطئى بسرعة .. فالفتيات كثيرات حولنا ..

وأصبح من المألوف أن نجد الزملاء : واحدا وواحدة .. يجلسون معا . يتكلمون يخرجون . يتنزهون . والذى ليست معه واحدة ، يشعر كأنه دون الآخرين .. وكذلك الفتيات . هل هذا هو الحب ؟ لم يتسع وقتى لكى أفكر فى طبيعة هذه العلاقة .. وإنما هو نوع من « التلازم » فقط .

ولا أعرف إن كان الحب ضروريا فى هذا الوقت ، أو فى أى وقت .. أما معتقدى : أن هذا الطالب لا يستطيع أن يبتعد عن هذه الطالبة . وأن اتفاقا سريا بينهما بالزواج بعد ذلك .. أى بعد التخرج . وليس واضحا لديها جميعا : معنى التخرج ولا معنى « بعد » التخرج .. ولا ما الذى سوف يجرى بعد ذلك .. ولكن بعض الطلبة يرون أن الشىء المؤكد هو الزواج من هذه الزميلة .. ويحدث هذا الزواج .

ولم أكن أرى في هذا ، التلازم ، شيئا هاما . فما الذي يحدث ؟ يجلس إثنان يتكلمان ..يقوم الطالب بمساعدة الطالبة في نقل المحاضرات في المكتبة العامة وأحيانا في البيت .. ويرى في المساعده لها ، عروبة ، للصداقة أو الحب . ولكن المهم أنها ارتبطت به بشكل ما ..

وقد فعلت ذلك كثيرا . فبعد مساعدة زميلات وأمليت عليهن أبحاثا كاملة . قرأت ولخصت وتعبت ثم أمليت ذلك عليهن . لماذا ؟ ربما كان إطهارا للقدرة وحرصا على أن تبقى الزميلة ملازمة أو صديقة .. أو حرصا على المظهر العام . وفوجئت بأن إحدى الزميلات قد أهدتني ، أباجورة ، ملفوفة في ورق بشريط أحمر . وكانت مشكلة ، فأنا لا أعرف أين أضعها في البيت . وقد بقيت هذه الأباجورة ملفوفة في ورقها أكثر من عشر سنوات . ولم أفكر في مدلول هذه الهدية .. ولا معناها ولكن صاحبة الهدية حاولت أن تقول : أنها لم تفعل ذلك من قبل . ولكن إحساسها .. وعمق العلاقة التي بيدا .. ولم يترك هذه الهدية أو هذه العلاقة أي أثر أو أي معنى في حياتي بعد ذلك .. فكل هذه المشاعر ، ترف ، ليست هي المشاعر الضرورية التي هي : الانجاز .. والمذاكرة والنجاح والتفوق .. والعمل بعد ذلك

وهي يوم جلست في حالة قرب من حياتي وندم على التعهدات التي أرتكبها بانتظام . ولا أعرف دافعا حقيقيا لذلك . مثلا : ذهبت أهنيء أحد الزملاء بزواجه ولم أحمل معي هدية لذلك !

ولم أفكر في معنى هذه الزيارة . وقلت لنفسي : ربما أردت أن أعرف ما الذي يطرأ على الناس بعد الزواج . وما هو الفرق بين ما قبل وما بعد الزواج . وإن كانت هذه العلاقة ضرورية . صحيح أن الزواج عادة قديمه مستمرة ، ولكن إستمرارها لا يدل على نجاحها ولا حتى ضرورتها . إنها مستمرة والناس يحرصون على الزواج السريع ، ليندموا بعد ذلك على مهل وقد أدهشني أن زميلي هذا قال لي ما كنت أتوقعه : مقلب !

فسألته : ماذا ؟

قال : هذا !

سألت : هذا ؟

قال : الزواج .

ولم يكن قد تزوج أكثر من شهرين !

• • •

وعندما ذهبت أزور أحد أقاربي في المستشفى . لم يكن هو المريض .. وإنما هي زوجته قد وضعت طفلها الثاني بصعوبة . وكانت المرة الأولى في حياتي الاجتماعية . قال : أكبر غلطه في حياة أي إنسان أن يكون له أولاد فهو ينتهي من هذه اللحظة سوف يكون كليا ذليلا .. سوف يجعل حياته من أجل هذا « المعصوص » . وأشار إلى المولود .

كاسي لم أفهم بوضوح قلت : أرجو أن تشرح ذلك . فأنا أعرف تماما معنى أن يكون الإنسان أبا . معذبا بواجباته .. ولا أعرف كيف يكون أبا ..

قال أعرف ماذا تقصد . ولكن عذاب الابن بأبويه ، ليس إلا واحدا على ألف من عذاب الأب بأبنائه . إن هذا هو الإبن الثاني .. ولا تصدق زوجتك إذا قالت أن هذا الطفل جاء خطأ .. إنها كاذبة .. فهي تريد الأول والثاني والعاشر . ومهما تعبت في الولادة والحمل والرضاعة فهي كاذبة .. فهي على استعداد أن تفعل ذلك ألف مرة . فهي ترى أن الأولاد قيود تلتف حول عنق الرجل . وأنها لا تستريح إلا إذا وضعت الرجل في سلسلة من الحديد والنار .. فلا يوجد رجل يريد أن يكون أبا ، ولكن لا توجد امرأة لا تريد أن تكون أما من الشيطان أو من ملاك الموت .. وعلى قدر فرحتها بأولادها ، تقاسي بعد ذلك .. فالأب لا يولد عنده الشعور بالأبوة وإنما هذا الشعور تغرسه المرأة فيه يوما بعد يوم .. وترتبطه بأولاده ساعة بعد ساعة بقدرة فائقة وتدبير عجيب .. قد تكون المرأة جاهلة أمية .. ولكن الغريزة قد أعطتها كل الأسلحة الدفاعية لحماية نفسها وأولادها .. ويكون الرجل هو الضحية .. هو الحمار !

قلت : لا أفهم .. هل تقصد أنك نادم على ذلك ؟

- بل أرجوك أن تقلع الجرعة وضربني بها ألف مرة .. ثم تعال على رجعي بعد ذلك !

ذهبت أعطف إحدى الزميلات لصديق لنا . هو يحبها . لا شك . وكنت يعرف ذلك . وتوقع لهما زواجا قريبا سعيدا زارها في بيتها وزارت أمه وزارت الغربة وعرفت مساحة الأرض التي يملكها .. إنها سلبي بقين من كل شيء . ولكنه خجول . وهو خجول لأنه ريفي مؤمن بالله . ولا يعرف كيف يعبر لها عن حبه . إنما يترك ذلك للصديقات والأصدقاء . وكان من نصيبي أن أذهب لأعطيها له .

كان ذلك في الصباح الباكر . ولابد أنني تحدثت مع والدتها عن مزاياه وعن أخلاقه وعن صدقه . وأنهما حديثا كلية الآداب . وإستأذنت الأم ، لتجيء إليها زميلتنا الحسناء . ولم أجد سببا لأن أعود على مسامعها ما قلته لأمها فهي تعرف .

وغابت الزميلة وجاءت الأم بالشاي والكيك . وقالت لي : ان موافقة على أنك .. تتزوجها !

ووقف الشاي في حلقي .. ونظرت إليها أستوضح . فأعادت ما قالته واندهشت وقلت لها : وهل هذا رأيها أيضا ؟

قالت : طبعا !

قلت : ولكنها تحبه !

قالت : هو الذي يحبها .

قلت : بل هي أيضا . أنا على يقين من ذلك . إنها اعترفت بذلك .

قالت : أعرف . ولكنها غيرت رأيها ؟

- كيف ؟ متى ؟ لماذا ؟ ولكنه أحس معي كثيرا جدا ، إنه غني . وهو يحبها . وهذا المهم . وهي أيضا تحبه وهو الأهم . والإثنان متحابان وهذه هي البداية !

- كما قلت لك . إنه هو الذي يقول أنها تحبه . ولكنها لم تقل ذلك قط .. صدقني !

ولا أدري كيف انتهى هذا الحوار ولا ماذا قلت .. وصافحتها بصمت داخل . وخرجت .

وقلت لصاحبي عندما قابلته : إنها كاذبة .. إنها محطوبة لشاب آخر ، من حربها . وهي كاذبة . وأنها أكذب .. يا أختي ألم تجد غير هذه الفتاة ؟

- ماذا تقصد ؟

- أقصد كل الذي قالته لك . وأن كل الصديقات والأصدقاء قد كذبوا عليك . فلا هي تحبك . ولا هي تريد الزواج منك .

- وما قالته على مسمع من فلان وفلان .. وخطاباتها التي تقول : أن الحياة سعيدة : إثنين أنا وأنت .. والدنيا إثنان : أنا أولها وهي آخرها .. كل هذا ما معناه ؟ لم أصريها على يدها لتقول كل ذلك وبخطها وبإمضائها ..

- في الرسالة !

- أية رسالة ؟

- هي وأنت والخطابات !

• • •

إنها زميلة متوسطة القامة نحيفة سمراء .. بقية السمات الأخرى لا تهم .. لأني لست مهتما إلا بوجودها معي . أو بأن هناك مسافة أمامي تشغلها هذه الزميلة . مثقفة ؟ نعم . تقرأ ؟ نعم . تحب بي كطالب مجتهد ؟ نعم . من الذي تحدث عن الحب . هي ؟ لا .. أنا ؟ نعم . أنا الذي قلت أن الذي بيننا حب . وبيننا علاقة قوية . ضرورية . وأنها أدخلت النضارة وألوان الزهور ولمعان النجوم في حياتي الراكدة .. وأنها تعوضني عن أيام باردة وليال قلقة . وأنني أجد الراحة إلى جوارها ..

ولكني أكتشفت مع الأسف أنها لم تقل ذلك . وإنما أنا الذي طلبت إليها أن تقول ، فقالت . إنها لم تبادر بأي تعبير عن الذي بيننا . وإنما أنا طلبت إليها أن تقول ، فقالت . وأن تفعل فافعلت .

وأحسست أنها لم تكذب في شيء لأنها لم تقل شيئا .

وأنني مثل ملحن وهي مطربة .. وأنا الذي لقنتها اللحن . وكلما وجدتها

تؤدى اللحن كما علمته لها ، أسعدنى ذلك . فاللحن من عندى ، والأداء من عندها ، وسعادتى أنها حفظت اللحن وأنها تنطقه ورائى ، تماما كما أنطقه أنا ..

أو أنها ممثلة وأنا المخرج وأنا الذى لقنتها الحركة المسرحية والأداء : الجد والهزل والضحك والبكاء . وأسعدنى ، مثل أى مخرج ، أن يتطابق أداؤها مع تعليماتى فهى إذن مطربة مطيعة وممثلة ملتزمة .

أما غلطتى فهى أننى نسيت أننى أنا الذى طلبت . أمرت .. أننى أنا رسمت الأداء . والحركة المسرحية !

فلا هى أحبت ، ولا هى قالت ذلك ، وإنما أنا الذى توهمت . إنها غلطتى إذن .. إنها وهمى ..

قلت : هل تعرفين أننى إزددت إحتراما لك .

قالت : لماذا !

قلت : لم تكذبى فى شىء . لم تصارحينى بشعورك نحوى . وإنما أنت رددت بالضبط ما كنت أقوله لك .. طلبت أن تقولى أنك تحبيننى فقلت . وأعجبنى صدقك . ونسيت أن صوتك هذا من تلحينى من إخراجى .. من صنعى .. كما أن حبك لى هو من صميم وهمى .. واكتشفت أننى موهوم مرة أخرى .. فقد أحببتك أيضا عندما وجدت هذا الحب العار العميق الذى صارحتنى به . فكأننى كنت أتكلم بصوتك ، ثم أرد عليك بصوتى .. فأنا أرد على نفسى . إننى أصاعف وهمى بتصديق وهمك ..

- ولكنى أحببتك ..

- بصراحة لا أظن أنك الحب الذى أحتاج إليه .. فهو كائن غريب يولد فى ظروف أكثر غرابة .. بالله عليك كيف يكون حب بين أناس حفاة عراة جياع خائفين مثلنا .. إن الذين يحبونه هو الرغيف والفرش والشهادة . ويخطئون فى قراءة هذه الأسماء ويظنون أنه الحب الغلطى .. أو هو المرأة هو الذى يتقمصها .. إن المرأة لا تحل لنا مشكلة .. بل هى مشكلة .. هى عبء .. كما أن الموت يواجهه الإنسان وحده .. فكذلك النجاح والفشل : قدر شخصى .. وإلا ما الذى يمكنك عمله لكى أنجح .. وما الذى يمكنك فعله إذا رسبت ؟ ..

لا شيء .. ولا أنت ولا أحد يستطيع عمل شيء إذن أنا لم أحبك وإنما أحببت نفسي . أحببت أن أجد نفسي قد تكرر . قد زاد واحدا . أنا الملحن وأنت المطربة .. إن صوتك هو صوت أصيف إلى صوتي . أنا المخرج وأنت الممثلة . فحركاتك وإيماءاتك وصوتك وضحكك وبكاؤك . هو صدى لعذاباتي كمخرج .. فليس هذا الحب الذي توهمته إلا حبا لنفسي .. حبي لنفسي .. حتى هذا الحب . ليس حقيقي .. إنه وهم .. إنه الصوت والصدى .. إنه الصوت والصدى .. إنه جهل قد أضيف إلى جهلك أنت أيضا . وأي مستقبل ينتظرنا نحن الإثنين . إن الزواج ليس مؤهلا علميا ولا اجتماعيا . إنني بك ومعك لا أستطيع أن أخرق الأرض وأبلغ الجبال طولا .

- يعني هذا ؟

- يعني أن كل الذي قلت لك هو إغلاق لكتاب ملىء بالهذيان .

- يعني هذا ؟

- لا أن ضروري لك .. ولا أنت .. وأنا لست ضروريا لأي أحد .

- أنت خدعتني إذن ؟

- بل خدعت نفسي .. أنا لم أقل لك شيئا إلا لكي أسمعه منك .. دون أن أسأل عن مدى تصديقك لما أقول .. لقد كانت علاقة ، هية ، ويجب أن تنتهي كما ينتهي دور الملحن والمخرج عند ظهور المطرب والممثل على المسرح . وصعدت على المسرح وجلست أنا في مقعده الوحيد .. أنت غنيت وأنا سمعت ، أنت مثلت وأنا أعجبت .. إنتهى الدور . الستار يجب أن ينزل و الأضواء يجب أن تنطفىء . فقد تعانق نجاحي وفشلي في شخص واحد في لحظة واحدة . وأنا لن أصعق لك بيد على يد .. وإنما أصعق لك بيد على خدي .. ألطم .. بيد تصفق وحد يتلقى اللطمات . وإذا نزلت من عيني دمعة ، فهي دودة أسحقها بحذائي . إنتهى كل شيء أيتها الزميلة .. لقد كنت عبيطا .. أو كنت مغرورا .. وقد جعلتني الغرور حيوانا له أذنان طويلتان .. ولكنه لم يعرف إلا عندما نظر إلى نفسه في المرآة .. وقد كنت المرآة !

• • •

ووجدتني عدوا للمرأة .. ووجدتني أمسك سلاحا سريا أحاول أن أملأه بالفرح والضيق والاحتقار للمرأة .. أما الحيرة التي وضعتها في السلاح فقد استخرجتها من مناقشة الفيلسوف الألماني شوبنهور .. الذي رأى أن المرأة ليست من فصيلة الرجل .. إنها مختلفة عنه تماما . وإنما هي من فصيلة إستولت فيها النساء على الرجال .. وقصت على الرجال ووجدت ذكر الإنسان أقرب شبها بالذكور التي قصت عليها . فكانت هذه العلاقة الشاذة بين الرجل والمرأة ..

والمرأة حيوان معقد شديد الحساسية ، شديد القلق ، ليس لديه شعور بالأمان ..

ولأن المرأة اعتادت على أن تنتظر في بيتها حتى يدق الرجل بابها ، فإن إنتظارها عادة .. غريزة .. ولكنها في هذا الانتظار تتربص بالرجل وتتآمر عليه ..

ويرى شوبنهور أن المرأة حيوان بلد فقط . فهي مكلفة من الطبيعة باستمرار الحياة . فهي أم أولا .. وأي شيء آخر بعد ذلك .. فهي أم أولا وزوجة ثانيا وأخت ثالثا . وهي من أجل أن تكون أما ، مستعدة أن تأكل الزوج والإخوة .. العقارب والعناكب تفعل ذلك . فهذه العشرات بعد الإخصاب تأكل ذكورها ، لتعيش بما فيها من مواد ضرورية لتغذية الصغار .. والمرأة هي هذا العقرب !

والمرأة كما يقول شوبنهور طويلة الشعر طويلة اللسان ضيقة الكتفين ضيقة الأفق .

المرأة إذا ساويتها بك ، تسلطت عليك !
لا توجد امرأة موسيقارة ، وإن تكون !
السؤال الذي لم يلق إجابة حتى الآن ، إن كانت المرأة إنسانا !
لم أجد كتابا احتقر المرأة مثل الكتاب المقدس !
لم أعرف للمرأة صديقا ، أكثر أعدائها بنات جنسها !
المرأة حيوان ، ولكنها ليست من الحيوانات الراقية !
المرأة فاضلة ، لأنها لم تجد فرصة أخرى لتكون شريرة !

الرجل يعار لأن له كرامة ، المرأة تعار لأنها بلا كرامة !
جمال المرأة وفضائلها كلها من صنع الرجل !

وعشرات من العبارات حفظتها للشعراء الكافرين بالمرأة .. أو المحتقرين شأنها .. وكنت أضع بعض هذه العبارات في مقدمة كراريس المحاضرات التي سبدلها وتتناوبها الزميلات ووجدتني في المعسكر الذي يعادي المرأة . مع ن تجربتي مع المرأة قليلة أو لم تكن عندي تجربة صدمتني سيما .. فلا أنا حببت . ولا كنت حريصا على هذا الشعور . وإنما توهمت أنني كذلك . فلا المرأة ولا أية علاقة بها . كان مما يشغلني .. وكلما راودتني فكرة عنها ، طردتها ..

ولا أعرف كيف هوجمت بأفكار كثيرة عن المرأة في وقت واحد .
ولا كيف انتصبت عيني عليها ..
ولا كيف بشعلت بها أو إبعادها عن رأسي .. ولا كيف كنت أنظر إليها في وجهها وأتفحص ملامحها ولا كيف أستدرج الزملاء ليحدثوني عنها .. عن مغاريهم الناجحة والفاشلة ..

ولكن يحدث عادة عندما يضعف الإنسان أن تطارده الأفكار التي طردها .. و تتغلب عليه الأفكار التي تغلب هو عليها ..

يقول شوبنهور : إنها مثل ثعبان وضعنا أصبعنا على رأسه .. فلما نصبت فتحت الثعبان حول سبقاتنا وأعناقنا . إنتقاما منا !

صادفت إحدى الزميلات . كانت لها سيارة صغيرة . إستوقفتني أشارت ن أركب إلى جوارها . بهرتني هي وحيويتها وشبابها وعطرها ولمعان سيارتها .. أو سيارتها . قلت : تعال اشرب فنجانا من القهوة في مكتبي .

إنها موظفة في وزارة الخارجية . ما علاقة الخارجية بالطبيعة ؟ كيف استطاعت أن تجد هذا العمل بهذه السرعة . وما الذي تفعله هناك .. بالسيارة .. والذي في أصابعها وأذنيها وعنقها .. وسألتني إن كنت أدخن . فاندهشت جدا . كيف أدخن ؟ وأدهشني أكثر أنها تدخن . وسألتني إن كان يضايقني أن تدخن . ولم أكن قد سمعت قبل هذا النوع من الأسئلة . ولم أجد ما أقوله . ولم تدخن . وسألتني : وما الذي تفعله ؟

وانتقلت عيني إلى حذائي الذي اذابه السير ذهابا وإياب من الجامعه إلى إنابة .. وعاودتني الرغبة أن أهرش بين أصابعي وأهرش رأسي . ثم لا أقول شيئا . وعادت تقول : أنت تعرف لولا عمي ما وجدت عملا بهذه السرعه !

ولم أكن أعرف عمها بل إنني سمعت إسمها بالكامل كل ما أعرفه هو أن إسمها : سعديه .. شقراء ذهبيه الشعر عسلية العينين كلها حيوية وشباب ورواء . إذا ضحكت فكل جسمها يهتز .. وإذا لم تضحك ، وأن لم أرها إلا ضاحكة . أي إذا لم تضحك كثيرا ، فجسمها يهتز أيضا . كأنها قد خلقت لذلك .. أو كأنها تضحك بالبداية عن أمثالي من أبناء الهم والغم والكرب العظيم والبلاء الأعظم !

وفجأة أشارت إلى يدها اليسرى وقالت : الآن تحررت . !

أي كانت متزوجة ثم انفصلت عن زوجها . قالت . عندما نجلس سويا سوف أحكي لك قصة فشل كانت تؤدي إلى سقوطي في الامتحان ، لولا أن الله سبحانه وتعالى أنزلني برحمته .. أنت تعرف مصطفى زميلنا .. مصطفى : أطهر المحبين - كما كنت تسميه أنت !

مصطفى - هو الذي ذهبت أخطب له إحدى الزميلات .. مصطفى هذا هو الذي همس في أذنها بأن الشاب الذي أحبته وتزوجته كان يعرف فتاة أخرى وأنه رآهما في الحديقة اليابانية في حلوان . فذهبت ورأت ذلك بعينيها فكان الطلاق بعد زواج شهرين .

وبدون تفكير مني قلت لها : وإنت كنت على صلة بواحد غيره !

وإزداد وجهها إحمرارا وإرتجفت وظهرت قطرات العرق على وجهها . ونهضت من مقعدها تقول : من قال لك ؟! إنها كانت صداقة بريئة .. كأنك كنت تعرف منذ البداية .. إنه صديقك إنه كلب إبن كلب .. لا أسامحه .. لقد أقسم على المصحف أن تظل هذه العلاقة سرا بيننا لأنها علاقة شريفة .. كنت أحكي وأستمع إلى نصيحته .. ولولاه ما كان هذا الطلاق الهادىء . ثم إنه ، كما تعلم ، مخطوب لزميلة في كلية الحقوق إبنة عمه وسوف يتزوجها في العيد .. وأنا مدعوة لهذا الفرح .. هو دعاني وهي دعتني . هذا كل ما هنالك ..

وأنا لم أكن أعرف هذه العلاقة ولكن أفكاري السوداء التي ترسبت قوية في أعماقي جعلتني أتهمها بالخيانة دون أن أدري . فإذا بها تعترف بما لم أكن أعرف . وازددت يقينا من أفكاري ، وأنني على الطريق الصحيح الذي رسمه أستاذنا العظيم شوبنهور خارج عالم المرأة أو الثقة فيها .. كلية .. حقيرة . !

صدق الأستاذ العقاد في إحدى قصائده : حبها ولا تخلص لها أبدا .. إلخ .

وكنت أكتب هذه العبارة باللغة الألمانية وأحيانا باليونانية وأحيانا باللاتينية وأحيانا بالعبرية ، حتى لا يفهمها أحد .. وحتى لا يبعد عن عيني أيضا .

وفي يوم عدت إلى البيت مبكرا ..

بدي أعرف مقدما كل ما سوف أسمع وأرى .. لا أكاد أفتح الباب حتى يندفع كلب ويتعلق بملابسي ولا يبتعد عني قبل أن يلعق أصابعي وحتى أعطيه ما أتيت به من طعام .. وبعد ذلك أتجه إلى الغرفة التي يتعدد فيها والدي ووالدتي .. ويتظاهر أحدهما بالنوم حتى لا أسأله عن حاله . وإن كانت قد تحسنت صحته .. وأنا أعرف أنه لا تحسن ، ولا مجيب لذلك .. ولكنه أو تكبه ، إشفاقا علي ، لا يريدان أن يجيبا ولكن لابد أن أسأل .. وإن كان أحدهما في حاجة إلى أي شيء .. طعام .. شراب . فأذهب إلى دورة المياه .. فأتبول .. ثم أدخل غرفتي وأحاول أن أشعر أنني في البيت .. أخلع حذائي ، ومعه أفكاري السوداء وهمومي الثقيلة .. وأنظر إلى الراديو الذي لم أفتحه من سنوات .. وإلى الكتب التي تحركت عن مواقعها بما يدل على أن والدتي قد حلت هذه الغرفة وحاولت ترتيبها ، بما بقي لديها من قوة .. ومن وراء النافذة أجد بيت الجيران صبية سمراء تتطرفني .. وأقول في نفسي . جاءتك حبيبة .. لعلك تطمئن أنني شيء أو من الممكن أن أكون شيئا مستعجلة على الزواج .. معي ؟ مني ؟ ألا ترين ؟ ألا تسمعين ؟ ألا تلاحظين ؟

ويتعالى صوتها تقول أي شيء .. فقط تريد أن تجعلني أشعر بوجودها .. لم يكون لها كلام رمزي مع إخوتها . مثلا : وحشتني يا واد .. والنبي وحشتني أشوفك بس .. دقيقة .. كلمني .. يا عيني عليها وعلى بحبها .. هاليوم لم يعلموها .. يعني اللي تعلموا خدوا إيه .. أحسن ؟ .. أحلى ؟ أجمل ؟ أكثر إخلاصا ؟ ومين أجيب لي بخت ؟ الصبر طيب !

وأحيانا أفتح النافذة فأجدها .. في غاية الحيوية .. واللمعان .. الوجه والعينان والأسنان . وأضواء في كل مكان من وجهها وعنقها .. فكيف تتدفق منها هذه الأضواء .. أين ينابيعها .. كل هذه الأضواء لمجرد أنني نظرت .. تعلما كما نصاء عيلا جميلة لاستقبال عرسان .. يا سلام .. أليهذه الدرجة أنا مهم عندها . أو لهذه الدرجة الحب مهم .. الزواج مهم . الرجل مهم .. ولهذه الدرجة الحب أعمى .. والرغبة في الزواج عمياء . أبوها كمساري .. إخوتها كلهم في المدرسة وهي التي تطبخ وتكنس وتغسل .. هي بيامو البيت . ويقولون عنها رجل البيت ..

وعادة تجيء أصوات أخرى من فوق السطوح المجاور : يا بت اهدي .. اسكتي .. سيبي الجدع في حاله .. العين ما تعلاش على الحاجب .. أنت فين وهو فين .. كان غيرك أشطر ..

كلام أحيانا أتابعه وأحيانا أفكر فيه .. وأحيانا لا أسمعه مهما طال وارتفع .

كل ذلك أتوقع أن أراه وأن أسمعه كل يوم .. وهي حياة . أو إنعدام حياة . عملة .. ربيبة .. ليس فيها حوادث . فالدنيا ماتت عند باب بيتنا .. الشارع مجرى مائي منخفض الأمواج والأصوات والروائح .. ولكن عند بيتنا وأمامه وفي داخله توقفت الحياة .. أو ركعت أو جمدت .. أو تلاشت .. وقد اعتدت على ذلك كما اعتادت الضفادع على مياه البرك ، والوطاويط على الأركان المظلمة ، والعفاريت على الخرائب ..

إلا في تلك الليلة .. وجدت الغرفة التي على الشارع مضاءة .. إذن عندنا ضيوف . أو طبيب .. واقتربت من النافذة لكي أرى من في داخل الغرفة فلم أجد أحدا . ولكني شممت رائحة الشاي ، إذا هناك من يصنع شايا لأحد .. وبسرعة فتحت الباب . لم أجد الكلب . لم أسأل اتجهت بسرعة إلى غرفة والدي الغرفة مظلمة : مساء الخير .. لم أسمع ردا .. إقتربت من السرير . ومددت يدي على صدر والدي .. نائمة .. ومددت يدي على صدر والدي .. نائم . الحمد لله .. ذهبت إلى غرفتي .. وجدتها مضيئة . إنها إحدى حالاتي .. أعجب الحالات .. أهلا يا حالتي .. حمد لله على سلامتك .. بورب

مصر .. ثورت الدنيا .. والله صحيح .. ثورت كل شيء في الدنيا ..

إختلفت مع زوجها . وتم الطلاق بسرعة ..

إنني أحتاج إلى ألف ذراع لكي أصبح رأسي عليها .. فرأسي قد ثقلت فجأة . ولم أعد قادرا على حملها . جلست وأسندت رأسي للحائط .. وكان التراب ينزل قليلا من السقف . واستسلمت لهذا الشعور : ولماذا لا يسقط السقف وينقضي أنا وحالتي تعنه .. ما الذي بقي في هذه الدنيا من قيم .. هذه الطيبة الجميلة البريئة الرقيقة الحنون تعجز عن الحياة مع رجل . يرفضها رجل . وإذ كانت كل هذه القيم لا تجد لها مكانا في الدنيا ، فما الدنيا ؟

- قولي لي يا حالتي ماذا حدث ؟ قولي لي فأنا مستعد أن أسمعك حتى الصباح ، وأن أروي لك ما سمعت كثيرا وطويلا وفجأة هذه الشهور الأخيرة .. من التي حدثك معها . واحدة من بنات البندر .. بنت العمدة لأنه يريد أن يكون عمدة .. بنت أخت الباشا ، لأن والدته تعبد هذا الباشا ..

- لاشيء من كل ذلك .. إنه يريد أن يكون له أولاد والله لم يرزقني بالأولاد عشر سنوات ..

وكلام كثير وحكايات ونوادر ودموع وضحكات وأغنيات . ولم تكن حالتي حزينة كانت تتوقع ذلك . ولكنه حيرها بين أن يبقى على ذمته ثم يتزوج غيرها وبين أن يطلقها . واختارت هي الطلاق . ثم إنها هي التي احتارت له العروس .. وسوف يجيء لزيارتها غدا ..

وكان ذلك أكبر من عقلي . . فلم أستطع أن أستوعب كل الذي سمعت . . وكنت أكتفي بأن أرى حالتي وهي تحكي لي كل ذلك . . كأنها تحكي قصة واحدة غيرها . . ملخص فيلم سينمائي . . وحاولت أن أجد في ملامحها لونا واحدا يدل على حزنها أو أسفها أو ضيقها بالدنيا أو كفرها بالإنسان . لم أجد . كيف ؟

- قولي لي يا حالتي أنت حزينة ؟

- أنا ؟ أبدا . . بعد وفاة حالتك . . لم أعد أحزن على شيء . . لقد كان جمالا وصحة ومرحا وحبا للدنيا ومات صغيرا .

- وأنت تريدين أن تموتي صغيرة ؟

- نعم . . لأن الأحزان تطيل العمر . . أمي . . جدتك . كما تتصور انها بعد وفاة إبنها الكبير ستموت بعد لحظات - وهي الان قد عاشت بعده وقد لونته ملابسها . . وهي شديدة الحزن عليه . . ولكنها عاشت . . و . .

وكادت تشير إلى مرسى والدي ووالدتي ، وبسرعة تداركت هذه الإشارة المؤلمة . . ولكنها قالت ببكاء ورقة وجمال وحنان : أفضل أن أموت كما ترانى ، على أن أعيش كما ترى أرملة خالك .

- أنت تقولين كلاما غريبا ياخالتي . .

- كلام على قدى . . تعلمت هذا الكلام من الدنيا . لا كتب . ولا جامعة . .

- والله أنت لا تعرفين ما الذى تعلمنا من الكتاب ومن الجامعه . لا شيء . . والله العظيم لا شيء . . تعلمنا أن نصنع أسماء للمشاعر فقط . . بالضبط كالذى يكتب شهادة ميلاد كل طفل يولد . . فقط يكتب إسمه وتاريخ ميلاده . . فلا هو أب ولا هو أم . . وأنا فقط بسجل أسماء المواليد وأسماء الوفيات . هذا كل الذى تعلمناه في الجامعة . . فالذى أسمعه منك أختار له هذه العناوين ' إرادة . . عربية . . شخصية . . حب للحياة . . واقعية . . بدلة . . غدر . . وتمضى السنوات ونحن نناقش معانى هذه الكلمات . . نحن كالرجل التركي الذى تتحدث عنه النكته المشهورة . لما أحيل إلى المعاش أنى بعدد من القلل وملأها بالماء ليشرب منها إذا ترك هذه مجانا .. فكان يقول : حد هده .. ليشرب منها الناس اشرب من هذه القلة .. من تلك القلة .. فلا هو الذى صنع القلة ، ولا هو الذى ملأها بالماء .. ثم إنه ليس رجلا رحيما عطوفا على الدنيا .. وإنما هو خلق لنفسه ، مناسبة ، لكي يأمر وينهى كما كان يفعل من قبل !

وبذكاء عجيب فاجأنى بهذا السؤال : كذلك لن تتزوج !

- أتزوج ؟!

- طبعا إذا كانت هذه أفكارك وهذا رأيك في نفسك وفي الدنيا . فلا معنى للحياة .. ولا أمل فيها .. أنا أعذرك تماما . ولكن عندى حل وكل شيء له

معى . اذ كنت تريد أن تتزوج واحده مثلك .. فمعنى ذلك أنك تفضل العلم على الجمال وعلى الطوس ...

ولكن أنا عندى حل أسمعه من هنا وألقى به من هنا .. عقلى يقول لى . إن حسن واحدة لك هى فتاه متوسطة التعليم وغبية . أنت تعلمها بمرور الوقت .. وفلوسها سوف توفر عليك النفقات .. كل فلوسها هذه ثمن تعليمك لها وعندى و جنه بهذه المواصفات .. وإذا قلت لى الآن . انك موافق .. فإننى أزوجك لها يوم الخميس القادم .. قلت إيه ؟! وهى تملك بيتا فى القاهرة .. وبحوائها الثلاثه فى الجامعه .. ولكنها اصغرهم جميعا وأحبهم لأبويها وهى تشعر لك بتقدير خاص .. ووالدتك تعلم من سنوات .. وأنا فاتحها فى ذلك .. ولكن نصحتنى أمك ألا أكلمك فى شىء من ذلك .. والآن وقد خرجت ونجحت ما رأيك ؟

طه حسين مسح بنا
الأرض .. والسماء أيضا

طه حسين سحر بنا الأرض.. والسماء أيضاً

جاء الدكتور فؤاد حسنين أستاذ اللغات الشرقية . وكان يجلس على المكتب أمام مكتبه الجامعة . وكان يمشي بسرعة ويتطوح يميناً وشمالاً فقال بلهجته الصعيدية : تجدروا تحابلوه بعد ساعة ؟

ثم قال : لا تتكلموا في موضوعات دقيقة . هو على كل حال رجل صبور . . ولكن لا تستغلوا صبره في استعراض سخافات العيال الصغار . عارفين أين تجدوه . في مكتبه . . سوف يكون وحده . . وأنتم زوّارنكم . . يمكن أن تحدثوا اليه عشر دجاج وعشر عشر ساعات . . سلام عليكم . .

وتركنا وعاد يمشي بسرعة يتطوح . وكنا سعداء بنجاحنا في أن يحدد لنا موعداً مع الدكتور طه حسين . . أعظم شخصية في عالم الأدب والتربية والفكر . . إنه شخصية اسطورية . . لم نقرأ له كثيراً .

سمعنا إلى بعض محاضراته . . ولكنه طه حسين . . يكفي أن نقول : طه حسين . . لتتجه إليك العيون والآذان . طه حسين . ولا يمكن لأحد أن ينطق هذا الاسم بخفة . . وإنما يملؤه الفم والابتهاج وعظيم الاحترام . . طه حسين . .

واحتشد ما الذي نقوله له . . هل نشكو ؟ ليس عندنا ما نشكو منه . هل نحاوره . ولا عندنا ما نحاوره فيه . هل نسمعه . . ولكن لكي نسمعه فما الذي نقوله له . . هل نفعل فصة . . لم تتفق . . وجدناه في انتظارنا . .

السعي واقف على الباب . . وبسرعة جاء السكرتير . . ونظر إلينا . . وقال : انتم خمسة . . عندكم شكوى ؟

ـ لا

ـ هل تطلبون شيئاً معيناً من الأستاذ الدكتور ؟

- لا

- إذن

- لا شيء فقط أن تتحدث إليه . .

- في أي موضوع ؟

- في أي موضوع !

وفتح لنا الباب قائلا : الطلبة يا سعادة الباشا .

ظل طه حسين جالسا في مقعده وقد تراجع قليلا إلى الوراء . . ثم عاد فأحنى رأسه وظهرت ابتسامة خفيفة . وعندما سكنت حركة المقاعد ، رفع رأسه مبتسما هادئا ثم قال بصوته العالي الموسيقي : هه . . ومن أنتم ؟ أنت إلى أقصى اليمين ؟

- أنا أنيس منصور . . طالب بقسم الفلسفة

- لا بد أنك اخترتها عن حب .

- ليس بعد .

- صدقت . في هذه المرحلة المبكرة من الصعب ان تحب أحدا . . ليس من الضروري أن تحب أحدا الآن . . فالذي تقرؤه هو معلومات عن الفيلسوف دون أن تسمع صوت الفيلسوف . وأنت قرأت عن فيلسوف فرنسا ديكارت طبعا ؟

- نعم

- وهل وجدت فيه شيئا أراحك . إنه البداية الحقيقية للفلسفة الحديثة . . لأن الرجل لم يدع شيئا لم يشك فيه ، ولم يدع شيئا دون أن يؤكده ويصنع له قاعدة من اليقين . فالشك هو البداية واليقين هو النهاية : في الدين والعلوم والفلسفة . . وهو الذي أعلى كرامة العقل الإنساني . . فاتحد له شعارا هو أنا أفكر إذن أنا موجود . . فالفكر عند الانسان يعادل وجوده تماما . . وليس القوة ولا العصبية ولا الدين ولا المال ولا الجمال . وإنما يكون الإنسان مفكرا ، معنى ذلك أنه إنسان . . وهل تقرأ ذلك بالعربية فقط .

- وبالفرنسية والإنجليزية والإلمانية .

- وأين تعلمت ؟

- في المنصورة .

- إذن أنت تعرف الشاعر فلان .

- لا

- ولا الشاعر فلان

- لا

ولا الباحث الإسلامي فلان . . إنهم من أبناء الدقهلية .

- لا . .

- فكأنك لم تقرأ المتنبي وأبا العلاء

- لا

- لابد أن تقرأ هؤلاء وأن تقرأ عنهم . وأن تنتقل إلى قراءة الأدباء مثل ابن قتيبة وابن خلدون وعبد الحميد وابن العميد وأبي حيان التوحيدي .

- حاضر

- ماذا تريد أن تكون في مستقبلك ؟

- أريد أن أكون كاتبا . .

- إذن لا بد أن تحفظ لهم . والذي تحفظه لا بد أن تدرسه وتحلله بعد ذلك . . ولا تكتب سطرا واحدا . إجعل الكتابة آخر نشاط لك . . إقرأ واحفظ وافهم . .

- إنني أحفظ القرآن الكريم

- هذا شيء هام جدا . . وهذا إنجاز عظيم . بقي أن تفهم القرآن أيضا . والذي فعلته مع القرآن الكريم يجب أن تفعله مع الشعراء والأدباء والفلاسفة . . إحفظ ثم افهم وادرس واكتب بعد ذلك . . ولمن تقرأ من الأدباء المعاصرين . .

- لم أقرأ كثيرا . . لقد اكتشفت أخيرا أن الكتب الجامعية قد استعرقتني وشغلتني عن القراءة الحرة .

- بل كل قراءة حرة . . بل أنت حر في قراءة أي شيء . . وكل ما تقرأ ستجد قد احترته بكامل حريتك . . حتى الكتب الجامعية ، ليست كتبا إلزامية . فلا أحد في الجامعة يلزمك بكتاب ، وإنما هو يلزمك بموضوع . . بقضية . . وأنت حر في قراءة ما يساعدك على فهمها . . فكل قراءة حرة ، كما أن كل كتابة حرة . .

. هل هوايات للعظماء ؟

. لا

[illegible] لجاحظ الكاتب العالم المؤرخ المطلع .

لا

. لابد أن تقرأ وتتأمل وتحفظ وتقارن وتسمع

[illegible] حيوية وشبابا وفورا

[illegible]

. أنا في كلية الحقوق

. تريد أن تكون محاميا أو قاضيا

أريد أن أشتغل بالسياسة .

[illegible] للوزراء ثم معاملا للحكومة في البرلمان ثم مفكرا سياسيا وكاتبا فصيحا [illegible] التعبير ، الهدف الوزارة ، تكون في علاقتك بالناس [illegible] (صحيحة في رقي) ، في قمة ، على رأس [illegible] والشيوخ . . إنهم جميعا سواء . . وهل أبوك غني ؟

. لا

. إذن تريد أن تكون غنيا

. وهل هو موظف ؟

نعم . . هو وزير . .

آه . . إذن لا تزعجني عن المطمئنة التي في حجرة والدك ، وتريد أن تصعد إليها لتجلس على الكرسي الوثير ، وتأكل أكثر طعام في [illegible] ، تعلم أن السعادة في البرلمان ، عندما تصيح ، اسكت في السفسطة

يد الطل) هشام من افتتاحه الغير . وتنغص طوال اليوم . وروى أن شاعر اخر ذهب يمتدح في يوم عيد فقال :

لا تقل بشرى ولكن بشريان

غرة الداعي ويوم المهرجان . .

فغر من قوله : لا تقل بشرى . . وتطير وتشاءم . وأمر بضربه خمسين جلدة . . وأبو نواس الشاعر الكبير قد وقع أيضا في هذه الغلطة العظيمة فقد أنشد الفضل بن يحيى البرمكي قصيدة مطلعها :

أربع البلى إن الهشوع لبادى

عليك ، وإني لم أخنك ودادى

فتشاءم الفضل من هذا الابتداء . فلما انتهى أبو نواس إلى قوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم

بني برمك من رائحين وغادى

زاد تشاؤم الفضل بيت يحيى البرمكي . ولم يمض أسبوع حتى وقعت مأساة البرامكة وتم القضاء عليهم !

ويقال إن الخليفة المعتصم عندما فرغ من بناء قصره جلس فيه وجمع أهله وأصحابه وأمرهم أن يخرجوا في زينتهم . فما رأى الناس أجمل من ذلك اليوم . فاستأذنه إسحاق بن ابراهيم الموصلي . المطرب المعروف وأنشده شعرا جميلا إلا أنه استفتحه بذكر الديار وخرابها وقال :

يا دار غيرك البلى ومحاك

يا ليت شعري ما الذي أبكاك

فتشاءم المعتصم وتغامز الناس على الموصلي كيف وقع في هذه الغلطة مع عمه بالخليفة وطول عشرته له وخرجوا من هذا القصر ولم يعد له أحد بعد ذلك . فقد خرب تماما ..

ولأبي نواس قصيدة مشتركة الابتداء قالها في مدح الخليفة الأمين قال ابو نواس :

يا دار ما فعلت بك الأيام

لم يبق فيك لذاذة لنمام !

ومضى طه حسين يقول :

هل عليك يا سيدي أن تبدأ شعرك في سنك بالحب ... وإنما كتب هذه
به سبحان على السعداء عند البدو الذين يعتقدون إلى شعره الذي يجعل الرعي
صالحة للزراعة ... هذا ... هذا

وسكت طه حسين ثم قال ... والتفت إلى حواريه من أنت يا سيدي ؟

- طالب في كلية الهندسة

وعن المهندسين شعراء وموسيقيون وفلاسفة ... فأي واحد أنت منهم
- سيدي ؟

بل أنا من رجال الذين يا سيدي الأستاذ ... أنا من رجال الأزهر
عد تربيتنا تربية دينية ... ووجدت في نفسي ميلا شديدا لقراءة كتب عليها
... واسترعت إلى بعض ما وجدت ... ولكن وجدت في العلوم الهندسية متعة
أكبر ... ولكن لم أجد الهندسة ترضي الذين ... ولا وجدت الذين يرضي العلوم
الهندسية ... إن كل شيء حولي هندسة ... قواعد وأصول ونظريات ... وفي
الحب موسيقى نعم ... إنسجام ... ووجدت الجمال موسيقى ... ووجدت
الموسيقى شعرا ... ووجدت الشعر طربا ... وعكس الجمال ما فيه من
موسيقى ... ولذلك فقد وجدت أن عظمة الخلق والإبداع ليس فيما نرى فقط ...
وإنما فيما نرى ونتخيل فنا رأينا وما نسمع وما نتخيل فنا نسمعه ... ولست
في حاجة إلى أن أدور مع لأعرفك لأعرف حدود العظمة الكونية ... إن كانت
كلمة ... الحدود ... ليست من الكلمات اللائقة ... ولكن هذه معرفتي أن
المحدود

- ما أحسن ما تقول ... قل يا سيدي إني مستمع ... قل يا سيدي ...
- بل جئت لأسمع إليك يا أستاذ
- تريد أن تسمعني
- نعم يا أستاذ ...
- إسمع يا سيدي ... إن الذي تقول هو أجمل ما سمعت من شاب في
عمرين بعد ...

وأرى وأرجو أن تسمعني ... أن سمعتك أنت تسمعك أنا ورملائي ... قل
يا سيدي قل ...

- وأجلس مع الذي كثيرا ... ويسمعني الحياء أن عاشه ... نحن مختلفين
في الأسلوب ... هو يرتدي العمامة وأنا لا أرتديها ... هو يقول بالتسبيح

[illegible] ولكنه يختلف عن [illegible] وعصريته عربية ، وهذا يختلف عن عصرية [illegible] هو الذي نه مستقبل ، ولكن لا حد لي مستقبلا [illegible] ما شئت يقوله والذي الآن ، قوله وبذه ثم تغيير صفة سوء ويمكن أن يقال لأنف عام قيمة . فهو كلام قيمته حاضر ومستقبل [illegible] قوله فلا مستقبل له إنه يتغير من نظرية إلى نظرية ومن شخص إلى شخص . .

ولكن هذا هو المستقبل [illegible] منظورة مما كتب عليه [illegible] وعد منظورة منظورة [illegible] وتكل على [illegible] صفات متغير [illegible] وأنت تستطيع وأنت طفل صغير أن تقول [illegible] من هذه الصفات . وقد تكون غير واضح تماما ولكنها قادرة على أن تعرفه مهما كانت ملامحك . لأن ملامحك لا تتغير إلا في حدود ظهور شخصيته [illegible] خصوصيتها الجوهرية فكما هي .

ويلاحظ عيوده في دهشة من الكلام العميق الذي يقوله طه حسين ، كأنه [illegible] منظورا ، ثم قال طه حسين لا يقف على [illegible] في مرحلة بعينها كل الذي نراه وسمعه هو صورة موقفه نحن جميعا نقل السوق العربي إلى الشاطىء الآخر . . أو نأتي بالشاطىء الآخر إلى موقف العربي . . ولم يتحدد هذا السوق العام بعد . .

ثم سكت طه حسين ليسمع عيد بهذه الحكمة الدقيقة ، لكن عيد لم يحضره الكلام بعد فنحن لا نعرف إلا الذي نكرهه ونصدق به قلل صغيرا هو حديث لفن العرب ، وكثر بما هو كائن ، ولكنه لم يدقق بعد على الذي يحبه ما الذي يريده أن يبقى ما الذي نحرص على وجوده معنا ونحبه ونعاديه [illegible] حاضرنا قلق ، ومستقبله غامض ، ومصيره مجهول . . فماذا يا سيدي إذا كان هذا حالك ، فما أشبهكم معنا ومن بعدنا .

ثم سكت طه حسين وقال هل بقي أحد لم أسمعه ؟

- نعم . . أنا طالب في كلية الطب . .
- وتلك اهتمام بالأدب ؟
- نعم بالشعر والنثر ثم إني أدرس للموسيقى ولي فيها محاولات

واحداً في مثل حصانتك قال :

العموم والحظر والأعياد والعصر
منيرة بك هدى الشمس والعصر
ما الدهر عندك إلا روضة أنف
يا من شمائله في زهره زهر
ما ينتهي لك في أيامه كرم
ولا ينتهي لك في أعوامه عمر

على حظك من تكرارها شرف
وحظ غيرك منها : النوم والسهر

ودخل سكرتير طه حسين وهمس للمرة العاشرة في أذنه هيدا عليه لاسمياء . . وكان لا بد أن ينهض شاكرين . وشكرناه واعتذرنا عن أننا أضعنا وقته . . ولكن لم يستحسن هذا الاعتذار وقال . أنتم تعرفون أنني لم أضق بالحديث إليكم . . فعن أي شيء تعتذرون . . أحب أن أراكم متى وجدتم وقت لذلك !

★ ★ ★

إذن أنا لست على الطريق الصحيح فالذي قرأته ليس كثير . والذي حفظته ليس كثيرا أيضا . . والذي درسته وحللته واستعنته فيه ، في الفلسفة وفي الشعر والنثر والتاريخ . .

لقد فتح طه حسين ذراعي . وأطل في داخله بسرعة ، فلم يجد شيئا له قيمة . إذن هذا الذي درست وحفظت وحللت لا يؤهلني أن أكون كاتب . . فشروط الكتابة أن يكون الإنسان قارئا معظم الوقت ، كاتبا بعد ذلك . . ولكني اقرأ في الآداب الأوروبية أضعاف الذي عرفت في الأدب العربي . واجد متعة في ذلك بل أجد حرية كاملة في أن اختار وأن أتذوق . . وأجد الكتب متوافرة والأسلوب أيسر والحفاوة بالقارىء أكبر . . فقبل أن أقرأ لطه حسين ـ مثلا ـ قرأت لبلزاك وديكنز وجيته وشكسبير . . وقبل أن أقرأ مسرحيات أمير الشعراء ، قرأت لموفو كليس وموليير . ولكن قراءة معرفة ـ أي أتعرف بها على هؤلاء الأدباء العظماء . . ولكنها ليست قراءة تعمق . . فليس من السهل أن أفهم موفو كليس دون أن أفهم زمانه وأسلوب عصره وقصاياه وكذلك كل أدباء العلم . . فهم أشجار يانعة شاهقة في بيئة مختلفة . . لا بد أن اعرف البيئة ، لأفهم الشجرة ، ولا بد أن أعرف الشجرة لأتذوق الثمرة ، ولكي أتذوق الثمرة لابد أن أعرف كيف أتذوقها . . فالطعام السائل له ملعقة ، والطعام الجاف له شوكة وسكين . وهذا أتناوله في أول طعام وهذا في آخره . . وهذا نأكله نيئا وهذا نتناوله طازجا . . والتذوق هو استطعام . . وطعام أيضا !

كنت أحدث نفسي ونحن نسير معا على شاطىء النيل . . في صمت وكل واحد يدير في رأسه ما سمعه من طه حسين .

قال أحدهم : أرأيتم لقد مسح الرجل بما الأرض بمنتهى الأدب ن قال على أنني سياسي سوف أكون لهما . . انتزى السلطة بالقلوس ، و سيحكم سيطرة في جمع المال

. وأنا وصفني بأني قليل الذوق جلف . . فلاح ولا أفهم هذا الذي مت اختيار القصيدة التي كنت أريد إنشادها ثم إذا كان وصف العقد ، الراقصي والمغني بأنه اختيار سيء أي أن قراءه هؤلاء أمر يدل على سوء حضاري . بل هو أيضا قد أساء اختيار ألفاظه . . وكان من الواجب عليه ب يوجهني برفق . . فمن هواة أدب ولسنا محترفي أدب مثله !

. وأنا أعتقد أنه جاملني جدا . عندما قال أنه لم يسمع مثل كلامي بين عشرين عاما . لقد أسعدني ربما كان الذي أعطاه لي قد خصمه منكم ! . أم أنا فقد أعطاني كل ما عنده وزيادة . . ربما يكون قد خصمه من مبات الطلبة الذين سوف يلقونه اليوم وغدا . . بل إنه استعار من شعر المتنبي أبياتا يحييني بها . . وإذا كان قد مسح بكم الأرض ، فإنه قد مسح بي السماء !

وكانت مفاجأة لنا جميعا عندما التقينا صباح السبت لنعرف أن واحدا من لم يذهب لصالون الأستاذ العقاد . كأننا اكتفينا بما قاله طه حسين . فالذي قاله له جميعا كثير . والذي قاله لكل واحد منا كثير جدا ولا بد أن نفكر في الذي قال . . وأن نتدبر أمرنا ، ونعرف وسيلتنا وطريقنا إلى مستقبلنا . وليس لحس من طه حسين قدوة وأسلوبا وغاية . . ولا أرق منه حديثا ولا أعمق منه حداد وأبوة . .

وكانت مفاجأة أخرى عندما لاحظنا أننا ، دون اتفاق بيننا ، لم نذهب إلى صالون العقاد مرة ثانية !

عجزت عن حب هذا الرجل الرافعي

عجزت عن حب هذا الرجل .. الرافعي !!

أعظم علماء اللغة العربية والبلاغة هو مصطفى صادق الرافعي . فالمعجزات التي جاءت في كتبه لا حدود لها . والتراكيب التي ابتدعها لايمكن حصرها . وقد قرأت له ولما صغير كتابا واحدا هو « السحاب الأحمر » وأدهشني ويهرني وحيرني .. فهذا الكتاب قد بدأ بأن وضع صادق الرافعي قلما كان يستخدمه بينه وبين المصباح ورأى احتراق الضوء للقلم المصنوع من الزجاج .. رآه دامياً .. فوقف طويلا أمام هذا الاكتشاف .. أمام شلال الدم وشلال النور .. أمام الدم الدموي والدم الذي هو سحاب بين أصابعه ..

قال الأستاذ سعيد العريان الذي أحبه وأفرح له ولم يفهمه :

قال لي الأستاذ الرافعي : أرأيت القلم الذي تراءى لي السحاب الأحمر في حسابه بين يميني وبين المصباح ؟ ثم دس يده في درج المكتب فأخرجه ثم ناولني القلم وهو يقول : ضع النصاب بين عينيك والمصباح وانظر . ألست ترى سحابا يترقرق بالدم كأن قلبا جريحا يذرف .. في شعاعة هذا النور تراءت لي هذه الخواطر التي تقرؤها في « السحاب الأحمر » .

ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال .

ويقول الأستاذ سعيد العريان : « أحسب أن الرافعي حين أنشأ « السحاب الأحمر » كان في حالة عصبية قلقة لست أعرف مأتاها ومردها . ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خبرها في شيء من الغموض والإبهام »

ونحن أمام وضع نموذجي للأديب ومؤرخ الأدب .

الأديب يستخرج المعاني من وضع قلم من الزجاج الأحمر ، والمؤرخ يرى ذلك ولايفهم ولايحاول أيضا . ويصف حالة الرافعي بأنها عصبية وأنه لذلك يقول كلاما غامضا غير مفهوم .

والحقيقة أن أول شيء عندما كتب الكتاب ، وكنت مرتجة عصبي عموما ، كتب ولم يكتب ، وهذا الغموض ليس جائزا بالنسبة ، ولكنه أصبح ، وأنت في موقف استعادتي بعضها من بعض . هذا الغموض هو الذي جعلني عن الكاتب الكبير ، فأنا معجب به ، معجب به ، بعبقريته ، بتصنيع ، أكون تلميذ في هذه المدرسة ، سأجد في هذا التعليم العجيب ، تعريب أول فعلي ، حدوث ولكني لم أستطيع وإن كنت عوضت عنه من حين إلى حين

قد تعدى مشكلة ومشكلتي هي حب الوضوح والبساطة والجمال . وكل الذين كتبوا بوضوح يهزونني ، والذين كتبت عنهم بسيطة حبيبتي وكل شيء جميل يجنني ويجذبني ، وتعلمت أن أحفظ شيئا من كل ذلك ولكن لم أعرف في بداية حياتي كيف ؟

حتى عندما كنت أغني لمحمد عبد الوهاب في حفلات المدرسية وفي الأفراح وظهور الأطفال ، متطوعة ، لم يكن سبب ذلك أن صوتي كان جميلا وإنما كانت عندي رغبة قوية أكتشفها فيما بعد هو أني أحببت أن تتغنى في عبارة سهلة مثل موسيقى عبد الوهاب ، وأن يكون لي ، سهل مني ، به

وعرفت فيما بعد أن العبارة السهلة شيء صعب ، فالإنسان لا يستطيع أن يكتب بسهولة إلا بعد أن يكون قد فهم ، ولا يستطيع أن ينقل هذا الفهم إلى الناس بسهولة إلا بعد أن يكون قد تمرس على الأداء السهل ، وأن الإنسان لا يكتسب السهولة إلا بممارسة لا بعد وقت طويل ، وكان الوضوح والسهولة والتجلي أمل حياتي الأدبية والطبيعية ، ولا يزال .

وربما كان إعجابي المبكر بالأستاذ العقاد هو الوضوح ، إن المنطق القوي الذي يصحبه ، ولم تكن عبارة الأستاذ العقاد مما أعجبني فيه حتى فكرت فيما بعد ، وتصفحته من الأستاذ بوصفه الحكيم ، إن أعجب صيغه كتب الأستاذ العقاد ، ولكني ترددت ، ثم رفضت .

إعجابي بالأستاذ العقاد قد شغلني عن الإعجاب برجل في عظمته ، وكل عبارته سهل وجميل هو التكبير طه حسين ، ولم أكتشفه إلا في مرحلة متأخرة جدا ، وقد أحزنني ذلك تماما !

الأحداث الصغيرة التي رسمت حياتي كنت مقبلا على ، معنى الفن ،

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مقالا عن مؤتمر للمستشرقين هاجموا فيه القرآن والرسول عليه السلام وعرضت المقال على الأستاذ مصطفى أمين . وتردد في نشره لحساسيته . وارتفاع مستواه عن القراء . وكان عنوانه : بحر ضلالت المستشرقين ، في عمر ولمر القرآن .. وطلب مني مصطفى أمين أن أعيد كتابته بأسلوبي . وكتبته بعنوان . مؤامرة على الرسول .. وقد حذفت منه كل التراكيب اللغوية الصعبة !

وكان لنا أستاذ إسمه محمد محمود حجيري يدرس لنا الفلسفة الإسلامية . وهو من أرق الناس وألطفهم وأكثرهم أبوة لنا . وكانت له ابتسامة لطيفة وصوت هادىء . وكان هادىء العبارة . وكان يملي محاضراته من كراسة معه .. أما الرجل فأنا أحب أن أكون في تواضعه وأدبه . وأما أسلوبه فلا أحب مطلقا . فهو أقرب إلى فلاسفة المسلمين وعلمائهم : صعب .

وفي ذلك الوقت عرفت مؤرخا أمريكيا ليس له نظير في العالم هو : ول ديورانت .. هذا هو الكاتب والمفكر والأديب . هذا هو المثل الأعلى لكل من يريد أن يفكر ويتفلسف . فقد أوتي علما غزيرا وأسلوبا سهلا وتواضعا عظيما . ومرحا وحمة وجمالا . هذا هو الرجل وهذا هو الأسلوب ..

وعرفت من بين مؤلفي علم النفس رجلا آخر هو ثورندايك : أسهل عبارة وأمتع القصص والتصويرات .

وعرفت كاتبا فرنسيا هو جيمس جينز .. عرفت هذا الكاتب مترجما د . أحمد زكي . فقد ترجم له « الكون الغامض » . في أسهل وأيسر عبارة .

وعرفت الكاتب دي كرويف من ترجمة د . أحمد زكي لكتاب له عن « قصة الميكروب » . و هو الذي كان رئيسا لتحرير مجلة « العربي » وقد طلب مني قبل أن أكون رئيسا لتحرير مجلة « آخر ساعة » أن أحلفه في مجلة « العربي » وقد اعترض الأستاذ إحسان عبد القدوس الذي كان رئيسا لمجلس إدارة أخبار اليوم واعترض د . فاسم عرجات العصر المتذبذب .. ثم اعترض الرئيس أنور السادات ...

وفي ذلك الوقت كنت قد وقعت أسيرا لكاتب قد توفر لديه كل ما أحب في الكاتب والكتابة . ذلك هو الكاتب الفرنسي أندريه موروا . فعندما جاء ترتيبي

الأول في التوجيهيه والأول في مسابقة الفلسفة على مستوى مصر كان لابد أن يذهب للقاء وزير المعارف نجيب الهلالي باشا . وفي حفله عامة تقدم فيها سته من مدرسة واحدة هي مدرسه المنصوره الثانوية : أوائل مصر في التوجيهية أدبي وعلمي ورياضه . تسلمنا من وزير المعارف شيكا بخمسة وعشرين جنيها ، أكبر مبلغ من المال تلقاه طالب في مثل سني .. وأهم من ذلك عدد من الكتب في مقدمتها كتاب « درر التيلي » ترجمه حسن محمود . الكتاب من تأليف أندريه موروا .. أروع ما كتب وأروع ما قرأت . ومعه كتاب « النقد الأدبي » الأبركرومبي ترجمة أستاذ اساتذه الجغرافيا د . محمد عوض محمد من أبناء المنصورة النابهين ..

لا أعرف كم عدد المرات التي قرأت فيها دروا تيلي رئيس وزراء بريطانيا اليهودي ، ومن تأليف الكاتب الفرنسي اليهودي أندريه موروا .. لقد رأيت في الكتاب وشخص رئيس الوزراء وشخصي المؤلف ، ما لم أكن أعرف من أسرار الأدب والسياسة والتاريخ وصناعة الكتابة . ولم يعني كتاب واحد لأندريه موروا بعد ذلك في الأدب والفلسفة . ما كتبه عن الفلسفة الوجودية وما كتبه عن جورج صاند . وعن صنعة القصة القصيرة وعن الحب والسعادة .. ويهزلني رواية له إسمها « مساخ » وهي عبارة عن رواية فيها حادثه واحدة يكتبها اثنان كل واحد من وجهة نظره ..

وعرفت في ذلك الوقت ، ومبكرا جدا ، أدبيا فرنسيا هو أستاذ أندريه موروا واسمه « آلان » أستاذ أساتذه المقال القصير . أقرأ المقالات القصيرة . وعرفت كيف يقوم بتوظيف تاريخ الأدب ورموز الأساطير القديمة في عرض نظرته ونظريته وفلسفته في الحياة والدنيا . أعجبني كثيرا .

هل كل ذلك جعلني أتظلم مصطفى صادق الرافعي ؟ .. هل جعلني أقسو في الحكم عليه ؟ .. لا أظن ذلك وحده !

وفي نفس الوقت - في المرحلة الثانوية - قرأت قصة « الحب والنفسية » للشاعر الألماني شيلر - وهي أول رواية مترجمة أعيشها .. ولم أكن أعرف في ذلك الوقت ما هو الحب ، ولا ما هي مشاكل الحب .. ولا معنى أن يخطب أحد يخطب واحدة .. وفي هذه الرواية يقول الأب لخطيب ابنته : إن الرجل الذي يذهب إلى رجل آخر يرجوه أن يخطب إبنتي له ، لا يلهمني الثقة به !

ولم أفهم . لأن المطلوب أن يذهب الشاب إلى والدها ويطلبها .. هذه هى الرجولة !

ولم أفهم هذه العبارة الغريبة : إذا بأس الشيطان بيضة إنفقست بنا جميلة !

كانت أول رواية .. وكانت العبارة سهلة . والمعنى غريبا . وعالم الرواية شيء جديد تماما .

وبسرعة وجدت فى المكتبات « روايات الجيب » من ترجمة الأستاذ عمر عبد العزيز أمين .. هذا هو الكنز العظيم الذى وقعت عليه ووقعت فيه .. كل أدباء العالم الكبار باللغة العربية .. وهى كتب صغيرة وكثيرة .. أهم من ذلك : سهولة العبارة وسرعتها .

وفى ذلك الوقت أيضا عرفت روايات بوليسية ساخرة للكاتب الفرنسى موريس لوبلان عن مغامرات « أرسين لوبين » .. وهى أمتع وأروع ما عرفت فى ذلك الوقت . وأتذكر أننى كنت أسافر من المنصورة إلى السبلاوين لكى أحصل على مزيد من هذه الكتب . فقد كان لدى أحد أقاربى عدد كبير منها . ولم أسأل كيف حصل على كل ذلك !

وفجأة « وكأن نوافذ النور قد انفتحت كلها فى وقت واحد وجدت كتبا صغيرة الحجم من تأليف كاتب إسمه محمد صبيح . الكتاب تسمعه فى جيبك . وغلافه غريب وجميل . والغلاف من تصميم فنان أسمع رميلا وصديقا هو عبد السلام الشريف . والكاتب محمد صبيح الذى كان سكرتير تحرير جريدة « الأساس » . أول جريدة أعمل بها . يمتاز بسهولة وسرعة العبارة . ولديه قدرة هائلة على السرد والتبسيط . وإن لم يكن أسلوبه جميلا . ولكن لم أجد أحدا يكتب فى التاريخ الإسلامى أسهل وأيسر منه .

ثم وقعت فى غرام شعراء كثيرين : شوقى والبهاء زهير ومحمود حسن اسماعيل واسماعيل باشا صبرى . ولم أنتبه فى ذلك الوقت إلى غيرهم من الشعراء . فلم يكن وقتى يتسع لكل هذه القراءات الحرة « أى البعيدة عن المقرر .

لقد وجدت نفسى . أى وجدت الذى يعجبنى والذى يمتعنى . ولا يعجبنى إلا الذى يريحنى « ولا يريحنى إلا الذى يبهجنى . إن هذا بالضبط ما أريد

وما أحب وما أتمنى . إن لم يكن معلما كذلك ، فهو شيء قريب من هذا .

وأنا لا أرخص أي شيء من أول نظرة ، لا أصدق بكتاب إذا هو أنت صفحة أو عشرا فلم تعجبني . لا أجد بذلك كافيا للحكم على الاديب . وإنما أجد من الضروري أن أقرأ الكتاب كاملا .. هنا فقط أجد في نفسي الغنى والحق والعذر للحكم على صاحب الكتاب .

ولكني مع الأستاذ مصطفى صادق الرافعي . لم أكتف بكتابه « السحاب الأحمر » وإنما قرأت : رسائل الأحزان . وأوراق الورد . وما كتبه في تاريخ أدب العرب .. ومقالاته في « وحي القلم » وقصائده .

فما هذا الذي أجده في كتب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ؟

وجدت عنده البراعة في تخريج المعاني بعضها من بعض . ووجدت تراكيب بلاغية غير مألوفة .

ووجدت الأستاذ الرافعي يحاول أن يدرر القارىء لمادا هو مشغول بالكتابه عن الحب والجمال وطلسمه الجمال وعن الغرام والعشق والكراهية والسياسه .

ولم يعرف أقرب الناس من هي التي يحبها .. وإنما كان هو يشير ويشير إلى الأديبة « مي زيادة » وكانت « مي » شرفا يدعيه كل أدباء زمانها إبتداء من لطفي السيد وانتهاء بسلامة موسى مرورا بالعقاد وطه حسين وإسماعيل صبري ومطران خليل .. وغيرهم كثيرون .

أما العقاد فكانت بينه وبين مي رسائل دعابا وإيابا . واختلف الإثنان وأعادت رسائل العقاد إليه . واحتفظ ببعض هذه الرسائل .

وكان مصطفى صادق الرافعي يشير إلى الغرام بينهما أو إلى أنه حب من طرف واحد - طرفه هو - ومصطفى صادق الرافعي ، إذا أحب من طرف واحد ، فهو يتمشى مع أشهر الغراميات في التاريخ كله فمعظم عظماء الحب كانوا يحبون من طرف واحد .. ولولا هذا العذاب ما كان شعرهم الجميل .

ولكن حب مصطفى صادق الرافعي لم يكن لمي زيادة ، يقدر حبه أن يكون في حالة حب ليكون مؤهلا لابتداع التراكيب الجمالية والبلاغية الكثيرة في كتبه .

ونحن لانسأل أديباً عن حبه ، إن كان صادقا ، وإنما نحن نطلب في الذي

كتبه . فإن أحب فسوف يرى ماذا كتب ، وإن إدعى الحب فسوف يرى ماذا كتب . وإن تخيل أنه أحب ، فسوف ينظر ماذا قال ..

والحقيقة أن مصطفى صادق الرافعي عاشق للغة العربية . ويحاول أن يبرر هذا العشق . ويخترع له قصة . فلم يجد غير قصة « مي زيادة » .. ولو لم تكن مي زيادة هناك لاخترع غيرها . وقد فعل . ولم يكن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي مقعما لأحد من العراء أو المؤرخين ..

وإذا كان حبه لمي زيادة مشكوكا فيه ، فإن حبه للغة العربية قد تأكد ألف مرة . طه حسين ، رغم اختلافه معه ، وصفه بأسلوبه في الكتابة ، معترف له بأنه أعلم الأدباء باللغة في زمانه ..

واختلافه مع طه حسين بديهي : فطه حسين ابن الحضارة الغربية والبلاغة العربية . المتمرد على قيود اللغة وقيود الفكر .. ومصطفى صادق الرافعي ابن الحضارة الإسلامية وأسير البلاغة العربية ، ولا أثر للحضارة الأوربية في شيء كتبه أو فكرة تعرض لها أو تحداها ..

وهو خصم لدود للعقاد : ابن المنطق والحضارة الإنجليزية والألمانية . وهو الناقد العنيف الذي يستخدم أدوات علم النص التحليلي والواقعية في غير هوادة ولا رحمة . والعقاد لا يقبل كلمة أو تعبيرا ليس واضحا وضوح الشمس . ومصطفى صادق الرافعي يفضل أن يخرج القلم الأحمر من درج مكتبه ويضعه بين عينيه وبين المصباح ويؤلف عن ذلك كتابا ، أما العقاد فهو ينظر في النور مباشرة ، ويعرف من أين جاء ولماذا ؟ وينظر إلى القلم فيعرف من أي شيء صنعوه وكيف باعوه ، ولماذا اختاره أي أحد .. وما هي الأسباب التي جعلته يفضل اللون الأحمر ، ثم ما معنى أن يحتفظ به في المكتب ويخرجه من حين إلى حين وما دلالة إضاءة الوقت في تقليب القلم ، وإن كانت لذلك دلالة جنسية .. أو إن كان لذلك معنى شاذ ، كما كان يفعل المركيز دي ساد وكما كان يفعل أبو نواس !

ولذلك كان الخلاف بين العقاد والرافعي عنيفا ، إختلاف عقليين ومزاجين وأسلوبين في الكتابة والثقافة !

وفي ذلك الوقت سمعت عن معارك الرجلين ، ولا أدعي أنني قرأت شيئا

منها . وهل أن الرافعي كتب مقالة من المقالات ضد العقاد بعنوان « على السفود » . والسفود هو عود الحديد الذي يصنعون فيها اللحم في النار . ثم هو وصف العقاد بأنه الشاعر المزاجيشي . لأن العقاد عندما رثى كلبه الصغير قال

« مرحلصه اخر الوفا »

ورغم سعادة طه حسين بهذه المعركة ضد عملاق الأدب عباس العقاد . فإنه كان يرى الرافعي خصماً محترماً فهو صوره « حبه لكل الذي عجزوه طه حسين في الكتابة لأنه

• • •

وهذه تصادح موجزة لأسلوب الرافعي في الكتابة وتصويره لاشخاص قال عن الإمام محمد عبده

« وظهر لي وجه الشيخ رجل كأن في تركيب جسمه الإسلامي شبهاً بالجبهة في جسم الحوض . على ما يرفع للناعين وأول ما يسجد عليه حتى قصيح لأن لسانه أعد لتصوير مخبوءه الدنيا في هذه اللغة . فكان نسبته مخبوءه في الألسنة ! »

• • •

« مرء أجد الفكر يجره القلم . ومرء أجد القلب يسحب الفكر »

• • •

« إن كنت أحببت فتحصن لقلبك . ولكنك إن وطنت سائرين في طريق فليهب كل صاحب بقول لأخيه إلا هي »

• • •

« العاشق مع المرأة كالبحر عندما يتحطم محالفه ويكسر صفقاته ويساقط ريشه فلا يسع « المعنى » نجاته »

« فى قلب الرجل ألف باب ، يدخل منها كل يوم ألف شىء ، ولكن حين تدخل المرأة بين أحدها لا ترضى إلا أن تغلقها كلها » .

* * *

« قيل لحية مسلمة : أكان يسرك لو خلقت امرأة ؟ قالت : فأنا امرأة غير أن معنى فى الثاب وسمها فى لسانها ! »

* * *

« يخيل إلى أن عقل النساء مثل وجوههن : تحته ما تحته وليس عليه إلا « خمار » من العقل ! »

ومن المؤكد أن الأستاذ الرافعى لم يكن يحب المرأة . وإنما كان يكرهها ويحتقرها .. هل هو يكره المرأة التى عرفها ، أو المرأة التى أراد أن يعرفها وفشل ؟ إن الذى يقوله عن المرأة فى فلسفة الجمال والحب ، لايشجع المرأة على أن تقترب منه .. فهو يخيفها بسوء الظن بها .. ثم كيف يحبها وتحبه ، إذا كان ثقيل السمع ، بعيدا فى طنطا ، ثقيل الحركة أيضا .

ولكن للأستاذ الرافعى شعرا رقيقا جميلا ، يكون فيه أكثر حرية وأكثر انطلاقا وأعف كما كأنه إنسان آخر ..

ولكنه أقرب إلى طبيعته إذا كتب النثر . وأبعد عنى تماما . ففى الشعر يقول :

من للمحب ومن يعينه
والحب أهلاه حزينه !
أنا ما عرفت سوى فضاوته
فقولوا كيف لينه ؟
قلبى هو الذهب الكريم
فلا يفارقه رنينه
قلبى هو الألماس يعرف

من أشعته نميته
قلبي يحب وإنما
أخلاقه فيه ودينه
الحب سجدة عابد
ماأرضه إلا جبينه
الحب أفق طاهر
ما أن يدنسه خئونه
أفق الملائكة نفسه
في البدء كان له لعينه
ويلي على مذلل
ما تنقضي عبر فنونه
كيف السلو وفي فؤادي
لا تفارقني عيونه !
ويقول أيضا :

يامن على الحب يشدنا وتذكره
لعوف تذكرنا يوما وتنساكا
إن الظلام الذي يحلوك يافمر
له صباح متى تدركه أحلاكا ؟

ويقول مشيراً إلى أن محبوبته كانت لها صلة باسماعيل باشا صبري - يقصد الآنسة مي زيادة :

ألا ياسيم الهجر سلم على فجري
فقد غاب في الليل الطويل من الهجر
تصيره الليالي بالنجوم وبدرها
وليل الجفا من غير نجم ولا بدر
وقفت وماذا أستطيع بوقفتي
حيرا ، وأقدار الغرام بنا تجزى ؟
أدور بعيني نحو كل شعاعة
على الأفق في نجم ، أو الأرض في زهر

فيا ويح قلبي مالله حتى كلما
تراءى له شبه إبتسام على ثغر
مت ياحبيب القلب هجرك يبتهي
ومن أول الأيام فيه فتهي ، صبري ، ؟

• • •

ويقول الأستاذ الرافعي :

سألتها مرة : ماذا يقول البحر لو سقطت فيه دمعة من مهجور ؟

فقالت أنه يقول : إنسان أحمق أو مخبول يحاول أن يجعل له بحرا من قطرتين ..

قال : أراك يافيلسوفتي لاتفهمين لغة الوجود ..

قالت : فما ترى أنت ؟

قال : إنه يقول عندئذ : تباركت يارب أنا الجبار العالي، ثلاثة أرباع الأرض ، قد التقى دمعة معذب منألم ، فهل هو يحمل ثلاثة أرباع الهم في الأرض ؟!؟

• • •

يقول الأستاذ الرافعي :

قد عرفنا أن لنا أعمارا محدودة ، يجوز أن ساعات الهناءة والسعادة إنما كانت محدودة لأنها أعمار لأعمارنا ؟ فبضعة أشهر من الجفاء أو البعد يكون عمرها هو ساعة اللقاء التي تتبعها ، وسنة كاملة من عمل يكون عمرها يوم سرور ؟

إن كان هذا صحيحا فما أقصر عمرك يا عمري ! ،

اهلا بك فى مصر
ضيف مصر العظيم
دير نمات

الملايك فى مصر.. ضيف مصر العظيم "ديرمات"

فى عام ١٩٦٩ مشيت فى هذا الطريق صاعداً من جنيف إلى برن إلى نيوشاتل ، حيث يقيم أديب سويسرا فريدريش ديرمات وضيف مصر هذا العام ١٩٨٥ . فى نفس الوقت كان رائد الفضاء الأمريكى نيل أرمسترونج فى طريقه إلى القمر والدوران حوله والهبوط عليه ، ليقول جملته الشهيرة : هذه خطوة صغيرة لإنسان ، خطوة عملاقة للإنسانية .. وكنت أقول لنفسى هذه خطوة هامة أن أرى الأديب السويسرى الذى استطاع أن يحرك أدب الشعوب الناطقة بالألمانية الذى كان قد جمد وانطفأ بعد الحرب العالمية الثانية . تطبيقاً للعبارة الشهيرة التى قالها العالم الإغريقى أرشميدس : أعطنى مكاناً خارج الكرة الأرضية وأنا أحركها لك .

وديرمات قد اتخذ مكاناً عبارة عن هيلتين متجاورتين : واحدة للكتابة والرسم ، والأخرى للمعيشة . ومن هنا استطاع أن يملأ الأدب الألمانى بالفكهة والسخرية من العالم ، ومن نفسه أيضا .

وكنا قد عرضنا له فى مصر مسرحية « علماء الطبيعة » من ترجمة د . عبد الرحمن بدوى ، وترجمت له أيضاً مسرحيات : « رومولوس العظيم » و « هبط الملاك فى بابل » و « زيارة السيدة العجوز » و « زواج المسيو ميسيسبى » و « الشهاب » . ولما عرف ديرمات سألنى عن حق الأداء العلنى أى عن نصيبه كمؤلف من الأرباح الطائلة التى حصلنا عليها من هذه المسرحية ، فقلت له أنها لم تكسب ، بل هى خسارة فادحة على المسرح القومى ، وحيل إليه أننى كذب عليه ، فبعث بخطاب إلى السفير السويسرى فى القاهرة ، والسفير

السويسرى بعث بخطاب إلى وزير الثقافة ، ووزارة الثقافه بعثت بخطاب إلى إدارة المسرح ، وسألوني . وكان لابد أن يرد أن المسرحيه خاسرة ، ولكن لا شأن للمؤلف بذلك ، فهو يريد حق الأداء العلني ، وكان رد المعجم المحجل أيضا أنه لا حق له ، فحتى لم يوقع على اتفاقيه برن ولن تعطيه مليماً واحداً

ولم تتوقف المغازة السويسرية عن المطالبة بحق مواطن سويسرى عظيم ، ولم تشأ أن ترد عليها ، ووجدت ديرمات عند الباب الحديدى ، واختلط صوت السلاسل بالمفاتيح بصوت الكلب ، وبادرني بصوته الغليظ قائلا . لم أرك منذ عمر طويل .

قلت : ولكن هذا العمر الطويل قد جعلك أرشق وأكثر شباباً ، وأنت لم تكبر ١٦ عاماً وإنما عدت إلى الوراء ١٦ عاما .

وكأنما جاف من الحمد أو كأنه سمعها كثيرا ، فهي عبارة مكررة ، وليس أمام التكرار العمل إلا العلل أو السكوت عليه .

وتقدمنه إلى الداخل . ليعتذر أن البيت تجرى به إصلاحات ومن بين هذه الإصلاحات أنه بعد وفاة زوجته الأولى ظهرت الثانية في حياته . طويلة نحيفة جادة الملامح والصوت أيضا ، إنها محرجة في التليفزيون الألماني . سألته : منذ متى تزوجتما ؟ هل من سنتين ؟ هل ثلاث سنوات ؟

وبدا التفكير على وجه ديرمات يحاول أن يعرف بالضبط . فقلت هل سنتان طويلتان لدرجة أنه يصعب عليكما أن تعرفا إن كانتا سنتين أو عشرين سنة . فقال هو : سنتان ، وقالت هي : بل سنتان ونصف .

* * *

وقبل ذلك بعشر سنوات ذهبت للقاء عريس الفلسفة الألمانية .. عريس الفلسفة الوجودية ، وهو مولانا وسيدنا نحن المشتغلين بالفلسفة : مارتن هايدجر . كان ذلك في مدينة تيبنجن بجنوب ألمانيا ، لقد كان يوماً عظيماً أن أرى مثل هذا الفيلسوف العظيم ، وهو أعظم من رأيت من الفلاسفة . لقد رأيت الفيلسوف الوجودى سارتر وصديقته الأديبة سيمون دى بوفوار وأعجبت به وبها .. ولكن عميد الفلسفة الألمانية هذا أعظم .. هذا أروع . ولم أكن في حياتي قد رأيت زوجة لفيلسوف ، إنني أعرف كيف كانت تبدو زوجة سقراط ،

وكيف لعنها في كل كتاب ، وكيف إنه حملها مسئولية الفقر والضعف على كر العصور في العالم من ٢٥ قرنا

وكان لقائي بالفيلسوف هيدجر مثل اللقاء بالأديب بيرمطب عند سفح الجبل والطريق صعب على السيارات ، وصعب على المشاة القادمين من الشرق الذين لا تثبت أحذيتهم على الجليد والصخور ، ولا يعرفون كيف يعتمدون على أنفسهم دون الاستعانة بعصى لها مخالب تغرس في الأرض وأعلى الجبل وجدت رجلا قصير القامة نحيفا حاد الأنف قاسي النظرة وأشار أحد الخدم بأنه الفيلسوف . ولم أعرف ما الذي أقوله ، لقد قرأت في سنوات طويلة مئات الصفحات التي كتبها ، وهرشت رأسي بجبران الليل وتعبت وتعبت ، وعندي ألف سؤال ولا أعرف بأيها أبدأ فأشار هو بصوت حديدي إلى سيدة أطول وأعرض وأكثر بياضاً وقال : روحتي .

وقالت زوجته : أنت تلميذه ؟

قلت : بل واحد من مئات الألوف في الفارات الخمس

ولا أعرف إن كانت هذه الابتسامة على وجهه نوعا من الرضا بهذا الانتشار للفلسفة الوجودية الألمانية ، أو نوعا من السخرية من هذه العبارة الشرقية التي ليست فلسفية على الإطلاق !؟

وأشارت زوجته إلى داخل البيت الصغير لنشرب معا القهوة ، ودخلت وجلست وشربت ، يتكلم وأنا أستمع وكأنني أنصت إلى تسجيل لصفحات من كتبه الصعبة ، ولا أدعي أنني فهمت ، ولكن أتمنى أن أراه لما الفهم فسوف يكون ذلك همي وشاغلي ، وعلى مهل في يوم .. في شهر في سنة .

وبعد أيام من لقائي بيرمطب في ٢٢ يوليه سنة ١٩٦٩ ذهبت إلى كوب إلى العاصمة هلفان ، لأرى البيت الذي كان يعيش فيه الأديب الأمريكي همنجواي الذي انتحر بسبب لا معرفه ، وقيل انهيار عصبي وقالو كان في نيته أن يتزوج فتاة غير زوجته الأولى إلى الانتحار وقيل - إن هذا البيت تذهب إليه الزوجه ليلاً أما عروس الصحيل فتذهب نهاراً لتعرض نموها على مصوري التليفزيون والصحافة

وذهبت أرى نموج العروس . فلم أجد لا الأرملة ولا العروس وتحدث البيت ولم يسمحوا لنا إلا برؤيه غرفة نومه ، وفي الطريق إلى غرفة النوم

مروضا بالعرلان والحيوانات التى نقلها أو صادها من الغابات الاستوائية وأطلقها في حديقة واسعة ، هذه الحديقة كانت هدية من الرئيس كاسترو الذى كان عاشقا للأديب الأمريكي . وغرفة النوم هي أشبه بغرفة نوم الأستاذ العقاد ، فالأرض مفروشة بالأحذية .. والأحذية من كل لون وحجم ، وهى جميعاً من مقاس واحد .. أو على الأصح ليس لها مقاس ، فهى لا تصلح إلا للأديب نفسه ، إنها واسعة ، وليس في إمكان أحد سواه أن يستعملها .. هل كان للأحذية معنى آخر ؟ هل أرادت الزوجة أن تقول مثلا : إن الأديب لم يترك وراءه إلا جريما ؟ هل من رأيها أن هذا هو رأيه في الناس .. أو هو رأيه في الحياة أو هو رأيها هي في الرواد ، والمؤرخين والنقاد الذين لم يقدروه حق قدره إلا بعد أن مات .. أو كان ذلك رأيها في زوجته الثانية .. وأنها ليست إلا واحدة من هذه المجموعات الجلدية ؟!

ويكفى أننى رأيت كيف كان يعيش وكيف كان من الممكن أن يموت . فلديه السكاكين والبنادق والمسدسات التى استخدمها في صيد الحيوان وفي التقاط المعلومات والقصص .. ثم في نهايته بعد ذلك .

□ □ □

وعندما تحدد موعدى مع الأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا سألت سفيرنا في روما : إن كان من الضرورى أن أحمل هدية للعروسين ؟

فكان جوابه أن هذا يتوقف على مدى العلاقة بالأديب فقلت : صديق قديم ، وأنا أول من قدمه باللغة العربية ، فقد ترجمت له أكثر من مائة وخمسين قصة قصيرة ، وعرضت له رواية « فتاة من روما » و « زمن اللامبالاة » .. فضحك السفير قائلا : بل حقه عليك أن تقدم له هدية ، مادمت لم تدفع له شيئاً عن هذه القصص .

وسألت أديباً إيطاليا فقال : أعظم هدية أن تشترى مجموعة من مؤلفاته وتطلب إليه أن يوقع عليها !..

وصلت . أما زوجته الأولى فهى الأديبة المعروفة « البرامورانته » وقد دعوتهما إلى غداء في فندق سميرأميس الذى يشغله الآن فندق الإنتركونتنال

على النيل في جاردن سيتي بالقاهرة ، وكان يشير إلى زوجه بكثير من الخوف والفزع ، فهي تعاز عليه وتعقد أنفاسه وكانت تحمي وجهها كلما اقترب منها المصور .

ثم ظهرت عروس أخرى جميلة إسمها ، دانشا مازياني ، أستوديو روبية واحدة إسمها ، لمسة العصر ، متوسطة القامة ذهبية الشعر ، جميلة الوجه ، أصغر منه بثلاثين عاماً ، قال المؤرخ مورافيا كان لابد أن تتزوجها بعد هذه التجربة المريرة

قلت إن حياتك الزوجية مختلفة عن الحياة الزوجية في كل رواياتك . ففي رواياتك .. زوجات ملعونات

فضحك قائلاً : إنها صور من الواقع

قلت : من واقعك ؟

قال : نعم لكل زوجة هي إنسان ملعون حتى تثبت براءته

وقالت الزوجة : ما رأيك في هذه الكراهية ؟.. لقد اشتريتها اليوم بستمائة دولار الثمن . وما رأيك في الجرعة والتصوير ؟

فاعتدل مورافيا ليقول . وما رأيك فيمن في الخاتم الذي في إصبعها والعقد الذي حول عنقها والمجوهرات الغرر احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة ؟!

قلت : هل هو سؤال تقليدي أن أسأل كيف كان اللقاء ؟ .

أجاب مورافيا إنه زواج تقليدي جداً هي قارئة تريد أن تسأل عن مشكلة شخصية ، وخلال الكلام بيننا عن المشكلة ، وأصبحت أنا مشكلتها الشخصية . وسألتني كيف أجد لها حلاً ؟.. فلم أجد إلا حلاً واحداً هو ، الزواج مني وبذلك يكون هذا الزواج نوعاً من الحل الشامل عن المناعي كله ، وتوصلاً إلى مستحيل في ظل رجل معروض عليه أن يكون حكيماً أي قادراً على صنع المستحيل . والمستحيل هو السعادة الزوجية . أو السعادة بين شخصين مختلفين في كل شيء .

قلت إذن فالحب ليست الحل ، وإنما هذا الزواج هو ، تأجيل للحل ، . أي تأجيل للحكم إلى ما بعد الجلسة ، والجلسة هي الزواج عاماً أو عشرين عاماً ؟ عمل جيداً عشرين عام ؟! إن عاماً واحداً كثير جداً

ولم تعترض العروس ، ولم تتدخل ، إن أزواجهما عوملت أو عوقبت

ولما طلب مؤراميا أن ينتقل إلى غرفة داخلية اعترضت العروس قائلة ما تزال هناك بعض الإصلاحات . فضحك موراميا قائلا : هذه الإصلاحات التي تحاولها الزوجة الجديدة عادة تعبر عن رغبتها العميقة في القيام بإصلاحات أخرى .. إصلاحات في تكوينه النفسي أو في وجهة نظره عن الحياة المشتركة ، ولكنها عندما تجد ذلك صعباً فإنها تحاول إصلاح المقاعد وتغيير مفارش السرير ومكانه من الغرفة .

ولم تعترض العروس ..

□ □ □

قلت لفريدريش دورنمات : هل تعلم أن أحداً لم يعرفك في مصر عندما ظهرت مسرحيتك « علماء الطبيعة » ؟..

ولم يدهشه ذلك .

ثم عدت أقول : ولكن نكتة أطلقها كاتب ساخر جعلتك حديث الناس .

إنها نكتة الكاتب الساخر أحمد رجب فقد « فبرك » مسرحية من فصل واحد وجعل إسمها : « الهواء الأسود » ونسبها إلى دورنمات ، ثم عرضها على عدد كبير من النقاد وبعث لي بالنص العربي فأدهشني أن يكون ذلك لدورنمات ، فالحوار والمعنى يدخل في مسرح العبث - أو مسرح اللامعقول الذي كنا نجربه على المسارح المصرية في ذلك الوقت ، والذي دخله الأستاذ توفيق الحكيم بمسرحية : « بإطلاع الشمرة » .. ثم طلبت من الصديق أحمد رجب أن يبعث لي بالنص الألماني فوعد بذلك ، ولما سألني عن السبب قلت له . لم أقرأ أن دورنمات قد ألف شيئاً لمسرح العبث .

ثم عرض المسرحية على كبار النقاد والمخرجين في مصر فأشادوا بها جميعا .. بالحوار والمنطق والطلعة والعمق والعقدة والأبعاد الدرامية والبؤرة التاريخية ، ونشر أحمد رجب كل هذه الآراء في مجلة « الكواكب » ومعها أنه هو الذي ألف هذه المسرحية المزعومة .

وكانت فضيحة أدبية كبرى .

وأغرب من ذلك أنه رغم الفضيحة الأدبية المؤكدة قبل مسرح الدولة في

بعدد قد عرض هذه المسرحية على أنها من تأليف ديرمنت !

وفزع ديرمنت من أن يترجم أحد هذه المسرحية وينسبها إليه .

ولكن أحدا لم يفعل ذلك من ١٦ عاماً .

سألت ديرمنت : قلت لي في لقائنا الأول إنك لم تقرأ من الأدب العربي سوى ألف ليلة ، وكتابا واحدا للمؤرخ اللبناني الأمير أرسلان ، فهل لم تفعل أكثر من ذلك ؟..

فضحك ديرمنت ضحكة عابثة أمعن فيها حجله ، وتراجع في مقعده ليبدو أقصر ، ووضع يده على رأسه الكروي وراح يضحك لا بل قرأت في الأدب العربي ، وفي المذاهب الدينية والفوارق بين السنه والشيعة .. بل اهتديت أيضاً إلى فكرة مسرحية كوميدية ، وهي أنه حدث في أيام الخليفة المنصور أو الخليفة هارون الرشيد أن حكماً صدر على حاخام يهودي وعلى شيخ مسلم ، فحملا السجن وهي السجن تناقشا طويلاً ، وكان اليهودي يعتقد أن « التلمود » لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وكان ذلك رأي الشيخ المسلم في القرآن الكريم أيضا ، ولكن بالحوار والمناقشة اكتشفا معاً أنهما يؤمنان بنفس المعاني ، ولكن بصور مختلفة . وأخرج الحاخام اليهودي حجة ، فراح يلف البلاد كلها فلم يجد أحداً يرى رأيه ، وبعد مئات السنين عاد إلى السجن ليجد أن السجين المسلم ما يزال حيا وأنه هو الوحيد الذي يتفق معه في الإيمان بكل شيء .

قلت : أليست هذه هي أسطورة اليهودي الدائم ؟ .

فقالت الزوجة : هي بالضبط

قلت محاولا الدوران حول عروسه الجديدة : لم أجد في مسرحياتك زوجة واحدة أو حتى سيدة واحدة جميلة أو عاقلة .

فقال : لأن المعطيات يطلبن مني أن أفعل ذلك ، ولكني أرفض ، فأنا لا أرى إلا الجانب الذي أخشى منه على مصير الإنسانية .

قلت ، متشائم إذن ؟..

قال : لا متشائم ولا متفائل .

قلت : إذن هأنت أقرب إلى المدرسة الاغريقية المعروفة باسم مدرسة « اللا أدريه » ، أي التي يقول أصحابها : لا أدري .. فهم ليسوا على يقين من

شيء في هذه الدنيا .

فقال : بالضبط .

قلت : هل تدري أنك متزوج ؟

قال : من الواجب على زوجتي أن تنبهني إلى ذلك .

قالت الزوجة : بل واجب عليه أن ينبهني إلى ذلك ، وأنا أعمل من أجله أشياء كثيرة : سكرتيرة وطاهية وخادمة ومحررة ومنتجة وصديقة ، ولكن عليه أن يؤكد لي أنني زوجة أيضاً .. أو زوجة قبل كل شيء .

وكان فنجان القهوة قد سقط على ملابسي ، فنظرت الزوجة ولم تفعل شيئا ولا حتى عرضت فنجانا آخر .

وكان لابد أن أفهم أن هذا هو البخل السويسري المعروف ، وكان يجب أن أعرف ذلك من أول لحظة ، فالغرفة التي نجلس فيها بها كرة أرضية كبيرة مضيئة ، وهي في نفس الوقت مصباح يوزع الضوء خافتا في كل مكان ، فهي كرة ، وهي مصباح ، وهي دليل على البخل الأنيق في أي بيت سويسري ..

قلت : إن زوجة الفيلسوف الألماني هايدجر قالت لي إنها هي التي تزوجته .. وإنها سعيدة بذلك وإنها هي التي قررت ذلك إنقاذاً للفيلسوف من متاعب يومية كثيرة . وهو يعترف أنها هي التي تزوجته ، وليس هو الذي تزوجها ، أو أنها هي زوجته وليس هو زوجها .

فقال ديرنمات : زوجتي تقول ذلك أحياناً ولكن الحقيقة أنني أنا الذي تعجلت هذا الزواج .

قلت : إن الأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا ...

فقاطعني : إنه صديقي وأنا من أشد المعجبين به .

وعدت أقول : إن مورافيا يرى الزواج صدفة .. فلا أحد يتزوج عن عمد ، فالزواج مثل الغلطة أو الجريمة التي يتنصل منها كل إنسان ، ومع ذلك فهي غلطة تستمتع بشعبية عظيمة في كل العالم .

□ □ □

وبدعوة من د . ممدوح البلتاجي رئيس هيئة الاستعلامات وصل الكاتب

السويسري الكبير فريدريش شيرنمات إلى القاهرة مع زوجته السينما شارلوت كير ، ومنها إلى الأقصر وأسوان وهذه هي زيارته الثانية لافريقيا بعد زيارته قبل ذلك المغرب ، فرأى الصحراء المغربية ، وهو يحب منظر الصحراء ويرى في امتدادها ورمالها نوعاً من الأبدية أو نوعاً من التحدي الجغرافي بمصير البشري للإنسان ، ويرى أيضاً أن الإنسان لم يحرب على مدى مئات الألوف من السنين إلا نوعاً واحداً من الحرب صراع الحيوان وهي عندما تطورت أدوات القتال فلا يزال الإنسان يصارع الإنسان كما لو كان حيواناً

« لا خلاص للإنسان من حيوانيته إلا بإيمان الإنسان أنه قد تطور مرحلة الحيوانية وأنه تحل ملابس الإنسانية ولن يتحقق ذلك قبل ألوف السنين . قد استطاع الإنسان أن يقاوم فيروس الجدري وما بعد عصر الأسلحة الذرية في الأرض ، وحول الأرض ، وأن يصارع عبقريته إبداع الشر وغريزة الشر في قلبه

زيارة الفيلسوف اللامعقول

زيارة الفيلسوف اللامعقول

منذ سنة ١٩٦٥ ، عرفت مصر الأديب السويسرى فريدريش دورنمات (٦٤ سنة) فى نفس الوقت الذى كنا نقوم بتجارب متعددة على مسرح اللامعقول أو مسرح العبث أو المسرح اللامسرحى ..

وفى نفس الوقت كنا نخوض آخر معارك الطليعة الوجودية فى مصر ..

ومسرح العبث يقوم على أنه لايوجد منطق بين الاشياء ولا بين الناس .. وأن الإنسان أحس أخيرا بأنه بلامعنى ، وبلا هدف وأننا نحن الذين نصنع المعنى ونختار الهدف . ولكن الكون كله إما أنه بلا حكمة أو أن له حكمة لا نعرفها . المهم أننا لا نعرفها . ونحن قادرين على معرفتها .. ثم إن الكون لا يعنينا فرسا لصغر من هذا الكون وحياتنا أقصر من أن تتسع لمثل هذه القضية .. وحتى لو عرفنا الكون على هذه المعرفة لا توفر لنا الطعام ولا تساعد الحرية ، ولا تحقق العدل بين الناس !

وطبيعى أن يكون الألمان هم أكثر الناس إحساسا بهذه المأساة . فهى أعقاب الحرب العالمية الثانية إنهارت المانيا بقيمها وعلمها وفيمها الإنسانية وكانت الصدمة الكبرى للأدب والفن .. فالنازية قد سحقت العالم . وأصبح الخراب هو اللون الأسود والضباب والظلام واليأس والعار .. إذ كيف استطاع شخص واحد ـ هتلر ـ بمساعدة عدد من المفكرين والشعراء والفلاسفة أن يهدم الدنيا على الجميع ، وأن يقولى وحده ضمير الإنسان . فقد كان العالم يصدق هتلر ، يصدق دعواه بالأبهة والعظمة وتفجير ينابيع الفن والصدق والإبداع ؟ وبسبب هذا الوهم أو بسبب هذه السذاجة ، وقعت الكارثة الإنسانية الكبرى !

فهذا الشعور بالحيرة ، و اليأس والغربة والغرابة والعار الحضارى هو الذى ظهر فى روايات ومسرحيات الأدباء الألمان - وعند اثنين من السويسريين الألمان هما :

ديرنمات وفريش ..

ولكن المسارح فى ألمانيا قد بهتت متأخرة ، وكأنها اختارت أن تظل مقابر لليأس بدلا من أن تكون ملاعب للأمل فى الخلاص من كل ذلك . أما المسرح الفرنسى والبريطانى فقد تولدا معا هذه الصحوة الأليمة للفكر الحديث فى أوروبا كلها .

وفى باريس ظهرت مسرحيات عظيم المسرح الألمانى ، برتولت برشت ، والرومانى يونسكو والأسبانى ارابال وغيرهم ..

ومع النشاط المسرحى فى مصر فى المستويات إنتقل إلينا ، مسرح العبث ، ورحنا نجرب نحن أيضا هذه الأشكال الجديدة .

وليس معنى العبث : إنعدام المعنى .. وإنما معناه : عدم جدوى المعنى ، إنعدام الفائدة من الحوار أيضا .. أى أنه هو هذا الشعور بعبوعة الدنيا فى عيوننا وأدلتنا .. فكما أن الإنسان يقرف من الطعام ، فالعين والأذن كذلك ..

فالمفكر الأوروبى قد أحس فجأة بأن الكلمة لا معنى لها .. ومادامت بلا معنى فلا إمكانية للكلام بينما فإذا كان حوار على المسرح فليكن بلا معنى ولا منطق .. تماما كما تفاجأ أنت بأن الفلوس التى معك قد ألغيت - فأنت غير قادر على أن تبيع أو تشترى .. وبسرعة تختفى من حياتنا كلمات : العمى والفقر والثراء والإفلاس والبنوك والتجارة ..فكذلك إذا انعدم معقول الألفاظ لا يبقى هناك ما يربط الإنسان بنفسه ، أو بغيره ..

لقد عاشت الكلمات ذات سحر خاص فى حصص الأديان وفى حلقات السحر .. وفجأة : أصبحت لاشىء !

هل أدى مسرح اللامعقول فى مصر إلى تنبيه المثقفين المصريين إلى أننا نعانى شيئا من ذلك .. هل كان مسرح اللامعقول بدعة - أو إرهاصا - لما سوف يحدث فى مصر بعد ذلك بسنوات .. بعد النكسة العسكرية وبعد سقوط البطل جمال عبد الناصر وضياع البطولة.؟

هل انتقلت عدوى مسرح اللامعقول إلى المعقول عندنا . أى هل هذا المسرح

اللامعقول وجدناه معقولا واقعيا يعكس صوره المتفرجين العاقل في مسرح الجيب *

من الذي أتى بهذه الفكرة بالفلسفة الوجودية في مصر أيضا ؟

هل كان مسرح اللامعقول هو المهرب الحقيقي الذي يتجهون إلى التعديلات التي أدخلت على الفلسفة الوجودية وذلك بتغريبها عن الماركسية أو عن الواقعية الجديدة أو عن الوجودية الجديدة !

* * *

إن الكاتب السويسري ديرنمات قد دخل تاريخ الأدب الأوروبي من باب اللامعقول ، فهل فعل هذا جرح ؟ بينما نجد نحن نحن وآخرون قاعدات الفلسفة الوجودية وكهوفها ولم نجرح هو حاول ونجح حاولنا أيضا

وقد سألت ديرنمات عندما كان في بيته في كان هو وجودي فقال إنني احترم الفلسفة الوجودية ولكنها لا تساعدني في عملي المسرحي فهي تؤكد قيمة الفرد وتدفع فيه حتى تجعل منه ملكا وبطلا ولكنها لا تهتم لهذا الملك بعرشه ولا دولته ولا تعطي لهذا البطل عملا خارقا يقوم به فإذا قص إنسان حوله الناس بعجزه ولكني أرى أن الفرد هو هذا الملك وهو هذا البطل في مواجهة القوى الصغيرة قوى السلطة وقوى الكون وفي هذه المواجهة إصرار على أن يفعل شيئا . وفي عجزه دليل على تأكيد ذاته ورأيه وهو مع ذلك لا يكف عن المحاولة الجبارة لا ملك إلا أن تصمك عنه وتسمى أنا تصمك على الصخر مثلما كما يحاول إنسان أن يحطم صخرة بيديه إنه ، وهو جاد في ذلك وفي هذه الصورة الجادة ما يجعلنا نصمك لأن قدرته محدودة والإنسان في يده عاجزة فهي ليست أكثر من صنيع هزيلة أضيفت إلى الصخرة الصماء ولكنه صنع إنسان عزز ووجد وسعه ولكنه لا يستسلم !

والصدفة وحدها هي التي جعلتنا نهتدي إلى أن هنري ديرنمات الألماني أديبا هو ديرنمات الذي من مدرسة العبث وذلك بدأنا نبحث عن أعماله ووجدناه لا يصلح لمسرح العبث ولكنها تصلح للمسرح الحديث ولم يكن ديرنمات ، عبثيا ، تعمد ، كان كذلك في المعنى وليس في الشكل المسرحي

فمسرحياته مضحكة وأحيانا هزلية وأحيانا تهريجية وهو يقصد ذلك ويبيه القارىء والمخرج والممثل والمشاهد ، إلى أن التهريج مقصود . بل هو يطلب من المخرج أن يجعل البطل لا يلفت النظر بسرعة .. وألا يتعاطف المشاهد معه .. ويطلب تأجيل ذلك إلى الفصول التالية ..

قال لى دورنمات وكأنه يتوقع ذلك : لم يعرفنى السويسريون إلا بعد أن كتب عنى الإنجليز .. والمثل العربى عندكم يقول : زمار الحى لا يطرب أحدا .. أى لابد أن يجىء أحد من بلاد بعيدة فيقول : أنه أعظم زمار . وأن الناس فى الخارج يتطلعون إليه .. هنا فقط يتمسك به أهله !

وأول مسرحية قدمها دورنمات من حوالى ٣٥ سنة . كان فشلها عظيما . ولم يدهش دورنمات لذلك . فهو ما يزال غريبا على الناس ، وليس لديهم رصيد من التقدير أو الأعجاب به يجعلهم يغفرون له هذه السقطة الأولى .. أو هذه الخطيئة الأولى ولكن دورنمات قال عن ذلك : المهم أن الناس ذهبوا . وأن النقاد كتبوا وكل ذلك أفضل من أن يتثاءب الناس عند مشاهدتها !

وفى إحدى محاضراته عن « التأليف » المسرحى قال : إننى أكتب المسرحية للذين إذا استمعوا إلى محاضرات فى الفلسفة الوجودية للفيلسوف الألمانى هيدجر . تثاءبوا ثم غلبهم النوم !

وهذا الفيلسوف الوجودى هو أصعب الفلاسفة فى كل العصور لأن لغته معقدة . وتراكيبه غير مفهومة تماما .. فلا بد أن يتثاءب أكثر الناس تخصصا إذا استمعوا إليه . وهنا بالضبط يبدأ دور دورنمات بأن يدهش هؤلاء الناس ويذهب عنهم الملل والترف واليأس من الفلسفة ولكنها تظهر فى أشخاص لهم حياة وقضايا على المسرح ثم إنهم يمشون على الضحك وفى هذا الضحك ومن هذا الضحك يكون الأمل القائم على شجاعة الإنسان فى مواجهة المعنى الحزين للحياة !

- ولكن لماذا هذا العناء فى الحياة ؟

يجيب دورنمات : حتى إذا جلست وحدك ، فلست وحدك فهناك ضغط هائل عليك ، ضغط بعضى عائلى دينى سياسى إجتماعى .. أكثر من الضغط الجوى الواقف على دماغك واعصب من جاذبية الأرض التى تتعلق من أطراف أصابعك ..

... على الرغم من كل هذه الصعوبات التي تواجهه ... ويتحرك كما ... كان عصفور ويصيح كما لو كان حيوان ... ويطير ويتعثر كما لو كان إلهة ... تحدث عن الأشياء وهو في وسعيث عن الحيوان وهو ... ال ... ويقول أنا ... لا أحد يعرف أن كلمة أنا تنتمي الا إسم الشخص الوحيد الذي ... عصفور حيوان ... الناس والمشاكل والمتاعب والهموم ..

- فما الذي يجعل الإنسان حزينا هكذا ؟

والحيوان : هو إحساسه بكل ذلك وفي بعض الوقت عجزه عن عمل شيء ... بل العقل الإنساني ينطوي مع أنه لا ينطق في كل الذي حوله ... مثلا ... المنطق في أنك موجود على هذه الأرض ... أو أنت تعيش في هذه البلد ... في هذه الإسرة أو في هذا العصر ... تشتغل هذا الكلام ... لا ينطق ... وحينما تصرفه وأكثر حدائق حولنا ... صمت ... ونحن نحاول أن نجعلها ... بهجة ... مثلا ... رجلس إلى أي إنسان وسوف تجده يتحدث عن أحزانه ... وعن أخطاء الآخرين ... فكل الذي يربط بين الناس هو هذا الشعور ... بالتعب .. والندم فيما أن يكون قد أخطأ فعلا أو يخطئ ... يخشى فالخطأ ... موجود ... ومن المستحيل أن نحاول ... جيد ... هذا الخطأ بالرجوع إلى الحقيقة الأولى التي أوتيناها أبونا آدم وأمنا حواء ... عندما في حاجة إلى هذا الشعور ... بالزمن الطويل ... ويجب أن نفرق بين الشعور بالتعب والشعور بالخطيئة ... فالشعور بالتعب هو نوع من الحزن العصفور عندي ... فعله ... ونحن نريد ذلك ليلا ونهارا ..

أما الشعور بالخطيئة فهو التعب في مواجهة العدوان على قيمه نبيلة أو أخلاقيه ... مثلا ... إذ كان الشارع مثلا يتعرض ويخطئ بيتك وحدائق مسجد ... كنت موضع مسائلة فقد كان في إمكانك أن تخطف حذاءك ... أي لا معنى أن تدوس البيت .. وفي هذه الحالة سوف تعتذر أو أنك تعتذر بالتعب ثم تطلب العفو ... ولكن إذا كانت ... عن طريق ... التعب ... ويمكن أن يصبح ... تنظيف الحذاء سهلا ... ولما لم يعتذر فقد ... كان من ... أن تخطف حذاءك ... ولكن إذا قاطعت الأهل وهيب الأعصاب كما يحدث في مريك وفي البيت ... فإن أحدا لن ينظر إلى حذائك أو حتى يخطف ... معنى لأن تعتذر ... معنى لأن حذاءك ... فقر من الكرامة

لا ذنب ولا خطيئة !

ونحن الآن قد انتقلنا من عصر الذنوب والخطايا إلى عصر الكوارث حيث لا ذنب ولا عذر ولا غفران من أحد - وليس مطلوبا من أحد أن يفعل ذلك !

- فهل معنى ذلك أن الناس أبرياء ؟ الجواب : لا : بل إن الإنسان مذنب مجرم سفاح إلى أن تثبت براءته ، فلا أحد بريء في زماننا هذا .. لأن المطلوب من كل إنسان أن يكون له رأي وله موقف .. حتى لو لم تكن لهذه الإدانة أثر .. وهذه هي عظمة الانسان وعجزه أيضا فعظمة الانسان هي أنه في مواجهة كل القوى الطاغية في الكون وفي المجتمع يقول لا .

والأمثلة كثيرة في مسرحيات ديرنمات مثلا في مسرحية « رومولوس العظيم » . نجد أن الإمبراطور رومولوس وهو آخر ملوك الإمبراطوريه الرومانية الغربية ، قد أيقن انه يحكم دولة متعفنة منهارة ، وأن هذه الدولة يجب أن تموت .. وأنه لا يحق له أن يساعدها على البقاء .. فهي مثل مريض أصيب بمرض قاتل ، وهو يعاني سكرات الموت .. والطبيب لا يصح أن يخدع أحدا ، بل يجب أن يصارح أهل المريض مهما صايقهم ذلك .. وأن يرفض رغباتهم في علاجه .. فهذا الإمبراطور رومولوس رفض أن تقارم جيوشه زحف الجيوش الجرمانية الشابة .. ولذلك قرر أن يستسلم واختار للإمبراطوريه إلا تقاوم فلا داعي لأن يموت الألوف من أجل دولة ميتة .. وكان شجاعا في مواجهة كل قوانه وحكم التاريخ عليه .. واكتفى بأن يربي الدواجن ، ويراقبها وهي تبيض ويحرص على عدد البيض وعلى تناولها وتذوقها بشهية يوميه . فهو إمبراطور مستريح الضمير .. لم يكن سببا في مرض الإمبراطورية . وإنما كان شاهدا على موتها .. ساترا في جبارتها لا يدعي لنفسه البطولة او القدرة الخارقة ..

وفي مسرحية « هبط الملاك في بابل » نجد أن الدولة قد أعلنت الحرب على التسول وأن التسول ضد الإنسانية وضد الإشتراكية .. ولكن شحاذا إسمه « عاقبي » أصر أن يبقى شحاذا . فلا يحب إلا هذه المهنة .. وهو قادر على أن يكسب الكثير .. وحاول الملك أن يثنيه عن التسول « ولكن « عاقبي » قال : إن الملك لا يحس إلا أن يكون ملكا وأنا لا أتقن إلا فن التسول .. وكانت

سعداء قد هبط ملاك جميله إلى هذا الكون على الأرض ، هبط الملاك عندما
حق الملأ وتعاقر على بيهما يتعوق على الآخر في مهده الكون بعد ، عاقبي ،
فهو سعيد أما الملاك فمسكوره وذلك لم ومضع ! يكتب عليه فكان ذلك
الفجر الذي على الأرض وأحق الناس بالملاك الجميله فكانت من نصيبه ولكن
عندما عرفت أن هذا الشخص الذي نحسه هو الملاك رفضت أن تعيش معه
بها أحبت شخصاً وهبطت من أجله وحاولت الجنيه أن يصنع هذا الكائن
الجميل ولكنهم لم يصنع فحرروا طرقها من جديد أي أنهم رفضوا هذه
السعاده

وكان عاقبي سجع الناس في قبضته على مواجهة السعاده ولو لم يكن هناك
قاسه من ذلك

وفي مسرحيه « زيارة السيده العجوز » نجد أن البطله التي هلت في حبها
رحلت تطارد الرجل الذي جرح كبريائها فوجدته بعالاً وأحاطت بالغربه و علت
من حوله وعلمهم الطمع للجميع إنما هم حكموا بالاعدام على الرجل الهارب من
حبها وفوجئوا بأن السيده العجوز قد اشترت الغربه كلها ، وحاكموه وأدانوه
وحاولوا فراره ، كل يوم بدلها وابلها وواجهت كل الناس وتحكمت وسحبت
، لصحت قيمهم الأخلاقيه والنبيه عندما سيطرت على كل معتزيهم المدنيه
، لاجتماعيه ولقد أدانوه وحملوا إعدامه ، عجب هي عنه ي عيونهم هم
لاصبح كل واحد منهم مجرماً وجلاداً فهم القاتلون والقتلى أما الرجل الذي
حدث من حل القضاء عليه فكان هو الرجل الوحيد الشاهد على سفاله
الناس وكان الجميع ينظر الى الناس !

وفي مسرحيه « الشهداء » يعلن الأعداء والمسيحيين أن الأديب فخر الدين
على جاهزه يوبن في الأدب قد مات وتوافق الجماعتان لتكريمه من العداء
، المسرحيين ولكن الأديب لم يكن قد مات ويحاول الأعداء أن يقضوا على الأعداء
كذلك رجال الدين لأن عوديه للحياة فضيحه كبرى لهم جميعاً ثم إن البعد
الذي يراه المؤرخون ويتخصصون في الوراثه وقد اكتشف أن والده لم يمت بل عاد
فيصاب بالجنون

ولكن هذا الأديب مصر على أن يواجه كل الناس بشجاعه إنه يقدر قيمه
بطولته الذي مات وحياه السيد المسيح وبكر بعد أن عاد إلى بيته حيث يعاني مشكل

- مو حمس

وكنت بعمل في عمالة اعمد حبه به سعد ماعهم من مصدرين الكتاب المقدس وما به من قصص وحكايات وبطولات ومن الإسطير الأغريقيه ولكنه لا يكاد يعثر على القصه او الحكايه او الأسطورة حتى يتبع فيها الخطوات ويملأ بها الفراغ فتكون قادره على تفسير كل شيء او تفسيرها كما اشار على النحو الذي يرضيه ويشبعه ويقنعه . وتلمس الأسباب النفسيه والنفسيه وانا بحثه نجد الأديب السويسري ماكس فريش (٧٤ سنه) واحد من أعلام مسرح العبث في مسرحيه الحديد المعبر عن المعاني التي نجدها البائسين في اوروبا في مسرحيته ، مشعلو النيران ، يظهر أناس مجهولون محترفون الشروات والسكاكين ثلاثه من هؤلاء يطلبون ان يضيفوا في بيت احد السلاء ونعم عيشه يصعون براميل البترين في أماكن مختلفه من البيت ويصعون الفتيل الجاهز فيه والرجل يستبعد ان يكونوا من الذين يشعلون النيران في المنازل فهو قد حنفي بهم واطعمهم وعلم لهم الشمعدانيه والكراسي والسجاجيد وكان حديثه ودي معهم وأي مشعلو النيران ان احسن طريقه لخداع هذا الرجل السهل هو هوا الحقيقه فهو لن يصدقهم فقالوا له انهم سوف يحرقون هذا البيت والعديد كلها !

وهز الرجل الطيب رأسه بما معناه أنهم يمزحون فليس معقولا ان يعاقبوا الإحسان بالإساءه والحفاوه بالحريق و لإضافه بالوحشيه ..

ولكنهم أحرقوا البيت والرجل و لاسره و عشيره

ما السبب ؟ لا سبب .

ما الهدف ؟ لا هدف.

ويقول ماكس فريش انه قصد بهذه المسرحية ما حدث في تشكوسلوفاكيا عندما استعان الزعيم الشيوعي بالجماهير العريضه للقضاء على الحزب الشيوعي الذين صارحوه بأنهم سوف يسقطونه ولكنه لم يصدق !

وانه قصد هتلر ايضا عندما استعان بالأدباء والشعراء والفلاسفة وصارحهم بانه سوف يحرق اوروبا كلها وسوف يهدم على رؤوس الرأسماليين واليهود ولكنهم إستبعدوا ذلك عندما نظروا إلى الصروح المعماريه التي أقامها في المانيا ، ومصانعه للموسيقى وتشجيعه للمسرح والأعياد والحدائق

وحبه الشديد للأطفال .. فكثيرا ما أعلن هتلر أنه يتمنى أن يكون أب لعشرين طفلا فإذا القدر يجعله أبا لملايين الأطفال الألمان . وسعادا لهم أيضا !
وقد شاهدت الفيلم الذى أخرجته السيدة زوجته : شارلوت كير ، مخرجة التليفزيون الألمانى ، الفيلم مأخوذ من إسم إحدى مسرحياته : صورة لكوكب ..

والفيلم يستغرق عرضه أكثر من ساعتين .. وهو تحفة أدبية فنية . فالفيلم يبدأ بعرض لوحات لديرمات واللوحات مليئة بالطول والعرض واللوحات مليئة بالخطوط والأشكال والقوى والكائنات .. فالكون مليان والإنسان مليان بهذا الكون أيضا وهناك ضغط .. أو تضاغط .. الكون يضغط ونحن نضغط أيضا تماما كما نمشى فى الزحام يضغطنا الناس ونحن نضغطهم .. وفى هذه اللوحات كائنات غريبة .. البشرية منها حيوانية .. والحيوانية لها عيون بشرية .. لماذا ؟ لأن الإنسان فى حالة حرب ضد الوحوش . وآخر حرب يخوضها وسوف يخوضها الإنسان هى الحرب ضد الوحوش البشرية ..

ثم نرى ديرنمات يرسم لوحاته بيده اليمنى وبيده اليسرى .. واقفا ..

وديرمات يمكن فى بيتين متجاورين متجاورين واحد يعمل فيه .. والآخر ينام فيه ويلتقى بالضيوف . وهو يرسم أبطاله قبل أن يصممهم فى مسرحياته .

وقد اشتغل بالإخراج المسرحى بعض الوقت .. فهو يعيش أبطاله تماما .. فكرا ورسما وحركة ..

وبعد ذلك نرى ديرمات فى القطار لقد اعتذرت زوجته القطار لينحرك فيه .. إنه قطار العمر .. القطار يتحرك وهو يتحرك داخل القطار ويروى حياته بصوته الغليظ الخشن المتحمص حتى يصعب أن نفهم ما الذى يقوله عن بداية الفكر وبداية الإبداع .. وفى نفس الوقت يصرخ فى الكون الغامض القوى الجبار ولا يملك فى مواجهة كل ذلك وحده ومن أجل التفوق على نفسه وعلى غيره إلا أن يضحك .. فهذه هى الحرية الوحيدة المتاحة له . أن يضحك ..

وقد استراح ديرمات إلى الثور الإغريقى القديم مينوروس الذى له رأس ثور وجسم إنسان .. وهو القوة الباطشة الغاشمة .. ويجد من المناسب تماما أن يصف القوة فى زماننا بأنها مثل هذا الثور الهائج الأعمى .. وفى نفس الوقت يرى أن الحياة الإنسانية قد انحدرت من الثيران والأبقار مثلا أعلى هى القوة والحيوانية والخصوبة .. وفى هذا الفيلم نجد أن التلقيح الصناعى هو نموذج

للعلاقات الزوجية والتى لم تعد لا زوجية ولا إنسانية .. فالأطفال يجيئون من الأنابيب بلا زوجة ولا حب ولا أسرة .. وإنما حيوانية تمتد عبر الأدوات الحديثة للولادة والحضانة والتربية والاستمرار .. فهناك مزارع للدواجن ومزارع للأبقار ورياض للأطفال وملاجىء وسجون ومعسكرات للعمل وللقتال .. وكلها صورة مختلفة للثيران والأبقار أى للقوة الحيوانية التى نتحكم فيها بأجهزة علمية دقيقة ووفقا لنظريات حديثة .. فكأننا نحرص على أقدم أساليب الحياة ، باستخدام أحدث أساليب النظريات .. تماما كما نستخدم أحدث النظريات السياسية والاقتصادية فى مواجهة أحدث أساليب الدمار .. فالإنسانية لم تتقدم .. فلا نزال نحارب الوحوش والوحشية ، ولا نزال نسكن الكهوف ولا فارق كبيرا بين الحرب فى جزيرة هوكلاند وبين الحرب فوق المريخ .. ولا فرق بين الأخوين هابيل وقابيل وبين الزعيمين ريجان وجورباتشوف .. فإذا وجدت كلا منهما يدعو للسلام بصدق ، وفى نفس الوقت يبعث بسفن الفضاء تتجسس وتتصنت على العقول الإلكترونية ، ألا يبعث هذا الموقف الصادق فى كذبه على الضحك ؟!

قلت لديرمنات وزوجته : هذا هو آخر سؤال ؟

وكان ذلك فى بيته بالقرب من ديوشانل بعد أن امتد اللقاء ساعتين ، وبعد أن ارداد ظلام الطريق الملتوى الهابط إلى المدينة ، واتخذت السحب شكلا أسود سميكا ، وجعل المطر يدق الأشجار مثل دقات مسرح قديم : إن مسرحياتك تنتهى عادة بأن تضحك .. ولكن لم تسترح .. فأنت لم تقطع برأى فى شىء .. ومن المؤكد أنك اتخذت قرارا واحدا حاسما ناجعا هو أن يضحك المتفرجون .. أليست هكذا من المدرسة الطبيعية القديمة التى تسمى « اللاأدرية » . أى التى يقول كل واحد فيها : لا أدرى .. لا أدرى .. لا أعرف .. لأنك لست على يقين من شىء !

فقال بصورة قاطعة : نعم أنا كذلك .. فلا يوجد دليل واحد قاطع على أى شىء فى هذا الكون .. الله مثلا

ظلت فى نفسى : أعوذ بالله !!

ولكنه مضى يقول : الله مثلا .. ألف تفسير وتعليل له .. وكل واحد

ـــخرج من علمه ومن خياله المعنى الذى يريد .. ونشأة الكون ونهاية الكون ، أصل الإنسان ونهاية الإنسان كل هذه المعانى وغيرها لا يوجد أى دليل قاطع مقنع . وإنما هى تغيير وتبدل حسب الأشخاص . فأنا لا أدرى وليس عندى وقت لكى أدرى .. ولا أستطيع أن أضيع عمرى فى البحث عن هذه المعانى ، دون أن يكون لهذا البحث جدوى مسرحية .. لأن المسرح هو الطريق والهدف إلى كل ما أرى ..

ولما نظرت إليه وجدته ما يزال منحنيا مستعدا لمزيد من المناقشة . قلت : ماذا لم يناسب من أسئلتى ، وأنا لم أتناسب من أجوبتك دعنى أذكرك بشىء قديم .. فعندما قابلتك هنا لأول مرة سنة ١٩٦٦ قلت لى إنك لا تعرف أدبا عربيا واحدا .. ولم تقرأ إلا « ألف ليلة » وكتابا لكاتب لبنانى إسمه أرسلان .. ألا تزال عند هذا القدر القليل جدا من المعرفة بالأدب العربى والفكر العربى ، رغم أنك مسافر إلى مصر ، وقبل ذلك سافرت إلى الصحراء المغربية وقبلها إلى إسرائيل قلب المشاكل فى الشرق العربى ؟

أجاب بسرعة : بل قرأت فى الأدب العربى والفلسفة العربية وتاريخ العصور الوسطى أيضا .. فأنا سافرت مع زوجتى لتصوير فيلم عن الصحراء .. وسافرت إلى إسرائيل وكتبت عنها .. وعرفت أثر الفلسفة الإسلامية على أوروبا .. وأثر الأسبان على المغرب العربى .. الأسبان وليس العرب .. وتوقفت طويلا عند العلاقة بين الاديان والصراع بين المذاهب الإسلامية .

سألت : ألا تذكر أنك قلت لى أيضا أنك اهتديت إلى أن الشيوعية طبعت فى إحدى الدول الأوربية قبل ظهور الماركسية بمئات السنين .. وأنك سوف تجعل منها مسرحية ..

قال : قلت ذلك والمسرحية ظهرت على مسرح ريورج .. فالشيوعية أكثر انتشارا فى الدولة التى تدين بالبروتستانتية .. ولكن الشيوعية أول ما ظهرت كانت عندكم فى الشرق .. فى بلاد فارس .. عند مزدك الذى تأثر بتعاليم النبى زرادشت والذى تأثر به الفيلسوف المصرى أفلاطون ..

قلت : ولكن هذه الشيوعية التى ظهرت فى فارس كانت أكثر وضوحا عند جماعة « الأسينيين » أو « الأطهار » الذين عاشوا فى شمال البحر الميت ..

وكان السيد المسيح يتردد عليهم .. وقد ظهرت فلسفتهم وقصة حياتهم فى « مخطوطات البحر الميت » .

قال : نعم ولكن عند العرس كانت شيوعيه مطلقه .. لا مجرد تحريم استخدام الذهب أو التعامل بالنقد .. كما كان عند هؤلاء الأسينيين ..

★ ★ ★

وكنت قد زرت الأديب السويسرى ديرنمات بزقاقة منفرد فى سويسرا محمد توفيق عبد الفتاح الذى قام بدور المصور - رحمه الله والتقط له أول صورة نشرت فى الصحف المصرية والمجلات العربية مع الأديب وزوجته الأولى .. وكانت ممثلة ألمانية .. وبعد وفاتها تزوج منذ سنتين وتصف مخرجة التليفزيون الألمانى . شارلوت كير التى أخرجت سلسلة بعنوان « صورة .. » لعدد من الفنانين والموسيقيين والمخرجين من بينهم السيدة ميليا مركورى .. والموسيقار اليونانى الشيوعى تيودر راكس مؤلف موسيقى فيلم « زوربا » وعدد من الفنانين الأمريكان أيضا ..

ومن الأمانة التاريخية أن أعترف بأسى بأنه على قد . ثروت عكاشة وزير الثقافة فى ذلك الوقت وجهت دعوة للأديبين فريد ريش ديرنمات وماكس فريش لزيارة مصر سنة ١٩٦٧ ولكن لسبب ما ، لم يبعث د. ثروت عكاشة بهذه الدعوة الرسمية .. فسبقتنا إسرائيل ووجهت الدعوة لماكس فريش ثم منعته جائزة المعرض الدولى للكتاب عن مسرحيته الشهيرة « أندورا » التى يهاجم فيها العداء للسامية .. وبعد ذلك وجهت الدعوة لديرنمات أيضا .

★ ★ ★

وقد ترجمت لنا لديرنمات من عشرين عاما مسرحيات : رومولوس العظيم التى ظهرت على المسرح ، بطولة صلاح منصور وزوزو نبيل واخراج سمير العصفورى .. ومن الصدف العجيبة أن يقوم المرحوم صلاح منصور ببطولة رومولوس آخر ملوك الإمبراطورية الرومانية الغربية ويقوم على الشاشة بدور فاروق آخر ملوك مصر ثم الإمام أحمد اخر ملوك اليمن !!

ومسرحية « هبط الملاك في بابل » التي ظهرت سنة ١٩٥٣ سنة سلطان زمانه » بطولة عبد الله غيث ومشيرة اسماعيل . ومسرحية « الشهاب » بطولة ابراهيم سكر .. ومن اخراج د. فاروق النمر باش وكان إخراجها حدثا هاما صدرها فهي مسرحية حديثة فاخرجها على مسرح اغريقي دائري !!

وأرجو أن يصحح هذه النقطة المخرج سمير العصفوري .

ثم مسرحية « الزيارة » التي سبق أن ترجمها المرحوم سعد توفيق

وهي مسرحيه « زواج السيد مسيسبي » والتي حملت اسمها هي « عشقها ..

وترجمت له الأديبه اوسيمه جانو المحرره بمجله « أكتوبر » عدد من مسلسلات الإذاعية والمسرحيات في لغه عربية سليمة رصينة .

أما روسي مسرحياته التي ظهرت في القاهرة فهي « علماء الطبيعة » من ترجمه د. عبد الرحمن بدوي .

وكانت دعوه الأديب السويسري لمصر إنعاشا للحركه الأدبيه والنقد الأدبي ..

وقد أسهز هذه الفرصة لأطلب من د. ممدوح البلدجي والذي تعلم في باريس وعاش بها سنوات طويلة وعرف حياتها الأدبية والفنية ان يوجه دعوة إلى أديبة تكتب بالفرنسيه وتباهي دائما بانها مصرية .. ولكن أحدا من مصر لا يذكرها ولا يشكرها انها السيده « أندريه شديد » وقد ألفت عددا مصارا من المسرحيات والروايات .. بعضها مستوحاة من التاريخ الفرعوني والتاريخ الحديث أيضا . ولم تظهر في اللغة العربية إلا رواياتها « اليوم السادس » وهي مجلة أدبية وقد اتخذت موضوعا لها الكوليرا في مصر ..

وقد رأيت السيدة أندريه شديد في التليفزيون السويسري وهم يناقشون حديث أعمالها الأدبيه فقدمت نفسها . إنني أديبة مصريه ..

وهي من أصل لبناني وولدت في مصر وزوجها طبيب لبناني يعمل في معهد باستور « بباريس وقد قابلتها في القاهرة وفي باريس مع عدد من الأدباء المصريين والسيدة أندريه شديد بكل الموازين الأدبية والفنية « أديبة ممتازة وإن كانت تكتب بالفرنسية « فإن لغتها الفرنسية رفيعة تماما . وإذا كانوا قد حجبوا عنها الجوائز الأدبيه التي تستحقها « فلأنها أجنبية . فإن رصيدها بمصريتها . قد أضاف إلى تاريخنا الأدبي الحديث أحلى أديبه عربية في كل العصور ..

حياته كلماته..هذه قاعدة

حياته .. كلماته .. لغته قاعدة ..

طفلاً يتيماً .. فرياد جده .. ولكن كان سارتر وحيداً أي أكثر عزلة من أي طفل يتيم .. وهي هذه المرحلة من حياته تولدت عنده كل الأفكار الأساسية لفلسفته بعد ذلك : الوحدة .. العزلة .. التأمل .. الحرية .. والأصالة أيضاً . .

ونحن عندما نقف أمام سارتر هذا الموقف فقد احترمنا له أعز الأفكار لديه . فهو الذي يرى أن الناقد يجب أن يكتب عن إنسان ما زال حيا . لأنه ما دام حيا فالكلمة الأخيرة لم ينطقها بعد . ولكن بعد أن يطبق عينيه وأذنيه ، فمن حقنا أن نتناوله كأثر أدبي . كشيء . وبذلك يصبح النقد علميا .

ومع ذلك فسارتر نفسه أصدر كتابا ضخما عن الأديب جان جينيه . وهذا الكتاب يعتبر من أروع الأعمال النقدية في القرن العشرين . وجان جينيه ما زال حيا ، لم يكمل رسالته بعد . ولكن سارتر تناول من حياة جان جينيه طفولته ، وأثر هذه الطفولة على حياته وأثر جان جينيه على الطفولة لكل أبناء الطبقة المتوسطة . وسارتر إذن اختار جان جينيه الذي مات .. أي الطفل الذي كان في يوم من الأيام . وكل طفولة لأي إنسان هي مرحلة تمت . وكملت . ولا نستطيع أن نضيف إليها شيئا . ولا أن نحذف منها شيئا . كل ما نستطيع هو أن نعترف بها أو ننكرها . أو نعيش في الطفولة باعتبارها موقفا إجماعيا ، من حريتنا الصغيرة في هذا الموقف . فكل حرية هي حرية في موقف . تتحدد بالنسبة للموقف . ويتحدد بها الموقف أيضا .

فعبقرية سارتر كطفل هي الموقف النموذجي لكل من يريد أن يتناول حياته ..

وحتى الذين كتبوا عن حياة سارتر لم يفرقوا بين سارتر الإنسان ، وبين سارتر الأديب أو الفيلسوف . فسارتر هو فلسفته . فسارتر هو رواياته ومسرحياته ومقالاته .

ولذلك جاءت كل الكتب التي تناولت حياة سارتر نوعا من البحث البوليسي عن وجه الشبه بين سارتر وبين شخصياته .. مقارنة مستمرة بين شخصية « ماتيو » في رواية « سبل الحرية » بأجزائها الثلاثة .. وبين الفتى فلوريبه في قصة « طفولة رئيس » وبين الفتى فرانس في مسرحية « سجناء ألتونا » .. الخ .

ومن الممكن أن نجد هناك شبها . ولكن من الصعب أن نجعل الشبه تاما بين سارتر الفيلسوف وبين البطل أنطوان روكنتان في رواية « الغثيان » . وإن كان سارتر قد أجرى على لسان هذا البطل كل أفكاره الوجودية وكيف تفتحت له الدنيا معنى معنى .. وكلمة كلمة .. وكيف تحول البطل إلى مرصد دقيق جديد وسط غابة من المعاني المتعشة .. وكيف شعر بالدوخة وبالغثيان والقرف والملل والصياع وسط هذا الأوركسترا الصاخب من المعاني البكر .. ولكن ليس من المستحيل أن يكون سارتر هو هذا الفتى ..

والناقد هنا يتحول إلى قارىء كتب أو إلى أحد علماء الفراسة ..

* * *

ولذلك ليس أمامنا إلا أن نرجع إلى ما كتبته صديقته الأديبة سيمون دي بوفوار . فقد كتبت الكثير عن سارتر الطالب والزميل والصديق والحبيب والإنسان القلق والأستاذ .. ثم الزوج ..

وهي لا تصور في مذكراتها إلا جانبا من حياة سارتر . ولكن تفاصيل حياته ، ومشاكله اليومية الصغيرة ، لا نعرف منها إلا القليل جدا . فهل حياة سارتر خلت من الأشياء الصغيرة ؟ هل حياة سارتر كانت كلها قضايا فلسفية ؟ نعم كانت حياته فكرا وبحثا عن أفكار جديدة . ولم يكن سارتر يفرح بالعثور على شيء جديد . وإنما كان يفرح جدا ، عندما يجد إسما ، لهذا الشيء الجديد .

فالتجربة الحية لا يهمه أن يشعر بمرارتها ، بقدر أن يستسلم لها ويمد يده إلى « جيوب التجربة » ينشل اسمها السري وطريقة استعمالها .. وسيمون دي بوفوار تقول لنا : إنها كانت مشغولة بمعانقة الحياة الحارة .. أما سارتر فكان مشغولا بالبحث عن تسمية لهذه التجربة . وعن قاعدة لكل التجارب المماثلة ..

وليس أمامنا إلا أن نرجع لبعض ما كتبه تلامذته . وتلاميذه مخلصون . ولا يرون في سارتر إلا فيلسوفا يتنفس فكرا . ويبررون في تقديسه . وبذلك يجسمون الفيلسوف . فهم يضيفون إليه صفات ليست فيه .. أو صفات تجعل منه إنسانا آخر . ويمنعه الحياء أن يدافع عن نفسه ، مكتفيا بأن كتبه هي أوراق اعتماده . وأنه ما يزال على قيد الحياة ، وفي إمكانه أن يروي للناس الحقيقة .

ولم يكتب سارتر إلا جانبا ضئيلا من حياته في كتابه « الكلمات » . وفي هذا الكتاب يحكي لنا سارتر قصة اكتشافه للكلمة واللغة والكتب وعالم الأدب . وعرض لنا في بعض الوقت البذور الأولى للفيلسوف سارتر ..

وفي كتاب الكلمات نجد أن سارتر قد صوره لنا نوعا من الوجود « اللغوي » .. وطفولته ليست إلا عشرات من الكتب : هي الأرض والسقف والجدران والموائد والهواء والسماء .. هذه الكتب هي دنياه بكل ما فيها من مثل عليا قديمة وجديدة . ومثل عليا يمكن تمييزها .. حتى الله قد عثر عليه سارتر . وأحس أمام الله أنه « عبود » . وأنه لذلك من حقه أن يعمل كما يشاء ، فالله قد أنكره قبل أن يعترف به سارتر ..

ولفلسفته .. تدين فلسفة القرن العشرين كله . فالوجودية ما تزال أحد تفسيرات الحياة في العصر الحديث . ولا يزال سارتر هو أهم معالم الحياة والفكر في فرنسا .

وفي طفولة سارتر شعور واحد واضح . وقد ازداد عمقا ووضوحا بمرور التجربة . فسارتر ما يزال يشعر بالغربة في هذا العالم . فهو غريب في العالم . وهو غريب عنه أيضا . وفلسفة سارتر هي محاولة مستمرة لعقد صداقة مع هذا العالم . أو للتعارف .

وسارتر هو الذي يتقدم عادة . وهو الذي يسأل وهو الذي ينتظر في صمت جاد جدا أي جواب . ثم يعود يسأل وينتظر .

وهذا الشعور بالغربة بدأ عند سارتر الطفل شعورا بأنه يتيم ..

فقد مات أبوه وهو في الثانية من عمره .. وتزوجت أمه مرة أخرى وهو في الحادية عشرة من عمره . وفي هذه الفترة عاش سارتر في بيت جده . وجده من عائلة اشفيتسر العشهورة في منطقة الألزاس الفرنسية الألمانية . ولم يجد سارتر أباه وإنما وجد رجلا آخر هو : جده لأمه .. ولم يجد أمه وإنما وجد

مربية ألمانية لم يجد لعب الأطفال ، وإنما وجد الكتب الكثيرة جدا . وكل كتاب من هذه الكتب هو مثل صندوق الأعاجيب ، مليء بالأشخاص والمعانى والحيل والأكاذيب .. واكتشف أن الكاتب هو أكبر ساحر . فهو قادر على أن يخلق أشخاصا وحوادث وبيوتا وقصورا وكنوزا . وأن القارىء يستطيع أن يتعلم بكل ما يتعلم به أغنى الأغنياء . واقتنع سارتر بأنه يستطيع أن يكون هو شخصيا صانعا للمعجزات . في استطاعته أن يكتب . وقد كتب منذ الصفحات وهو في التاسعة من عمره ، كتب قصصا قصيرة . ونظم قصائد شريانية . ووضع مشروعا لمسرحيات يقوم هو بدور البطولة فيها .. وأقام لنفسه حفلة تكريم باعتباره مؤلفا صغيرا ثم مولى هو بعد أعماله الأدبية .. كل هذا فعله وهو دون العاشرة ..

وأصبح من المؤكد لديه أن « علي بابا » ليس هو الإنسان الوحيد الذي يستطيع بكلمة : إفتح يا سمسم أن يجد نفسه أمام كنوز « ألف ليلة وليلة » .. وأن كل كاتب هو علي بابا وهو كنوز ألف ليلة وليلة .. وهو مليون ليلة وليلة .. وأنه قادر على هذا كله . وأنه سوف يكون هذا كله ..

ورغم هذا الثراء الأدبي والفني في حياة الطفل سارتر فإنه كان مليئا بالوحدة .. بالعزلة .. فقد أحس أنه وحده . وأنه بلا أب . ولا أم . وأنه يتيم . ولم يقبل سارتر أن يكون موضوع شفقة من أحد . فقد كان يرفض إشفاق الآخرين عليه . حتى تصور بعض أقاربه أنه إنسان شاذ . فهو لا يفتقد الأب أو الأم . وأحس سارتر أنه ليس مطالبا باحترام أحد . وليس مطالبا بالتزام آداب السلوك ولا أصول العلاقات الاجتماعية . وليس أسهل من أن يسمعهم يهمسون : أن أحدا لم يعلمه ذلك !

ومعنى هذا أن أسرته قد أعفته من كثير من الآداب الاجتماعية التي يجب أن يلتزمها كل طفل كل طفل له أب وله أم .

ولم يشعر سارتر الطفل أنه يملك شيئا ..

أو أن شيئا يملكه . فهو لاينتمي إلى أحد ، ولا أحد ينتمي إليه ... فهو ليس ابن فلان ، وليس فلان أباه ..

وستعرفه عالم الكتب . وستعرفه العالم الجديد الذي اكتشفه . وتحول إلى « سندباد » وإلى « جالبير » وإلى « أليس » في بلاد العجائب ..

وأحس بأنه ليس من الضروري أن يكون للإنسان أم . فالمدرسية تكفي ..
وليس من الضروري أن يكون للإنسان أب . فالمدرس يكفي .
وليس من الضروري أن تكون للطفل لعبة جميلة ، فأي كتاب يكفي ..
وليس من الضروري أن يعتمد الإنسان على أبويه . فهي استطاعته أن يستقل عنهما . وأن يفكر وحده ووحده .

وسارتر كان طفلا غير عادي . بل إنه لم يكن طفلا على الإطلاق . فقد تحول عالم الرجوله بسرعة . أو ولد رجلا . وفي نفس اللحظة التي اكتشف قدراته على التخيل والإبداع ، أي على المشاركة في الخلق ، اكتشف قدرته على الوقوف على قدميه : أي على أن يكون حرا في اختيار القيم التي تعجبه . وإذا حدارد أصبح مسئولا عن النتائج بعد ذلك .. إن لقد اختار سارتر الهم في سن مبكرة . فالحرية ثقيلة لأنه لا يعيش بلا مسئولية . والمسئولية عبء . وهذا العبء هم ثقيل .

فهو طفل مهموم . وقد كبر الطفل وما يزال الرجل مهموما ..

وسارتر لأنه من أسرة متدينة كاثوليكيه . فهو متدين . أو على الأصح . فهو رجل أخلاقي . وهيه مثالية واضحة . فهو يرى أن موقفه هذا كطفل . يجب أن يتحده كل إنسان . كل طفل . والويل للطفل الذي لم يستمتع عن أبويه وعن الشعور بهما في سن مبكرة .

وليس غريبا أن يختار سارتر الشاعر بودلير نموذجا للدراسة .

فالشاعر بودلير مات أبوه . وتزوجت أمه . ولكنه لم يفعل مثل الطفل سارتر . وهذه عقلية وجودية قطعية ، ولم يرحمه سارتر من النقد العنيف ..

فبودلير كان قد تعلق بأمه . واعتمد عليها . ورأى فيها مصدر قوته . ووسيلته إلى الوجود . فوجوده كان متوقفا على وجود أمه . فلما تزوجت أمه ، أحس بودلير أنه ضاع أن عملاته ليس لها رصيد . أنه في عالم فقد قوة الجاذبية .. أنه في منطقة إنعدام الوزن ..

لقد كان زواج أم بودلير تصفيه للوجود .. كأن الدنيا كلها قد أصابها مزيقه .. لم تعد له قيمة . ولم تعد للدنيا كلها قيمة . وأنه ليس لديه ما يعطيه فلا أهمية له . ولا أهمية لعمه . ولا أهمية للعالم كله .. لقد أصبحت الدنيا عبثا . أو العبث نفسه !

●●●

وغلطة بودلير - في رأي سارتر - هو أنه جعل من أمه إلها .. جعلها المطلق في نعياه ..

ولذلك عندما تزوجت أمه أحس انه بلا إله !

وكان هي استطاعته أن يقرر أن أمه قد فقدها . وفي نفس الوقت يختار أن يعيش بنفسه . وأن يعتمد على نفسه ، وأن يختار قيمه الأخلاقية .

ولكن بودلير ، لكي ينفي نفسه من أعباء المسئولية ، قرر أن يظل صغيرا . قرر ألا يكبر . ألا ينضج . أي أن يظل معتمدا على أمه .

وهذا الاعتماد على أمه ، جعله غير حر .. أي جعله غير مسئول . فبودلير هو الذي رفض الحرية ورفض المسئولية .. واختار أن يظل « عالة » على أمه .. أي أن يظل يعتقد تذبها ليرضعه . وعندما لايجد لدى أمه يتوهم أن هناك ثديا . وهذا الوهم يؤكد أنه طفل . وأنه حريص على أن يكون طفلا . وعلى أنه يرفض حريته !

وعندما تناول سارتر أديباً آخر هو جان جينيه ، جعله نموذجا للعار الوجودي ..

فجان جينيه لقيط . لايعرف له أبا ولا أما . وهو لص أيضا . وعندما وصمه الناس بأنه لص . قرر أن يكون كما أراد الناس وبالفعل . وهو شاذ جنسيا . وعرفه الناس بأنه شاذ . فقرر أن يظل كذلك . فهو يواجه الناس بما يخجل منه الناس عادة .

وجان جينيه يتيم الأبوين . يتيم الأسرة . يتيم الطبقة . فهو انسان قرر أن يصنع قيمه بنفسه . سواء كانت هذه القيم خاطئة أو سليمة . فهو الذي قررها . وهو الذي اختارها . والتزمها . وواجه الناس بعد ذلك بشجاعة . فهو لم يهرب من حريته في أن يختار . وهو يرحب بالشعور باليتم ، لأنه يحرره من قيود الأب والأم والأسرة والعائلة والطبقة .

وقد تناول سارتر هذا الموقف في قصة قصيرة له نجد فيها البطل يتهمه الناس بأنه يكره اليهود .. ويواجه الناس بأنه يكره اليهود فعلا ويبصم إلى الحزب الفاشي . وبذلك يتأكد موقفه في مواجهة الناس ، فاذا وصمه الناس بسبب ، فإنه يرد الوصمة إلى الناس بأن يتمسك بها ، فالناس لايحبونه ، وفي استطاعته الشجاعة والتمسك بقيمه ويواجههم . وهو يواجههم باختياره لقيمه أخلاقه .. هذه القيمة تصدم الناس .. ولكنها حريته التي اختارت موقفا ...

ولأن سارتر رجل أخلاق ، أى مفكر أخلاقى ، فهو يرى أن الحرية تؤكد المسئولية . وأن المسئولية ليست فردية . وإنما هى أجتماعية أيضا . فالذى يختار ، يختار لنفسه ، ويختار لكل الناس أيضا أى أنه يعمل ما يجب أن يعمله كل الناس ..

ومن هنا كانت الحرية أخلاقية أيضا ..

وإذا كان بعض الفلاسفة قد أختاروا شذوذهم ، فسارتر لايحبذ الشذوذ ، ولكن يحبذ شجاعة الاختيار ، وشجاعة المسئولية . وشجاعة المواجهة ..

ومرة ثالثة يواجه سارتر موقفا من اليتم العربى : صديقته سيمون دى بوفوار ..

فهى فتاة من أسرة متدينة . لها أب ولها أم ولها طبقة أجتماعيه ثرية . وهى مختلفة عنه تماما . وهى فى نفس الوقت محرومة من كل حريات الأيتام والفقراء . فهى مشدودة إلى مثاليات الأب الكاثوليكى ، وإلى أخلاقيات الأم المتدينة . ومربوطة من أنوثتها . وعندها شعور طبقى ..

وسارتر نفسه يرى أنه ليس يتيما . وإنما يرى أنه لقيط ، وهو لقيط مثالى لأنه ليس بالفعل لقيطا ولكن هذا شعوره ، فهو شىء

والفرق بين سارتر وبين جان جينيه . أن سارتر اختار ان يكون لقيط . بينما جان جينيه فقد وجد نفسه لقيطا . وأصر على أن يعامله الناس كلقيط .

أما سيمون دى بوفوار فقد اختارت هى الأخرى أن تكون ، لقيطة ، فحقرت كل الأخلاقيات العائلية والطبقية . وعاشت حياتها . وقررت أن تتزوج سارتر . ولكن بغير ونيقة . فهى لا تحترم أخلاقيات طبقتها . ولامثاليات أمها أو أبيها . أو أهلها أو نسبها .

واختارت هى أيضا أن تكون لقيطة مثالية .

وليس سارتر هو وحده اليتيم أو اللقيط ، وإنما الإنسان كل إنسان فالإنسان وحده على هذه الأرض . وعليه أن يكتشف بنفسه كل ما فى الدنيا من قوانين ومن معادن . لا أحد يساعده . وإنما هو وحده .. وكأنه سقط من كوكب آخر

والعالم الذى نعيش فيه غريب عنا . ونحن غرباء عنه أيضا . والأشياء التى حولنا بعيدة . وليس لها معنى . وإنما نحن الذين نعطيها المعنى . ونحن الذين نختار لها الطعم . والوزن والجمال والضرورة .

ولأن كل ما فى الدنيا ليس ضروريا ، ولا نحن ضروريون أيضا ، فمن الممكن ألا يكون هذا العالم . ومن الممكن ألا نكون نحن أيضا . فشىء لا نعرف مادا سيحدث لنا أو لغيرنا . نحن لا نعرف شىء فالوجود مخيف لا أمان فيه . ولا أمان له . بل إن الإنسان يحس دائما أن الوجود سيمسك به من الحلق . وأنه سيجد نفسه موجودا بصورة مباغتة وهو لذلك يرى أن يواجه الوجود . أن يواجه الدنيا . لا أن تواجهه الدنيا ..

هذه النظرية للوجود ، أو النظرية له فى مواجهة الوجود قد صورها سارتر فى أروع صورة فى الأدب العالمى فى رواية « **القثيان** » .

ولا شك أن الوجود الإنسانى بهذه الصورة رهيب مخيف . تماما كالعالم الذى يراه طفل يتيم ويقرر أنه وحده قادر على أن يكون أب وأما وإلها لنفسه ! .

ولم يفلح سارتر فى أن يتخلص من مخاوف الطفولة .. مخاوف الغربة فى هذا العالم . بل إنه كثيرا ما أحس بأن هناك أشباحا مفترسة وكثيرا ما سقط على فراشه يلهث خائفا .

وخافت سيمون دى بوفوار على سارتر أن يصاب بالجنون . ولكن سارتر حاول أن يتخلص من هذه المخاوف بأن يخلعها على شخص فرانسس فى مسرحية « **سجناء أنطونا** » .. فهى هذه المسرحية نجد أن فرانسس هذا يتحول محكمة من الأشباح المتوحشة تستجديه وتحكم عليه بالإعدام ..

ولكن هذه الأشباح لم تختف بعد من خيال سارتر . فهو ما يزال فريسة للمخاوف والهموم .. ولكنه - كأى طفل عملاق - قرر أن يواجه طفولته . وأن يواجه شعوره بالغربة ، وأن يملأ الدنيا بالمعانى والعلاقات ، وأن يحتارها ..

وليست طفولة سارتر إلا بداية للخيوط الذهبية الحريرية الملتهبة أيضا .

أما كيف تحولت الخيوط بعد ذلك .. وكيف أصبحت ، فهذه بقية حياة سارتر .. وما كانت حياته إلا كتبه . فقد كانت دنياه كلمات تعيش على كلمات ..

فهى البدء كانت « الكلمة » .. وفى النهاية تجىء الكلمة أيضا !

ريلكه : الناى الحزين على الإنسان

ريلكه : الشاعر الحزين على الإنسان

هناك نوع من الشخصيات التي تملأ العقل والقلب وتظل تقترب منك وتستولي عليك حتى ترى من خلالها هذه الدنيا .. إنها تشبه العدسات التي تلصق بالعين .. فتكون هي نفسها العين .. ولكنها كالعدسات الملصقة تلهب العين وتوجعها فلا تجد مفرا من نزعها من فوق العين . هذا الشاعر الألماني ريلكه الذي ولد من مائة سنة وأكثر (١٨٧٥) هو واحد من هؤلاء الأصدقاء الذين تعذبت بهم سنوات طويلة . لا أعرف من أين جاء ولا كيف ولا لماذا .. إنه عكر صفو طعامي وفي شرابي وفي نومي وجعل دنياي سوداء وأمالي مبددة .. وأفقدني الشعور بأن لهذه الدنيا أي طعم وأي معنى .

ولم أكن أعرفه وإنما فجأة وجدتني أردد إسمه .. وأكرر معانيه .. ولا أدري أن هذا الذي أفعله يزلزل نفسي ويعصف بعقلي .. ولم أتبين ذلك إلا بعد وقت طويل ..

كان ذلك في يوم من الأيام .. وقد تفضل أحد أساتذة كلية الآداب فجلس إلي على المقهى .. وهذا سلوك عجيب .. فهذا الرجل لم يكن يتزلف لي .. ولكنا كنا نعرفه .. إنه د. عبد الهادي أبو ريده أستاذ الفلسفة الإسلامية في ذلك الوقت ومترجم لواحد من أهم كتب الفلسفة .. ترجمه من الألمانية إلى لغة عربية فصيحة . شيء عجيب كيف يستطيع ذلك أي مصري ؟ وكنا في ذلك الوقت نعاني من ويلات اللغة الألمانية هي دراستها وحفظ قواعدها وقراءتها وترجمتها .. وفجأة وجدنا الرجل يخرج من حقيبته مع السندويشات نسخة من مجلة « الثقافة » ويقرأ لنا مقالا منشورا له .. إن هذا المقال هو حلقة في سلسلة من المقالات بعنوان « رسائل إلى شاعر شاب » وهذه المقالات مترجمة عن

الألمانيه ومن تأليف الشاعر الألماني ريلكه ماريا ريلكه .. وكانت هذه أول مره اسمع فيها إسم هذا الشاعر . وبعد ذلك سمعت له كثيرا ، واستمعت إليه طويلا .. وقد سهرنا الدكتور أبو ريده ببساطة سلوكه وفصاحه عبارته .. ثم تركنا وحدنا مع الشاعر ريلكه وحده !

وكانت تدرس لنا اللغة الألمانية في ذلك الوقت سيدة سويديه عجوز إسمها السيده برج . وكانت تسكن بالقرب من كوبرى الجيزة .. ولها سيارة فى مثل سنها .. وكثيرا ما طلبت إلينا أن نعاونها على تحريك السيارة . وكنا نفعل ذلك .. وكثيرا ما طلبنا دفع السيارة حتى باب بيتها .

وفي إحدى المرات رأينا رسيلة ألمانية كانت تدرس اللغة العربية فراحت تضحك .. وتقول . هذه دبوعة .. سوف تكونون عظماء هذا العصر ! أولا هذه السيدة العجوز !

ولم أفهم هذه النكته . واستوضحتها وعرفت أنها تشير إلى حادثة مشهورة في الفكر الأوروبي . فقد حدث أن أحب ثلاثة من العظماء امرأة واحدة في وقت واحد . وأصرت هذه الحسناء على أن تركب عربة يجرها هؤلاء الثلاثة وراحوا .. والتقطت صورة للفتاة الجميلة اليهودية « لو أندريا سالومى » وقد تعلق في هذه العربة : العالم الكبير فرويد والفيلسوف العظيم نيتشه والشاعر الرقيق ريلكه !

وظل الشاعر قريبا من نفسي ومن أهم الدوائر التي أروبها في مناسبات كثيرة .

وفي يوم ذهبت مع الشاعر عبد الرحمن صدقي إلى سور الازبكية .. واشتريت عشرات الكتب .. ولكن أهم هذه الكتب كتاب بعنوان « غرامیات ريلكه في مصر » ولم أكن اعرف أنه جاء إلى هنا .. أو أحب من هنا مصرية جميلة سحيقة كانت هي أيضا شاعرة .. وهي التي قال فيها : أنت كالوردة .. فالوردة عشرات من الأجفان بلا عين ترى .. أنت أجفان لعيني التي تراك »

وكانت المصرية التي أحبت الشاعر وأحبها إسمها « نعمت علوى » .. وفرحت بالإكتشاف .. وعشت معه .. وكتبته في مقال نشرته مجلة « آخر ساعة » من عشرين عاما ..

وروبيه في نهاية المقال كيف مات الشاعر ريلكه وكيف ان وردة وحربه ظلت ذابلا .. كأن وردة قد وحرب وردة .. أو كأن وردة قتلت وردة لقد مات الشاعر على الحديث .. ولم يبق مريضا وقتا طويلا .. بل إنه لم يكن في صحة جيدة طوال حياته . إنه عرف من هذه الدنيا إثنين . المرض والمرأة . وكلاهما مرض !

شيء غريب جدا وقاه هذا الرجل فقد طلب إلى صاحبة البيت الذي يسكنه أن يحضر له كأس وردته الحمراء قد فتحت . فعادت صاحبة البيت لتقول له : فتحت يا سيدي ! وأغمض الشاعر عينيه ليموت .. كأنه أراد أن يكون لون الوردة واسمها وصداها هو آخر مايتزود به من هذه الدنيا .. وأطبق جفنيه وأذنيه ونفسه على ما سمع ومات !

وكنت أهز رأسي مصدقا وغير مصدق . . ولكن حدث أيضا أن مرض والدي في إحدى عوامات النيل . . وكنت أزوره وأحفي دموعي حتى لا يراها . . وفي يوم وجدت إخوتي كلهم يسألون عني . إذهب . . إنه يريد أن يراك . إنه لا ينام . . إنه يريدك . . وذهبت . . وسألني والدي : هل نجحت ؟ فقلت : نعم . وهل جاء ترتيبك الأول في الليسانس ؟ فقلت : نعم .

وأغمض عينيه وأذنيه على هذه الكلمات ، وكأنه الشاعر ريلكه . . ومات !

وتحيرت المعاني في رأسي . . ودوختني الحزن عليه . . وأرهقني أن أكون أهز من رأى وأحر من سمع ، وأن يكون نجاحي هو الكفن الأبيض الذي تمطى به ، واستراح تحته إلى الأبد . . شيء غريب أن يدفن آخر الناس وهو يستحلك . . أو يكون عروسا دفنت يوم زفافها . . وأن يكون نجاحي هو هذه العروس التي رفعتها إلى قلبه . . فكيف أنسى الشاعر ريلكه الذي نظارتي حياته . . أو التي أظاردها . . أو التي ألصقت بها عيني ، فلا أجد غيره قريبا من همومي !

فما الذي هربني من كلمات الشاعر ريلكه في تلك الأيام ؟ هو يقول : أن تكون وحدك هذه نعمة كبرى ، بشرط أن يكون لديك ما يكفيك من طعام الأحزان !

ويقول : أن تكون وحدك مع حزنك ، هذه نعمة أكبر بشرط أن يكون لديك ما يكفيك من سلالم العظمة والسمو إلى ما فوق الإنسان . .

ويقول : أن تكون وحدك معناه : أن تطبق عينيك وتقفل نوافذك لتنعم بالظلام الهادىء الطاهر . . ولكن من المؤكد أنك لست وحدك . فالله هناك في أعماقك . . وإذا كان الله في داخلك ، فلست في حاجة إلى مصباح يضيء لك . . بل إنك أنت المصباح الذي يضيء لك ولغيرك !

وهو الذي قال : أن أكون في الجنة وحدي ، أنا إذن في جنتين في وقت واحد . . أنا في الجنة وأنا وحدي ! ويقول أيضا : أناس كثيرون يتحدثون عن « الله » . . كل إنسان يقول : الله . . ولكن ليس هناك أي معنى لما يقول . . إنه يقولها وحده ويقولها عند الخوف . ويقولها عندما يشعر بالنهاية . . وأريد أن أوضح لنفسي ما أقول : لنفرض أن طفلين قد اشترى كل منهما سكينا في يوم واحد ، واحتفى الإثنان أسبوعا . . ثم عادا وفي يد كل منهما السكين . . لا فرق بين السكين في يد هذا أو السكين في يد الآخر . . الفرق الوحيد هو في أي شيء إستخدم كل منهما هذا السكين . . وكذلك الله . . كيف يكون الله معنا وفينا ولا نستخدمه سلاحا لنا ولغيرنا . . إن الإنسان وحده تماما ، إذا لم يكن مع الله . . وليس وحده تماما إذا كان الله معه . . وقد استمتعت بهذه الصداقة لحظات عميقة في حياتي !

وفي هذه الوحدة التي يعيشها الشاعر أو الفنان يكون في حالة عصاب أو معاصية أو نصعبة أو صفاء . . ولكن ما الذي يجده الشاعر أو الفنان أو المفكر .

يرى الشاعر ريلكه أن هناك مشكلة هي : مشكلة الحزن العميق في نفوس الناس . . إن الناس في العصر الحديث أكثر حزنا . . وأميل إلى الحزن ايضا . . إنهم يحاولون أن يغرقوا أحزانهم في العبادة أو الخمر أو في الدم . . ويحاولون أيضا أن يقهروا بالقوة . . بالعنف . . إنهم يستخدمون السكين في مسح أفواههم . . وتتفتح أفواههم ولكن دمائهم تسيل . . إنهم يحاولون أن يصحوا قلوبهم بالسكين . . ويفتحونها . . ولكن القلوب تترف دما . .

والحزن هو نوائم الشعراء . . أو طلهم . أو أنهم ظل للأحزان . . وأن هذا هو قدرهم . . يقول ريلكه : لقد اكتشفت فجأة أنني لست في مكاني المناسب . . وأن الذي ألعبه في مسرحية الحياة ليس دوري . . ولذلك حاولت أن أراجع الوجه الذي أحمله . . أن أعيد النظر إلى ملامحي . . ولذلك بحثت عن

مرة . . وجدت المرآة . ورأيت وجهي في المرآة ومسحت الطلاء الأحمر والأبيض والأسود ووجدت دموعي قد مسحتها أيضا ورأيت وجهي الحقيقي . . إنني هذا هو أنا . ولكني رغم ذلك لم أستطع أن أزيل شيئا هام هو أن الإنسان يبالغ في أحزانه ، ويبالغ في أحزان الآخرين . . هذه المبالغة هي التي لم أقلع في القضاء عليها ، إنها ليست هي طبع الإنسان ، ولكنها أصبحت في طبعه أو هي طبع الإنسان .

ولم أنس ولن أنسى ما قاله ريلكه عندما مثل وهو على فراش المرض بين كان لديه ما يقوله لأحد . فقال : لا أحد أقول له . . فلم أستطع أن أستمع بالكلام مع أحد . ولم يستطع أحد أن يدعي أقول . لعله يجد متعة فيما أقول إن الناس يرونك بنصف عين . ويسمعونك بنصف أذن . . ويضحكون لك ربع قلب . . ويضحكون لك كل العقل لعلك تدخله وتسقط منه إلى غير رجعة !

ولن أنسى ولا نسيت هذه العبارة : وحدنا ولدنا ، وحدنا نموت .. وحدنا وثنا وحدنا نعذب ، وحدنا نموت .. وحدنا نعذبنا في عذابنا ، وحدنا نطهرنا .. وحدنا نموت .. وحدنا نطهرنا في نار الندم ، وحدنا نموت .. وحدنا نموت إذا نظرنا إلى أنفسنا في المرآة . فإننا نموت في عيوننا . عيوننا تموت وهي تنظر إلى عيوننا . . عيوننا تموت في عيوننا . . ووحدنا نموت !

وأيام التصق الشاعر الرقيق الحزين بحياتي ، وجذبني على مدى خطوات من العلمنة ، الوجودية ، . . فهو واحد من الآباء الشرعيين للوجودية الألمانية والفرنسية . . ولا أقول أن إنسانيتي للوجودية كان بسببه . ولكن هناك انواعا من العذاب النفسي والعقلي والاجتماعي ، كانت مؤهلاتي . . كانت أوراق عضويتي إلى السلك الوجودي . وإلى تلوين حياتي كلها بألوان قاتمة يائسة . شائكة . . وأيامها أحسست أنني المقصود بهذه العبارة التي قالها الشاعر اللاتيني فرجيل . من ذلك الذي يصرخ على الشوك . . من ذلك الذي يدرع أوراق الوردة ويتصيد على شوكها . . من ذلك الذي إذا سما بقلب على لظى النجوم . وأيامها قلت : بل أنا الذي أريدني جلد القعد بالمطرقة . . ولكن ما الذي يعذبني ؟ وكنت أجد كل شيء يوجعني : أنا والناس . . أنا والبعد عن الناس . . وأنا مع الناس . . ومن القصص الجميلة الأليمة التي اختارها الشاعر ريلكه ليصف حيائه . . ثم نظمها في قصائد طويلة جليلة ، أسطورة

أورفيوس ... إنه احتارها بكل معانيها . فأورفيوس كان صاحب الناى الجميل . كان إذا نفخ فيه تركت الطيور أعشاشها وسارت وراءه .. تركت الأسماك أنهارها وتزاحمت وراءه .. تركت الوحوش مرائسها ومشت مسحورة وراءه ، وأحب الفتاة الساحرة أوريديس .. وتزوجها .. وراح يغنى لها وحدها .. وصادقت الآلهة بهذا العشق الأبدى .. فأوعزوا إلى حية أن تلدغها .. ولدغتها .. وانتقلت أوريديس .. إلى العالم الأرضى .. وذهب أورفيوس إلى العالم الأرضى يبحث عنها .

.. وراح ينفخ فى الناى فتوقفت كل طواحين العذاب .. حتى النيران ابتلعت نفسها . وخمدت .. وهرع الآلهة يسمعون الناى الساحر .. وشاءت الآلهة أن تجيبه إلى رغبته .. فأخرجت حبيبته من العالم الآخر . واشترطت أن يمشى هو أمامها . وألا ينظر وراءه إليها إلا إذا خرج من العالم الأرضى . ولكن أورفيوس نسى .. فنظر وراءه متلهفاً إلى حبيبته فتلاشت . وخرج هو حزينا إلى الدنيا .. وراح ينفخ فى الناى فى الكهوف وكانت الحشرات والزواحف تلتف حوله .. وحاولت بعض النساء أن يغريه . ولكنه رفض .. فهجمن عليه .. ومزقنه .. وقطعن رأسه .. وألقين به فى الماء .. وكان الرأس كلما صدمه حجر قال صارخا : أوريديس : ولا يزال الموج والصخر يحتفظ بهذا الاسم ويردده ليلا ونهارا . ويتساءل الشاعر ربلكه ويقول : ولكن لماذا هذا العذاب ؟ هل لأنه يغنى ؟ هل لأن الناس يجدون لذة فى الغناء ؟ هل لأنه المغنى الوحيد ؟ هل لأنه أحب زوجته ؟ هل لأنها هى أيضا أحبته ؟ هل لأن العذاب شعبية بين كل الكائنات ؟ يقول ربلكه : لأن الأحزان هى الهواء الذى يتنفسه الجميع .. لأن الإنسان ناى حزين ينفخ فى ناى أكثر حزنا .

الذى بهرنى فى القاهرة عندما جئت إليها من المنصورة : الشوارع والمكتبات والكتب الرخيصة التى تبيعها قوات الحلفاء ثم سور الأزبكية ..

فكانت متعتى الكبرى أن أمشى وأمشى وما دام لا هدف هناك ، فكل الشوارع سواء .. ولم أكن أجد متعة فى النظر إلى فترينات المحلات ..

وقد اكتشفت فيما بعد أن محلات شارع قصر النيل تبذل جهدا هائلا فى أن تكون الفترينات مثل محلات باريس . ولذلك يغيرونها كل أسبوع .. وفى

د ـ الوقت الذى يغسلون فيه الرصيف بالماء والصابون . كل ذلك فى آخر الليلات . وكنت أرى العمال الجميلات يقمن باعادة ترتيب الصابون فى محلات هنرى وصيدناوى وبنزايون والصالون الاحمر والعليون . وتصبح هذه الفترة نجمة فيه فى أعياد الكريسماس ورأس السنة . وكنت أتوقف حيانا ولكن بعد ذلك أمضى إلى لا هدف ..

وأتوقف طويلا عند المكتبات . مكتبة الكتاب الفرنسى وهاشيت . كارمون وسميث وزارل والنهضة والانجلو . كل يوم على الرغم من انى عرف كل كتاب قد جاء إلى مصر ، ولكنها العادة . أى تكرار المتعة . متعة نظر إلى الكتب وملامستها .. وكنت هذه المكتبات أيضا تغير ترتيب الكتب فى ضريبة كل أسبوع . مع إضافة الصور والورود . وكنا أسرة مترابطة جميلة . أقصد أن وباعة الكتب وأصحاب المكتبات .. فنحن نصافح كل يوم صباحا ومساء ويكون السؤال عن الحال والصحة ويكون الكلام عن الكتب الجديدة وعن الذى نشرته الصحف هنا وفى الخارج .. كل يوم بلا ملل .. لا عرف إلا الوجوه وإلا بعض الأسماء .. ولا يهمنى إن كانوا يهودا أو مسيحيين أو شيوعيين أو ملحدين أو متطرفين .. نحن جميعا مثقفون ، حريصون على أن نكون كذلك .. وفى هذه المكتبات يلتقى كبار المثقفين المصريين والأجانب ..وستأنف الكلام والسلام والموضوع : الكتاب فى كل مكان وفى كل موضوع .

ولكن اعظم اكتشاف كان ينتظرنى فى حياتى الثقافية هو تلك الكتب الصغيرة : كتب الجيب التى تقرؤها القوات البريطانية فى مصر .. كل الأعمال الأدبية العظيمة طبعوها فى أحجام صغيرة ورخيصة الثمن .. كل مسرحيات شيكسبير وجيته وموليير وكل شعراء العالم الذين ترجمت دواوينهم ومسرحياتهم إلى اللغة الإنجليزية بقروش معدودة .. وقد اشتريت حمولة عربة كارو بأربعة جنيهات . إنها المكتبة الاولى التى ملكتها وأعلت على قراءتها .. وكنت أسهر الليل أكوى الكتب التى تكرمشت أوراقها أو أقوم بلصق صفحاتها المتصمغ .. وفى ذلك الوقت قررت أن أذهب إلى الجامعة سائرا على قدمى من هنا . لكى أوفر بتذكرة الترام لكى أشترى كتبا .. وكنت بتذكرة الترام فى ذلك الوقت بستة مليمات . أى بما يساوى كتابا !

وعندما تعمقت في وسط القاهرة اكتشفت شيئ أعظم وأروع : سور حديقه الازبكيه . فعلى السور تباع الكتب القديمة والنادره أيضا .. فالسور ليس شارع أو رصيفا وإنما هو مكتبه ومعرض ومجتمع ومتنفس يومية متميزة .. تباعه الكتب يأتون كل يوم بجديد .. ويعيرون عرض الكتب .. ثم إنهم أناس مثقفون .. وهم يعرفون كل الذين يترددون عليهم من كبار الكتاب والوزراء وأساتذة الجامعات ..

وعندما رأيت سور نهر السين في باريس بعد ذلك وجدته منظما بطبيعة .. ولكني أفضل عليه سور الأزبكية بما فيه من تلقائية شرقية . هيصة . وأنت تمد يدك إلى الكتب وتقلب وتقرأ وتتحدث إلى البائع ويسألك إن كنت تريد كتبا أخرى أو كتبا أرخص ..

ثم يحكي لك : لقد جاء الأستاذ عباس العقاد وكان معه الأستاذ عبى أدهم والأستاذ عبد الرحمن صدقي والأستاذ طاهر الجبلاوي .. واشترى كتاب « عبادة البطولة » للكاتب الانجليزي توماس كارليل .. وجاء دكتور محمد حسين هيكل باشا وسأل عن كتاب في القانون الدولي طبعة ١٨٩٣ وقد وعدته بذلك .. وجاءت السيدة سيرا سراوي . وعالم الفيزياء دكتور علي مصطفى مشرفة ..

وفي لحظات تعرف من الذي جاء ومادا قال ومادا أخذ ومادا ترك ومتى يعود .. وكان يطلب إلينا أن نعود لنرى هؤلاء الكبار ..

ومن سور الأزبكية التقطت عددا كبيرا من الكتب الرائعة بأسعار زهيدة جدا .. لقد رأيت لأول مرة رواية « دون كيخوته » للأديب الأسباني سرفانتس .. ولأول مرة أرى « ديكاميرون » أو العشاريات للأديب الإيطالي بوكاتشو .. واشتريت « دائرة معارف لاروس » المقسمة في ٢٢ مجلدا بعشرين جنيها . تصور !! لأول مرة أقرأ بعض مؤلفات الأديب الفرنسي دي مباد « الذي نسبت إليه لدة التعذيب الجنسية (المبادية) . ولم أكن أعرف أنه أديب أو فيلسوف .. ولكن كل الذي أعرفه « ويتكره معظم الناس » أنه رجل شاذ .. وعلى سور الأزبكية وجدت معظم الديانات القديمة .. في طبعات سهلة رخيصة .. ووجدت الترجمة الإنجليزية للقرآن الكريم وقرأتها كلها لأؤكد لنفسي الفارق الهائل بين عظمة القرآن الكريم في لغته العربية وبين أية ترجمة

حر و لقد كان عملا مستحيلا أن يترجم أي أحد القرآن إلى أية لغة .
ـ لكن قد قرأت كتاب لاستاذ العقاد ، هذه الشجرة ، عن فلسفته في المرأة
ـ ثم قرأت هذا الكتاب بعده . وعرفت فيما بعد أن الأستاذ العقاد قد تأثر في
ـه في المر ، بالفلسفه الالمانيه عند شوبنهور ونيتشه وعندما قرأت الأستاذ
العقاد وجدته يؤكد له احترامه العميق لها ، ولكن كتبه ، وهذا الكتاب بالذات ،
يؤكد أن رأيه قد تغير قليلا ؟

ووجدت محاضرات للشاعر الالماني ريلكه قرأتها ولكن لم أفهم الرمزية
صراحة في شعر هذا الرجل وعندما درست الفلسفة الوجودية ، استطعت
ـ أفهم قليلا مما جاء في هذه الفصائل

وقمت بنشر لدكتور محمد عبد الهادي ابو ريده ، أستاذ الفلسفة الإسلامية
ترجمة لكتب الشاعر ريلكه الكتاب عنوانه ، رسائل مالته بريجه ، . وهي
رسائل ادبية فلسفية ولم تكن هذه الرسائل العميقة واضحه أيضا ، رغم الجهد
الهائل الذي بذله دكتور ابو ريده ثم جلست طويلا إلى دكتور أبو ريده وشرح
لي معنى هذه الرسائل الادبية ، وفلسفه الشاعر ريلكه ، وأنه اخر الشعراء
الكبار في المانيا ولم يتسع وقتي أن أهتم كثيرا بهذا الشاعر ، وقد كنت عاكفا
في الفلسفه ودراسه شعراء الفرنسيين اخرين أقرب إلى مزاجي الفلسفي الوجودي
في ذلك الوقت مثل : هيلدرلن ونوفاليس وتيك والشاعر الإيطالي ليوباردي
والشاعر الروسي لرمنتوف والشاعر الرومانسي الفرنسي بول جيرالدي .

ثم عثرت على سور الأربكه على كتاب بعنوان ، اخر صدقات
ريلكه ، حقائبه التي لم تنشر إلى تمام نشرت علوي بك ، مع دراسه
بقلم إدموند جالو عضو الاكاديميه الفرنسيه مع مقدمة بقلم مارسيل رفائل .

ورجعت لتصفح الكتاب .. إنه الشاعر ريلكه وقد أحبته سيدة مصرية .. وكان
لاسم السيدة معنى خاص .. وحاولت أن اعرف ما هو هذا المعنى لم استطع في
ذلك الوقت .. ولكن تذكرت أنه كان لنا مدرس في المنصورة الثانوية إسمه :
الأستاذ علوي كان مدرسا للرسم .. وكان يبيع لنا ، مذكرات ، في الرسم
لكي نستعين على النجاح في الامتحان . وفي هذه المذكرات كيف نرسم وكيف
نلون الصور ، وكيف نراعي هذه النسب وكنت أذاكر ولكن لم أتقدم في

الرسم .. فقد كنت أمضى الليلة بطولها أرسم الشخصية بالقلم والمسطرة مراعيا النسب لكى أحتفظ بها عندما أعطيها .. ولكن لا أكاد أقدم له هذه اللوحة حتى يبدى عدم رضائه عنها .. وفى ظهر الورقة وبسرعه مذهلة يرسم هو اللوحة فتكون أدق وأجمل .. وأندهش لهذه الموهبة التى يمتاز بها الأستاذ ، وليس لى فيها نصيب .. وكنت ألاحظ زملائى أيضا ينقلون مباشرة عن الصورة الأصلية بمجرد النظر إليها دون الاستعانة بالمسطرة . إذن - لم تكن عندى موهبة الرسم هذه . انتهى . فلم أحاول أن أناكر أو أتقدم فى الرسم ، وأسلمت قلمى وعجزى لله ..

وكان هذا الأستاذ علوى نحويا ، كان يضرب الطلبة . وكان يشتم الأب والأم ! هل كرهته ، نعم أنا وحدى ؟ أعتقد أن كثيرين كانوا يمقتونه .

وفى يوم مشهود فى مدينة المنصورة ونحن نتمشى على النيل وجدنا مظاهرة كبيرة مع صيحات وصرخات وضحكات . شىء عجيب حقا : إنه الأستاذ علوى وقد أمسكه إثنان من رجال البوليس . واقتربنا نعرف . وتوارينا عن عينى الرجل . وقالوا : إن المحافظ هو الذى أمر ، بتجريسه ، - أى فضيحته وذلك عن طريق استخدام الأجراس التى تدق وتلم حوله الناس . لماذا ؟ لأنهم ضبطوا فى شقته واحدة عارية يرسمها - موديل .. ولم يكن ذلك مألوفا أو مقبولا فى الريف . وقد اشتكى جيرانه من أنه يفعل ذلك كل يوم ، مع صبيحات وضحكات وأناس آخرين .. وكل شىء يدل على أنهم سكارى ..

ومثل إسم ، علوى ، ملتصقا فى خيالى بهذه الفضيحة الجنسية .. فلما وجدت إسم السيدة نعمت علوى بك على غلاف هذا الكتاب ، كان إهتمامى مضاعفا .. وكأننى دون تفكير تصورت أن كل ، علوى ، لابد أن تكون له فضيحة جنسية .. وأن هذا الكتاب سوف يروى قصة معاشة ولكن على أرفع المستويات الأدبية .. وظللت أقرأ الكتاب فى طريق عودتى إلى البيت .. ولكن كل صفحات الكتاب تطالبنى بالعدول فورا عن توقع فضيحة .. وإنما أنا أمام قصة عاطفية كالتى امتلأت بها كتب الأدب العالمى . قصة حب بين شاعر كبير وفتاة جميلة .. ثم إن هذه الفتاة من مصر .. كيف ؟

ومن ثلاثين عاما كتبت هذه القصة فى مجلة ، آخر ساعة ، ونشرت صورة

الفتاة الجميلة لأول مرة . وتلقيت خطابات من أقاربها يشكرون ذلك . وبعضهم يهدد بالقتل في الخطابات وتليفونيا .

وتصادف عندما قرعت من كتابه هذا المقال أن إكتشفت أن الصديق الأديب صلاح ذهني ، وكيل دار الأوبرا ، هو الآخر مريض . وأن مرضه نفس مرض الشاعر ريلكه . وطلبت تأجيل نشر المقال ، حتى يسافر الأستاذ صلاح ذهني إلى لندن للعلاج . فقد خشيت أن يقرأ المقال ويدرعج . وتأجل نشر المقال أسبوعا . ولكن صلاح ذهني أجل سفره أسبوعين . وصدر المقال وقرأه صلاح ذهني وقابلته ليلا في كاريو بديعة . مكان صديق شهرانوس القاهرة . وفوجئت بأنه قرأ المقال ، وأدرك أنه هو أيضا سوف يموت مثل الشاعر ريلكه (١٨٧٥ - ١٩٢٦) . أي بسرطان الدم . وأحزنني ذلك تماما ..

ثم وجدتني ألتقي بالمرحوم صلاح ذهني كل ليلة ، كأنني أعتذر له .. أو أحاول التخفيف عنه .

هذا الشاعر ولد في براغ عاصمة تشكوسلوفاكيا . وأبوه ضابط جيش فاشل .. فليس في حياته قصة واحدة من الممكن أن يرويها لأحد .. فقد ذهب إلى الحرب وعاد كأنه لم يفعل شيئا . وأدخل إبنه الكلية العسكرية لعله يصلح ما أفسده أبوه . ولكن الإبن ليس لديه أي استعداد لأن يكون عسكريا . ولا أن يذهب إلى الميدان . وإنما عنده استعداد لأن يتأمل وأن يتألم وأن يتكلم .. أن يحكي وأن يبدع طول اليوم تحت أية شجرة دون طعام أو شراب فهو ذلك النوع النبيل من الناس .. ثم أدخله أبوه مدرسة تجارية ، فكان فشله أعظم ..

ولكن عم الشاعر قد لمس في ريلكه ميلا إلى الأدب والطبيعة فساعده على ذلك . وطلب إليه أن يعرض عليه ما يكتبه . وعرض عليه بعض قصائده . فأعجب بها . وشجعه على أن يستمر في القراءة والكتابة . وعرف الشاعر أنه لن يكون غنيا . وعليه أن يستعد لذلك . فهو رجل غير نظيف . وأن كل ثروته هي معلوماته . وأن سلاحه هو كلمته . وأنه إذا لم يتفوق في صناعة الكلام فسوف يموت جوعا ، وإذا مات فسوف تشيعه الكلاب . هكذا قال لنفسه ..

وتعهد على الفور قرارا بأن يكون صعلوكا نظيفا . وأن يعتني بعمق أفكاره وأحلامه أيضا ..

وكانت نقطة تحول في حياته أن يسافر إلى روسيا . وهي روسيا التقى بالسيدة « لور سالومي » (١٨٦٧ ـ ١٩٣٧) وكانت محبة للأدب والفلسفة . جميلة نكيه . وقبل ذلك كانت معشوقة الفيلسوف الألماني نيتشه .. لقد أحبها رغم أنها يهودية ، وهو يكره اليهود .. ثم أحبها بعد ذلك العالم الكبير فرويد ..

ولذلك سخر النقاد من هذه العلاقة من امرأة واحدة وثلاثة من عباقرة زمانها .. فكانوا يرسمونها تركب عربة وفي يدها كرباج ، وهذه العربة يجرها ثلاثة حيول نافرة : نيتشه وفرويد وريلكه !

وقد شجعت « لور » هذا الشاعر الكبير على أن يظل شاعرا ..ساعدته ماديا وطلبت إلى أصدقاء لها في باريس أن ينشروا أدبه وأن يحققوا موهبته العظيمة . أحبها وعرض عليها أن تنفصل عن زوجها . ولكنها اعتذرت بعد أن مددت ساقيها الجميلتين وذراعيها في دار هذا الشاعر .. ذار الشوق ووهج الإبداع وجهنم العرمان . فقد كانت هذه هوايتها ومتعتها أيضا . كأن السماء قد وكلت إليها أن تعذب العباقرة وأن تعاقبهم وحدها عن هذه العظمة !

وفي روسيا التقى الشاعر ريلكه بالاديب العظيم تولستوي . والتقى بالرسام اليهودي الكبير ليونيد باستيرناك وهو أبو الأديب الكبير بوريس ليونيد باستيرناك الذي حصل على جائزة نوبل في الأدب عن كتابه « دكتور جيفجو » الذي منعته الرقابة السوفيتية لأنه يهاجم الثورة السوفيتية ..

وقد ظهر هذا الفيلم على الشاشة وقام ببطولته عمر الشريف مع الممثلة جولي كريستي . وهذا الفيلم ظل ممنوعا في مصر ، طول حكم الرئيس جمال عبد الناصر ـ مجاملة للروس !

وقد تأثر الشاعر ريلكه بالحياة في روسيا . وبهره إتساع البلاد . وضخامة كل شيء .. ووجد في ذلك نفسيرا للثقة بالنفس عند الروس . والإيمان الديني العميق أيضا . حتى الماركسية وجدها في روسيا لها مذاق ديني ، فكلهم في روسيا متعصبون ! المؤمنون والملحدون على سواء . وأصدر ريلكه كتابه الشهير « كتاب الساعات » . ومن يقرأ الكتاب يخيل إليه أنه بقلم راهب مؤمن بكل شيء وزاهد في كل شيء وهذا هو رأي الشاعر ريلكه في الفن : إنه دين .. إنه إيمان بالحقيقة والعدل والحرية والخير .. ومن أجل كل ذلك يجب أن يعيش الفنان . وأن يموت أيضا . وقد أعجبه تولستوي العظيم الذي هو كل مناقضات روسيا : السياسية والدينية والإلحادية والغنية أيضا !

ولما رجع إلى ألمانيا عاش في إحدى القرى النائية بالقرب من ميناء بريمن . في هذه القرية كانت حياته شبه عادية .. لا يملك شيئا ، ولا من الضروري . ولكن يجد كل ما يزيد من الطعام والشراب والحرية وأهم من كل ذلك أنه يجد أناسا مثقفين يتحدثون معا .. ومن أعظم نعم الخداء أن يجلس الناس معا يفكرون معا ومن هذا الحوار تتولد كل المعاني ، ويتألق الوميض الإبداعي عند الجميع ..

وبزوج « كلارا » التي تعمل في النحت وكان يحسد الذين يمارسون فن النحت .. فهم قادرون على تجسيد المعاني . على إبرازها .. على أن يقربوا من المعاني بوضوح يفهمها كل الناس . فقد تركها الناس جميعا ، من كل لون وكل لغة في نفس اللحظة ، دون حاجة إلى ترجمة .. النحت والموسيقى أكثر الفنون شمولا .. وأكثرها بلوغا لوجدان الإنسان وبلاغته أيضا . وكان يمضي الساعات يتدرج على أصابع زوجته وهي تسوي الطين والحجارة تمثالا جميلا .. ويتمنى لو أوتي شيئا من ذلك !

وأسعد الزواج عن تمثال كبير : ابنته الوحيدة ! ووجد في هذه الإبنة أكبر دليل على أن نجاح الزواج يتأكد في الأولاد .. أما المعايشة والحوار فكلها سقلبة واليوم حب وغدا حرب .. ولكن الشيء المؤكد الناجح بين الزوجين هو أن يكون لهما أولاد .. فلعل معناه أنه من لحظة سعادة واحدة كان هذا الإبداع العظيم .. إنها لحظة صدق بين زوجين ، أما الباقي فقد تكفلت به حكمة الله وقوانينه الأزلية !

وقد ترك الشاعر لابنته التي قررت أن تعيش مع أمها هذه الرسالة : إن أردت الوضوح والعمر القصير فكوني مثل أمك ، وإن أردت الخلود فأبوك .. وإن أردت الثراء فليكن لك روح أمير ، وجمالك هو ثروتك ونكاؤك هو تاجك ، وأبوك مجدك .. إبنتي إنما لم نعرف بالضبط معنى الكثير في هذه الحياة .. لا نعمى أن أحدا لم يسألنا إن كنا نريد أن نعيش .. ولا أحد عرض علينا المواهب ، فأحدنا الشعر ولم نحتر صياغة الذهب .. إنه قدري وقدرك أيضا .. لا إذا وجدت معاني أخرى غير التي عاش بها ومات عليها أبوك !

وعاش في باريس طويلا . عمل أول الأمر سكرتيرا للنحات الكبير رودان .. أراد أن يكون قريبا من صانعي الوضوح البارز ، يتأمل الفنان

الكبير . ولكنه صاق بالعمل ، وصاق به العمل أيضا .. إنهما متشابهان ، ولذلك كان الندهر والسخط عاجلا ! واستضافه أحد الأمراء في سويسرا ونزل عنده مريضا وطال مرضه . وتعاقب عليه الأطباء والشعراء والأدباء والرسامون من كل أوروبا . وأيقنوا أنه لا أمل . وفي ذلك الوقت صدرت طبعة جديدة من رسائله إلى مالفه بريجه . وجلست سيدة مصرية طويلة عريضة شقراء عسلية العينين في أحد مقاهي مدينة مونترو مع صديق لها هو جورج قطاوى باشا . وأخذت تحدثه عن هذا الكتاب الذي أعجبها . وراحت تستعرض الأفكار البديعة التي قرأتها في هذا الكتاب .

وسألها جورج قطاوى : ولا تعرفين المؤلف ؟

قالت : لا ..

قال : انظري وراءك .. إنه هذا النحيف الشاحب .. ذو الشارب المتدلي كأنه من أبناء المغول .

ونظرت إليه ولمعت عيناها وظهرت الفرحة على وجهها ، عرفني به .. أريد أن أتحدث إليه فورا ..

إنها السيدة نعمت علوى بك زوجة عزيز علوى بك .. وكان زوجها هو الآخر مريضا في سويسرا . وكانت ترافقه في تنقلاته من عيادة إلى أخرى ومن مستشفى إلى مصحة .. إنه الرجل الثاني في حياتها .. أما الأول فقد أرغمها أهلها على أن تتزوجه دون أن تراه ، وكان موظفا في المراسم الملكية . فرفضت فانصدمت العطوبة . وزوجها هذا أيضا لم تره إلا يوم الزفاف . ولكنها رأته سرا . ولم تكد تمضي شهور على الزواج حتى مرض ومات .. وأصابها نفس المرض المعدي ، ومانت به أيضا !

وهي من أصل شركسي وأبوها أحمد خيري باشا .. فتعلمت اللغات الفرنسية والألمانية والتركية والعربية أيضا . وكانت تتكلمها بطلاقة تامة ..

وقد ماتت أمها في سن مبكرة ..

وتكفلت أسرتها بتربيتها وتعليمها . وكانت تعيش معظم الصيف في جزيرة رودس ، حيث يملك كثير من الأتراك قصورا وحدائق . ولما مات أبوها ، لم تعلم إلا بعد سنوات . فقد اشتعلت الحرب العالمية الأولى وهي في جزيرة رودس .

وارتبطت بالشاعر الألماني ريلكه ، كانت تزوره كل يوم تسبقها الورود وتجيء من بعدها .. وكانت تكتب له ويكتب لها .. هل أحبت الشاعر ؟ هل حبها؟ من المؤكد أن الحب كان عبثا . ولكن الشاعر كان في أيامه الأخيرة .. وهي أيضا كانت في الأيام الأخيرة مع زوجها عزيز علوي بك .. كانت هي تتأمل أصابع الشاعر الطويلة الناعمة ، وكان هو يتأمل عينيها الجميلتين ..

قال في عينيها : لا غابات الدنيا ولا جبالها الجليدية ولا نجومها ولا حكمة الإغريق ولا سحر الشرق يدانى ومضة واحدة من عينيك .. خسارة كبرى أن أموت وأترك هذا الكنز الأبدي !

وتم الطلاق بين نعمت علوي وزوجها وقررت أن تعيش في باريس . وهناك تزوجت من الأمير نيكولا منشوسكي . وبعد الزواج بوقت قليل نشبت الحرب العالمية الثانية فذهب إلى الجبهة . وداهمها المرض في باريس . مع الوحدة وبرودة الجو . وكانت إصابتها الأولى بالالتهاب الرئوي والسل وأمراض أخرى وتنقلت بين المستشفيات . وتوفيت في ٤ أغسطس سنة ١٩٤٣ ودفنت في مقابر آل منشوسكي .

وكانت نعمت علوي قد أعجبت بالممثلة الكبيرة جريتا جاربو . وحاولت أن تكون ممثلة . فوجهها الجميل يصلح . ولكن جسمها طويل عريض لا يصلح للشاشة . وقد ظهرت دقائق في بعض الأفلام . ولكن لم تستطع أن تكون نجما سينمائيا ..

وهي على فراش الموت انشغلت بقراءة عشرين خطابا بعث بها الشاعر ريلكه .. وقبل أن يموت سلمها خطاباتها إليه . كرما ونبلا ، مع تعليق على كل خطاب ، على بعض الخطاب .

حاولت نعمت علوي أن تكتب المسرحية .. فكتبت مشروع مسرحية من فصل واحد . وهي مسرحية واقعية جدا .. أي بينها وبينه . وأرسلتها إليه .

وأنا أنقل هنا بعض الفصل الأول الذي لم يكتمل :

- هو : أعرف من الذي هيأ لنا هذه الظروف .. أنا في حاجة إليك .. وأنت أيضا .. أنا في حاجة إلى قلبك .. وإذا لم يسعفني قلبك عوضتني عيناك .. وإذا أغرقت الدموع عينيك ، فلمسة من أصابعك تشيع الحياة والعافية في كل شيء .. وإذا لم تتركني أصابعك الغائصة فأنفاسك من عبير الجنة .. لقد دخلت

الجنة فى هذه الدنيا ، قبل أن أدخلها فى الآخرة .. إننى على يقين من أننى سوف أدخلها .. لأننى يا سيدتى سوف أكون ظلك فى الدنيا والآخرة ولا يمكن أن يكون الله قد أبدع صورتك ليحشرها فى نار جهنم ..صدقينى !

هى : بل أنت يا سيدى نعمتى المؤجلة .. لم يشأ الله أن ينجح زواجى الأول .. ولو نجح ما جئت إلى سويسرا .. فقد كان رجلى الأول فى كامل الصحة ولا يحب السفر .. كان يؤمن بأنه إذا ترك مصر ، فإن يعود ، فهو يحرم نفسه من عيشه .. بل لو أغمض عينه فإنه يسرع بفتحها حتى لا تخفى مصر من عينه أو عن عينه لحظة واحدة .. ولكن شاء القدر أن أتزوج رجلا مريضا أجلس جواره لكى أكون إلى جوارك أيضا .. ولكنى منذ رأيتك يا سيدى وأنا إلى جوارك .. بل أنت إلى جوارك .. بل أنت أنا .. فلم تعد لكلمة الجوار معنى .. فالذى إلى جوارى هو الخارج عنى .. البعيد عنى .. ولكن أين أنت يا سيدى .. إننى أنت .. معا فى جلد واحد .. كما يتجاور القلب والمعدة بل كما تتشابك الرئتان فى الصدر الواحد .. تقول الجنة والنار ؟ .. لا جنة ولا نار .. لأن الجنة بعد الموت والنار أيضا .. ولكن بك ومعك لا موت .. فلا جنة ولا نار .. وإنما الحياة معا على الأرض وتحتها .. حياة بلا نهاية

ولو جاءتنى الملائكة وحاسبتنى فسوف أعترف بخطيئتى أننى أحببتك متأخرة جدا . حتى هذه الحقيقة ليست خطيئة .. إذ كيف أعرف مستقبلى .. إذ كيف أدرى مصيرى .. لو كنت عرفت ، لو كنت دريت ، لو كنت إحدى آلهات الإغريق ، لارتحلت بك من الأزل إلى الأبد .. تقول إننى لمسة الحياة وعبير الجنة .. أنت لا تدرى ماذا أقول عنك يا سيدى إننى أراك فلا أتنفس يا سيدى .. إن الوجود معك حياة .. إننى أراك فلا أتنفس يا سيدى .. إننى الخلود .. إن كل شىء معك قد انتقل إلى .. حتى مرصك .. ما أسعدنى بمثل هذه النهاية .. إننى أتمنى أن أموت بحنك بلحظة واحدة .. لكى تكون آخر ما أرى فى هذه الدنيا .. إننى لا أتمنى لك طول العمر .. فطول العمر وقصر العمر لا تعنى شيئا .. وإنما أتمنى أن أكون معك .. أو أن أكون أنت أطول وقت ممكن .. ولكن من يعرف الحب لا يعرف الزمن .. من يعرف العشق لا يعرف إلا الأبدية .. إن الذى أحس به ليس سعادة .. فالسعادة كلمة صغيرة .. والنعمة كلمة أسمر .. ولكن هذا الذى أنت ، أو هذا الذى أنا ،

و هذا الذى أنا - أنت .. أو أنت - أنا هو البركة .. إنها بركة الله قد حلت فينا -
- سيدى ..

هو : ماذا لو أعطيتنى يدك .

هى : إليك .. يدى ..

هو : هل تسمحين لى أن أقبلها ..

هى : شرف يا سيدى !

هو : هل ألمس شعرك ؟

هى : سحر يا سيدى .

هو : وطرف ثوبك .

هى : أتمنى أن أموت .

الآن يا سيدى .. فليس بعد ذلك شرف ولا سعادة ولا بهجة ولا بركة !

هو : بل هناك يا سيدتى ..

هى : لا شىء بعد ذلك .

هو : بل هناك .. اقتربى دعينى أشم أنفاسك .. دعينى أتمص بك .. وبعدها موت ! (وتدخل الممرضة ومعها الدواء) .

الممرضة : الدواء يا سيدتى .

هو : ولكنى شفيت .

الممرضة : الحمد لله .. هذا هو أملنا يا سيدى الحليم ..

هو : حقا شفيت ..

الممرضة : بلا دواء ؟

هو : الدواء والطبيب من مكان آخر ..

الممرضة : كيف يا سيدتى ؟

هى : كما قال لك السيد .. بل أنا أيضا تعلمت نص الدواء .. إنه النص الطيب .. هل أطمع فى أن تصنعوا لى سريرا فى هذه الغرفة ..

الممرضة : لا أفهم يا سيدتى .. لا أفهم .. سوف آتى بالطبيب

وتخرج الممرضة .. وقد تركت الدواء ..

هي : (تحفي الدواء تحت المخدة) .

هو : (يسحب يدها ويقبلها) .

هي : (تنحني عليه وتقبل جبينه) .

هو : (يضع يده على عينيه المغمضتين) .

هي : (تضع رأسها على صدره) .

(يدخل الطبيب والممرضة) .

الطبيب : يهز رأسه ويبدو الارتياح على وجهه إن كان هذا هو الدواء ..أو كان أحدكما الطبيب أو أنتما معا ، فلا دواء بعد ذلك .. ولا شفاء إلا هذا ..

الممرضة : لا أفهم .. حتى الدواء اختفى .. أين الدواء .. إن هذا واجبي .. وأنا أريد أن أؤدي واجبي .. إنني أفعل ذلك من ثلاثين عاما .. إن هذه نقطة سوداء في حياتي ..

الطبيب وقد وضع يده على كتفي الممرضة ويسحبها إلى الخارج .

عندها يعتدل الشاعر في فراشه وتجلس هي إلى جواره ويضع رأسه على صدرها .. وتلف ذراعيها حوله .. وتفتح النافذة وتدخل نسمة باردة منعشة .. ومعها فراشة صغيرة جميلة الألوان تدور حولهما) .

وفي العام الماضي ظهرت دراسة عن سيدات عربيات في حياة الشعراء الألمان الكتاب في ٣٥٠ صفحة بعنوان « ساحرات الشرق في أدبنا » . المؤلفة أدبية إسمها مرجريت جراف (سن ٣٧ سنة) . والكتاب مطبوع في كندا . وفي هذا الكتاب فصص عن تسع عربيات . ثلاث من لبنان وواحدة من سوريا وثلاث من المغرب وواحدة من تونس .. والسيدة نعمت علوى .

تقول المؤلفة : إن الحسناء المصرية كانت أعمق أثرا . فالشاعر الألماني ريلكه كان يتمنى أن يموت في سن صغيرة ككل الرومانسيين الشعراء ، ولكنه ندم على أن السماء لم تهبه عمر النسور عندما عرف نعمت علوى .

وتقول : إن الشاعر ريلكه قد اعترف لأحد أصدقائه وهو على فراش الموت أن أكثر أفكاره كانت مستوحاة من نعمت علوى .. وأنها أمسكت قلمه وبدء

، كتبت عبارات من عندها .. وأنه لو طال عمره لتذكر لها هذا الفصل .. ولكن كل فصل يهون أمام فضلها .. ووجودها ..

ويقول ريلكه : يا شمسا لا أقوى على النظر إليها .. يا محيطا من الشعبانيا لا أقدر أن أشربه .. يا عاصفة من المطر أكبر من صدرى الضيق ، يا شبابا أمل شبابى يا نوايا على محصبة .. لقد عصيت الآلهة عندما كفرت بالنعمة ، فجئت نعمة النعم تكذيبا فاضحا لكل معتقداتى .. يا آخر ما أبدعت السماء ، وأقصى درجات الكمال عندها !

ونشرت المؤلفة الألمعية عبارات كان قد كتبها على باقات الورد التى بعث بها إلى نعمت علوى مثلا : إلى جنة الله هذه الزهور من صديقتى .. إلى جبل العاص هذه القطع الزجاجية الملونة ومع أصدق الحب !

ويقول أيضا : زهورى قد غارت من زهورك ، صديقتى ترى جمالك وتستقر عند قدميك !

ويقول : إلى سمائك هذه القبلات من أرضى !

ثم يقول : ما لم أستطع أن أقوله كلاما ، أحاول أن أنظمه وردا .. يا وردة الجمال فى مفرق السحر !

ويقول : سيدتى .. ألمس هذه الورود بيديك .. أما أصابعك فهى سلالم النور إلى حياتى !

ثم نشرت عبارات كانت قد كتبتها نعمت علوى إلى الشاعر رينر ماريا ريلكه قبل وفاته بأيام : إليك هذه العبارات الرقيقة عند الورود تنحنى أمام عظمة البلاغة وموسيقى السماء ..

وكان من عادتها ألا تبعث إليه ورودا ، وإنما كانت تحملها إليه .. أما كيف مات الشاعر ريلكه فيقول الأطباء أن شوكة من هذه الورود التى قدمها للفاتنة المصرية قد وخزته وتعفنت فى لحمه وأسالت دمه .. ومن هذه الوخزة دخل الميكروب ومن ورائه الموت ..

وتقول الأدبية الألمانية ما لم نكن نعرف ..

فهى التى طلبت إلى الشاعر أن يسيل دمها وأن يسيل دمه .. وأن يسأل دمها إلى دمه . ودمه إلى دمها وفى وحدة الدم ، وحدة الموت أيضا !

رجل عظيم من أسوان

رجل عظيم من أسوان

الأستاذ العقاد مشكلة للنقاد والمؤرخين . . لأنه لابد أن يختاروا له صفة واحدة يصعبونها بعد اسمه أو عنوانا لأى كتاب أو تقويم لحياته وأعماله الأدبية والفلسفية والشعرية التى بلغت التسعين كتابا . فهل هو شاعر ؟ مؤرخ ؟ مفسر ؟ ناقد ؟ فيلسوف ؟ مفكر ؟ سياسى ؟

لابد أن يختار المؤرخون له صفة واحدة . . وهذه الصفة هى المفتاح الصغير الذى يمسكه القارىء فى يده ويفتح به كل أبواب قلعة العقاد . . مفتاح واحد فقط كالذى تجده فى الفنادق فعندما يسبع مفتاح صغير فى أى فندق فإن الفندق بسرعة يبعث له بمن يفتح له الغرفة وأية غرفة . . هذا المفتاح «المفتاح الرئيسى » أو « المفتاح السيد » .

والمؤرخ أو الناقد يجب أن يعطى للقارىء المفتاح الرئيسى لعقلية العقاد . .

والمفتاح الواحد أسهل من مجموعة مفاتيح تدوخ القارىء أو تتعبه ، والناقد لا يريد أن يتعب نفسه ، ولا أن يتعب القارىء معه . .

هذا قال أن العقاد شاعر ، فمعنى ذلك أنه شاعر معظم الوقت . ويكتب النثر بعض الوقت . ولكن القارىء يفاجأ عندما يجد أن أكثر كتب العقاد من النثر . .

وإذا قال المؤرخون أن العقاد يهتم بالنقد الأدبى وأنه ناقد ، كانت مفاجأة أن يجدوه قد ألف عددا من قصص حياة محمد وعمر وأبو بكر وعثمان وعلى والمسيح . . فهو كاتب الترجمات الأول فى الأدب العربى . .

وهو فى نفس الوقت صاحب قدرة على التحليل النفسى والمنطقى والواقعى . . وهو باحث فى اللغة وفى الشريعة .

وهو كل هذه الصفات معا : شاعر ناقد مؤرخ مصور متطلف ومفكر سياسي . .

ولكن القارىء يريد أن يعرف ما هي صفته . . ما هي الصفة الغالبة عليه لكي يسهل فهم العقاد . .

إن العقاد عقلية موسوعية . .

فهو قد قرأ في أشياء كثيرة وكتب عنها وهو قرأ الكثير لأنه قارىء يحاول أن يفهم . أو هو مفكر يريد أن يبحث عن أشياء كثيرة في هذه الدنيا . وهو يحمل في يده مصباحا قويا يوجهه في كل الاتجاهات . لأن الحقيقة الكبرى ليست في مكان واحد . إنها في كل مكان . وعنده قلق عقلي ورغبة في المعرفة ، وقدرة على الفهم تجعله قادرا على المحاولة والفهم والتعبير بعد ذلك . .

ولكن الناس يسألون : ولكن ما هو الشيء الذي تخصص فيه العقاد ؟

ويكون الجواب : أنه تخصص في الفكر . .

ويقال لك : هل هو مفكر

ـــ نعم

ـــ مفكر في أي شيء ؟

ـــ مفكر في أي شيء !

ـــ مثل مادا ؟

ـــ مثل الإنسان ونفسية الإنسان وعلاقته بالإنسان . . وعلاقته بربه . . أو الانسان في كل ظروفه النفسية والاجتماعية والجنسية . . وليس سهلا أن يجعل المفكر قضيته الكبرى هي : الإنسان ! أنسي احترم جدا ما قاله الفيلسوف الوجودي سارتر بعد أن فرغ من أربعين كتابا من روائع الفلسفة والأدب . . وسئل يوما : بالضبط ما هي القضية التي تشغلك ؟ تصور أن هذا يقال لرجل أتى بجديد في الفلسفة الوجودية . . وكان رد سارتر : أنني مشغول بطبيعة الانسان !

ـــ لنا نقرأ أن فلانا روائي . . وفلانا قصصي ، وفلانا شاعر . . وفلانا ناقد . . وهذا مؤرخ وهذا طبيب وهذا عالم فلك .

ـــ معك حق . . ففي حياتنا الأدبية أناس دخلوا الأدب وأقاموا فيه وعاشوا

في ظن محمد عجيب لأنهم ألفوا كتابا واحدا . . أو كتابين . . وهي إمكانك أن تحشر من مؤلفات العقاد كتابين في الشعر وتقول : شاعر . . وهي النقد وتقول : ناقد عظيم . . وهي الدراسات الدينية وتقول : مفكر ديني .

ولو اخترت من كل مؤلفات العقاد عشرة كتب ، فهذه الكتب تكفيه جدا ليكون ناقدا عظيما وشاعرا عظيما ومؤرخا . . ولكن مشكلة العقاد هي : أنه غني جدا بأفكاره . . ما الذي نأخذ منها ، وما الذي نترك . . إن العقاد ترك عديدة عشرات الخواتم الماسية والأقراط والعقود والأساور والخلخال والدبابيس كلها وضعت في مكان واحد .. وهي جميعا تبهر العين وتغني صياغها بعضها على بعض . . ولو كان العقاد يملك خاتما واحدا لبدا هذا الخاتم باهرا . . ولكنه يملك الكثير جدا . فما الذي يفعله النقاد والمؤرخون . إنهم يحارون ويحيرون القراء معهم . . ولكن من المؤكد أن المفكر أو الفنان لا تشغله كثيرا الصفة التي سوف يطلقها الناس عليه . . وإنما هو مشغول بالذي في رأسه بالذي يقلقه ويحيره . . إنه يريد أن يعرف وأن يفهم وأن يعبر بعد ذلك . . هذا هو الذي يشغله دائما . .

فالعقاد مشكلة للنقاد والمؤرخين . .

ولكن الحقيقة أنه رجل واسع الأفق عميق المعاني . . وهي استطاعتك أن تطلق عليه أي إسم . . فهو كل هذه الأسماء التي دارت في رأسك . . فلا يحدث مطلقا أن يجيء الكاتب ويقول : أنا ناقد ... فلا أكتب إلا عن النقد . . أو أنا مؤرخ لا أكتب إلا في التاريخ . . فهناك أعمال نقدية هي أدب رفيع ، والأديب لا يمكن إلا أن يكون ناقدا ، والمؤرخ أديب . . والأدب تاريخ . . ولكن الذي يحدث هو أن الكاتب له قصبة تشغله وتلح عليه . . ويحاول أن يهتدي إلى شيء . فإذا اهتدى إليه ، أهداه إلى القارىء . واستراح بعض الوقت ليبدأ الطريق من جديد ، أو يبدأ طريقا من جديد . . فكل بداية هي ملتقى او مفترق طرق . . وبعدها يتجه الأديب أو المفكر أو الناقد الى مجالات أخرى أوسع وأكثر تنوعا !

فعندما فرغ العقاد من كتاب عبقرية محمد وفرغ من عبقرية المسيح وفرغ من كتاب ابليس ، قال : لقد جربت قدرتي العقلية في دراسة هذه الشخصيات العجيبة . ولا بد أن أعرف حدود قدراتي العقلية . . سوف أكتب عن الله !

وألف كتابه عن « الله » . وهو دراسة في مفهوم الألوهية عند كثير من العلاسفة . وانتهى العقاد إلى نظريته خاصة في معنى « الألوهية » هي أن هناك « وعيا كونيا » . هذا الوعي الكوني الالهي يلمسه الناس ويستشعرونه على أشكال مختلفه . . إن كل إنسان أو كل شعب يحس بهذا « الوعي الكوني » أو بعبارة أسهل : في هذه الغرفة أو هذا المكان الذي أنت فيه تجمع كل إذاعات العالم وكل جهاز راديو قادر على أن يلتقط المحطات المحلية . الراديو الصغير يلتقط المحطات المحلية . الراديو الأكبر والأقوى يلتقط الإذاعات الأجنبيه البعيدة . . وهناك المراصد تستطيع أن تلتقط الموجات المغناطيسية الكهربية الموجودة بين الكواكب التي تبعد عن ملايين السنين الضوئية . . أي أن هناك إذاعات في كل مكان . . وكل جهاز يلتقط ما يقدر عليه . . وهذا تشبيه فقط ولكنه ليس دقيقا جدا . فهذا الوعي الكوني الذي هو قوانين الأشياء وقواعدها وحكمتها والقدرة على إتقانها وتنظيمها وتحريكها هو : الله . . وكل الأفراد والشعوب في كل العصور « يدرك ذلك بأشكال مختلفة !

فالعقاد يحاول أن يعرف قدرته وحدوده أو كيف يستطيع عقله تخطي الحدود الحسية والمعنوية لعله يدرك الحقيقة وراء الأشياء . .

وكانت للعقاد طريقة هي أنه يبحث عن « المفتاح » الذي يعالج به الأبواب المغلقة . أو الشخصيات العاصية . . إنه يقرأ ويقلب فيها حتى يعرف مدخلها . فإذا عرف ذلك وجدته يتحدث عن كل شيء بسهولة ويسر ينتهي الوضوح .

شيء عجيب يواجهك وأنت تقرأ كتابه « خلاصة اليومية » وهو أول كتاب للعقاد . وهذا الكتاب يضم مجموعة من الآراء والحكم . وهذه المعلومات المكثفة أو الحقائق المقبورة تدل على أن العقاد قد أدرك أشياء كثيرة بوضوح . وهذا الوضوح جاء مبكرا جدا . وكان العقاد يفخر ويسعد عندما يقال له : أن هذا ما اهتديت إليه يا أستاذ من أربعين أو من خمسين عاما . وانك عرفت هذه الحقيقة وأنت شاب !

وكان يقول . الحمد لله على ذلك . فقد رأيت هذا المعنى وأنا ما أزال شابا صغيرا . فلما كبرت رأيته أوضح . ولكنه هو هو !

حتى شعر العقاد في هذه السن المبكرة كان نوعا من الحكمة التي لا يبلغها الانسان إلا في سن متأخرة . فهو القائل في هذه السن الصغيرة .

لقد ثقلت على نفسي حياتي
وأشعق عائدي وشكت أساتي
سئمت قضا أريد اليوم إلا
دواء الموت من داء الحياة
إذا كانت حياة المرء سجنا
فشق اللحد باب النجاة

ويقول العقاد أيضا :

لا تحمدن غنيا في شبيبته
قد يكثر المال مغرورا به الكدر
تصفو العيون إذا قلت موارده
والماء عند ازدياد السيل يعتكر

وكان العقاد يقول أن هناك نوعين من الناس : أناس يلمسون الأشياء بعيونهم وأناس يرون بعيونهم . فعندما قال الناس أن هتلر سوف ينتصر في النهاية لأنه سحق النمسا وهولندا وبلجيكا وفرنسا والنرويج وغيرها . . فهؤلاء الناس يلمسون الواقع بعيونهم . لأن الذي أمامهم هو سقوط كل الدول أمام هتلر . . ولكن العقاد كان يؤكد أن هتلر سوف ينهزم . . وكان يقول ذلك وهتلر ينتصر والعالم كله ينساقط أمامه . . وكانت للعقاد حجج أثبت الواقع أنها صحيحة . فهو لم يكن في ذلك الوقت ، ولا في أي وقت يلمس الواقع برموش عينيه . . وربما كان يرى ما هو أبعد من الواقع !

وكان العقاد يعتز بالفكر . ويرى أن المفكر هو أعظم مخلوقات الله . وأن الله قد أعطاه الموهبة أو الصفة التي رفعته عن الحيوان وعن الإنسان . ولذلك يجب أن يرفع رأسه وأن يرتفع . وكان العقاد عاليا . عملاقا . وكان الذي يزور العقاد يشعر أنه قد أصيف إليه بضعة أمتار عن سطح الأرض .

قال لي ابراهيم عبد الهادي يشا : أن العقاد كان نموذجا للإباء والكبرياء . وأنه تعذب كثيراً بسبب ذلك . ولكنه ظل في حياته الخاصة والسياسية والأدبية الرجل العظيم الاحترام لنفسه ولضميره !

وكان العقاد قاسيا على نفسه . فهو لم يكن موظفا . ولكن له كل عادات الموظفين . فهو يصحو في ساعة معروفة . ويجلس إلى القراءة وإلى الكتابة ساعات . وبعدها ينزل من مصر الجديدة إلى القاهرة . ويتردد على المكتبات المعروفة . وبعد ذلك يذهب إلى بعض اللجان . ثم يعود إلى بيته في ساعة محدودة . يأكل المسلوق . وينام . ويبدأ القراءة والكتابة . ثم يمشي ليعود إلى بيته ليستمع إلى الموسيقى . ويأكل وينام . . وهو الذي وضع هذه القواعد لنفسه . والتزم بها .

وهو يطلب من الناس أن يحرصوا على القواعد والآداب والأصول ، تماما كما يفعل هو .

ولما أعرف أن للعقاد نوادر محرجة ومضحكة أيضا . ولكنه لم يرها كذلك

في أحد الأيام جاءه الحاج عبد الرحمن السقاف من سنغافورة يطلب ترجمة مؤلفات العقاد الإسلامية ونشرها في الشرق الأقصى مقابل عشرة آلاف جنيه استرليني . وفرح العقاد بذلك . وأبدى الحاج عبد الرحمن رغبته في زيارة العقاد .وتحددت الساعة الخامسة بعد الظهر . ولا أعرف جيدا ماذا يحدث في بيت العقاد في هذه الساعة . فقبل هذا الموعد بعشر دقائق تماما ينادي العقاد خادمه ويطلب إليه أن يعد عصير الليمون والقهوة . وأن ينتظر . ثم يرتدي العقاد بدلته وطربوشه ويدخل غرفة الانتظار قبل الموعد بدقائق . وينتظر . ثم يقول لابن أخيه عامر العقاد : انتظر السيد فلان أنه سوف يجيء في الخامسة ! وجاءت الخامسة . ولم يحضر الرجل . ومضت خمس دقائق طويلة . ولم يحضر الرجل وبدا القلق على العقاد . ولما كانت الساعة الخامسة وعشر دقائق نادى العقاد بصوته العالي يقول : أغلق الباب . اذا جاء الرجل الملعون قل له أن الأستاذ نزل إلى الشارع !

أما الرجل الملعون فلم يكن ملعونا . وإنما هو من كبار الشخصيات العربية في سنغافورة . ومن أكثر الناس حبا للعقاد . ثم أنه جاء مصر من ألوف الأميال . . ومن الممكن أن تكون المواصلات وإشارات المرور وجهله ببيت العقاد ، قد عوقته بعض الشيء . . ولكن هذه الأعذار لا يقبلها العقاد ، لأنه شديد الحرص على مواعيده مع الناس ، ومواعيد الناس معه . .

وفي الخامسة والربع جاء الرجل القادم من سنغافورة . ودخل . ومد يده

للعقاد يقول : آسف يا أستاذ والمواصلات . . الخ . وقال العقاد غاضب : دعم هذه مسألة موجبة للأسف !

وهو رد عنيف . ولكن الذى فى نفسه أعنف من ذلك وأحس الرجل الغادم من بعيد أن العقاد قد ضاق به . فاستأذن وخرج .

وفى اليوم التالى طلب العقاد فى التليفون أحد المسئولين فى المؤتمر الإسلامى وقال له : يا أستاذ لقد جاءك الرجل من آخر الدنيا . ولا يعرف بيتك وجاء يشترى كتبك . تقابله أسوأ مقابلة .

وثار العقاد وهو يقول : وهل تتصور يا مولانا أن رجلا لا يحترم مواعيده . وأن رجلا فعل ذلك هل أقيم له حفلة تكريم . . هل تتصور أن رجلا يشغل العقاد عن رياضاته اليومية يستحق منى الاحترام . . ملعون أبوك على أبوه . . ووضع سماعة التليفون !

وكان من عادة العقاد أن يبعث لنا بمقالة لكى ننشرها فى جريدة « الأساس » سنة ١٩٤٨ وما بعدها فى مواعيد محددة . فى الساعة العاشرة عشرة صباحا . يجىء سائق سيارته فى هذا الموعد بالضبط . . وقد حمل مقالا مكتوبا على ورق صغير بالحبر الأحمر .

وفى يوم عرف العقاد أن مقاله قد وصل متأخرا عن الموعد المحدد . فحاسب السائق حسابا قاسيا . وباع سيارته . وطلب إلى السائق أن يأخذ التاكسى ما دامت السيارة تتوقف فى الطريق وتعطل العقل عن الموعد المحدد . .

مع أنه فى إمكان العقاد أن يبعث بمقاله فى أية ساعة حتى منتصف الليل . . أى بعد ذلك بثانى عشرة ساعة . ولكنه الدرس بموعد . وهذا يكفى !

وكان العقاد شديد الاعتداد والاعتزاز بنفسه . ولذلك كان يستحق الاحترام من الجميع .

وفى إحدى المرات ونحن طلبة فى الجامعة طلبت إليه أن يلقى محاضرة لطلبة قسم الفلسفة . ووافق العقاد فورا . فقال : فى أى موضوع !

قلت : فى أى موضوع تراه يا أستاذ ؟

فأجاب : بل أنتم الذين تختارون الموضوع . أنا لا أختار . فهو يستطيع أن يتحدث فى أى موضوع فلسفى . واخترنا له موضوعا كان يحدثنا . وكنا نحتاج

منه إلى كلام واضح . وكان الموضوع هو : « منهج الغزالي في الفلسفة ونظرية النسبية عند ايشتين » . وتحدد موعد المحاضرة . وكان ذلك في المدرج رقم ٧٨ . وامتلأ المدرج وسمعنا ما لم نقرأ من قبل . وكان العقاد رائعا !

وازددنا إعجابا وحبا للعقاد . .

وفي إحدى المرات داعبني العقاد في مقال نشره بأخبار اليوم . وكانت المداعبة قاسية . إما لأنني لا أتوقع ذلك من العقاد ، أو لأنه لم يخبرني بذلك رغم اتصالي به كل يوم . . وتضايقت . وانتظرت أن يكتب العقاد شيئا فأنتقده أو أهاجمه . أو أضايقه . ولن كان يعز على ذلك !

وكتب العقاد مقالا عن « مسرح العبث » . ورأيت أن العقاد قد وقع في غلطة في اللغة اليونانية . ومن المؤكد أن العقاد لا يعرف اللغة اليونانية التي درستها . وأعددت مقالا أرد به على العقاد واستعير بعض عباراته التي يوجهها إلى النقاد إذا أخطأوا . ولكن لم أتصور أن العقاد من الممكن أن يسقط بهذه السهولة . فطلبت عامر العقاد ابن أخيه ، وقلت له : أنني سوف أهاجم الأستاذ بعد أيام . . فقد وقع في غلطة لغوية . ولن أهونها له . .

ثم ذكرت له الغلطة .

وبعد دقائق طلبني عامر العقاد وقال لي : الأستاذ يقول لك احترس . أنت المخطئ .

وسألته : كيف ؟

- لا اعرف . ولكن الأستاذ يقول لك . ويحذرك . . ويطلب إليك قبل أن تكتب أن تعود إلى كتاب كذا صفحة كذا . .

وبسرعة نزلت من المكتب وعدت إلى البيت . . وأتيت بالكتاب . ووصلت إلى الصفحة التي أشار إليها . . وصرخت فقد كان العقاد على حق !

ومزقت المقاله . وتضايقت . ولن كنت قد استرحت إلى أن العقاد ما يزال هو الرجل العالم الدقيق المتأكد من علمه ، المعتد بعقله الكبير !

وعشرات الأمثلة على ذلك في هذه العلاقة الغنية التي استمرت أكثر من عشرين عاما أتردد فيها على بيته وقبلها سنوات من القراءة والإعجاب عن بعد لكل ما كتبه في مجلة « الرسالة » الأدبية . .

وكان العقاد يضحك جريا وهو يقول : هذه البلد عجيبة يا مولاى . . إذا أرادوا مكافحة الشيوعية يشترون مؤلفاتى . إذا أرادوا الدعوة إلى الإسلام أعادوا طبع كتبى . إذا أرادوا أن يرشحوا أحدا لجائزة نوبل . رشحوا طه حسين ! ولكن هذه الكتب التى ألفها العقاد قد عادت عليه بمال كثير . يبدده فى شراء الكتب أيضا وكنا نتسابق فى ذلك . فكنت أمر على المكتبات أسأل عن كتب جديدة ، فكان يقال : جاء الأستاذ العقاد وأخذ كل صناديق الكتب الجديدة إلى بيته . وسوف يختار منها ما يعجبه وتعود إلينا الصناديق . فتعال بعد غد .

وفى إحدى المرات ذهبت إلى إحدى المكتبات فى نفس اللحظة التى جاءت فيها الكتب الجديدة . وفى ذلك الوقت كنت مشغولا بالفلسفة الوجودية ، وكانت مؤلفات الفيلسوف الوجودى الدنماركى كيركجورد تتصدر تباعا باللغة الانجليزية . وكنت انتظرها واصطفها وفى نيتى العقاد لاترجمه إلى الكلام عن الفلسفة الوجودية وعن هذا الفيلسوف بالذات لكى أقول أمام المعاصرين جميعا إننى حصلت على كتب جديدة مترجمة لم يرها العقاد بعد . وتكلم العقاد عن الفلسفة . وعن الفيلسوف الذى أريد وقد أحسست أن فرصتى قد جاءت . فقلت : لقد قرأت له كتابين جديدين . .

وأنا أقصد أن أقول : أننى وجدت له كتابين جديدين لا أعتقد أن الأستاذ قد راهما بعد !

فقال العقاد : أعرف الكتابين يامولانا . . وكنا اخرى غيرهما . . ولكن لم يعجبنى . .

ومضى يشرح ما الذى أعجبه وما الذى لم يعجبه من الكتب . ولابد أنه قد لاحظ شيئا من عدم التصديق فى عينى ولذلك نادى بأعلى صوته : يا ابراهيم . . هات الكتب المعلقة على السرير !

وجاء خادمة ابراهيم بكل الكتب .

وكانت الترجمة الكاملة لجميع مؤلفات الفيلسوف الوجودى الدنماركى ، ولم أكن أعرف إلا نصفها !

وعندما ألف العقاد كتابه عن « أبى نواس » احتاج إلى بعض المخطوطات القديمة استوراها من ايران وكلفته مبلغ الجنيهات . وربما نقل العقاد من هذه المخطوطات عباره أو عبارتين ولكن السقه هى التى تهم . أما الفلوس فإنها

لا تهم . . وهذا الكتاب لم يعجب طه حسين . . وأخبرنا بذلك . . وقلت للعقاد : أن طه حسين يرى أن كتابك هذا عبارة عن ترجمة عربية لكل فلسفة فرويد لسلوك الشاعر العربي !

وغضب العقاد وقال : بل طه حسين نفسه هو واحد من الأمراض النفسية عند فرويد !!

وكاد هذا الكتاب أن ينسف العلاقة بين الأستاذ العقاد وبيني . فعندما صدر هذا الكتاب طلب مني الصديق حلمي مراد أن ألخصه في مجلة « كتابي » ولخصت الكتاب في حوالي أربعين صفحة . وقرأها العقاد وأعجبته جدا . وقال لي : لو لخصت كتابي بقلمي ما فعلت أحسن مما فعلت !

ولكن الذي لم يدركه العقاد هو أنني كنت في بداية مشروع هو كتابة مؤلفات العقاد « أو بعضها » بعبارة سهلة . فالعقاد أسلوبه صعب في بعض الأحيان . . ويستخدم كلمات غير مألوفة . وقلت للعقاد : إنني سوف أحاول تلخيص بعض كتبك . . أو « تيسير » عبارتها . .

ولم أكمل هذه الجملة حتى ثار العقاد ورأى أن هذا الذي أقوم به هو قضاء على ملامح الأسلوب العقادي وطمس لشخصيته . . وإنما إذا كان الغرض هو تيسير القراءة فلا مانع . . ولكن تيسير الأسلوب وتعبيرة فهناك ألف مانع !

ولشكر للعقاد ثورته هذه . والا كنت قد أصبحت سنوات من عمري أقدم العقاد سهلا للناس « أفهمه هو وأتوارى أنا .

وفي ذلك الوقت رنت في ذاكرتي عبارة استنكار لكامل الشناوي . فقد كان من عادة كامل الشناوي أن يروي شعر أمير الشعراء أحمد شوقي « وأن يلقيه في الندوات . وكان الناس يحبون صوت كامل الشناوي في الالقاء . . ولكن انسحب كامل الشناوي . . ووجد أن هذا النوع من العمل ليس إلا تقديما لشوقي وتأخيرا له « وإنكارا لشاعريته هو . . ولو عاش مقرئا أو منشدا لشعر شوقي « لاعتاد الناس أن يسمعوه يردد كلام غيره لا كلامه . . وابتعدت تماما عن تسهيل العقاد . . أو تقريبه إلى الناس .

وكانت للعقاد قاعدة لا يحيد عنها « فهو يشترك في اللجان التي يتقاضى عنها مرتبا شهريا . ولا يشترك في اللجان التي يتقاضى عنها مكافأة كلما حضر .

وكان يقول : هذه اللجان التي تدفع لي مكافأة كلما حضرت . أنا حر أن أحضر أو لا أحضر . وأنا غاليا لا أذهب .

أما اللجان التى يتقاضى عنها مرتبا شهريا . فلابد أن يحصرها ...
على عكس طه حسين وتوفيق الحكيم - . وعشرات من الأعضاء .

ولم تكن للعقاد موارد مادية كثيرة . والذى كان يتقاضاه كان يشترى به الكتب . . وما تبقى يبقيه على عشرين أسرة صديقة فقيرة . وعندما مات العقاد وجدنا فى خزانته الخالية أسماء الأصدقاء الذين مال عليهم الزمن ، وحاول العقاد أن يحميهم من الهوان . .

وعندما مرض العقاد توقف عن الكتابة لجريدة « الاخبار » . ولم يكن يتقاضى مرتبا شهريا . وإنما كان يتقاضى أجراً بعدد المقالات . ولم نعرف كيف تعين العقاد على مرضه .

وذهبت إلى الأستاذ مصطفى أمين أحكى له ظروف العقاد . فأرسل إليه مصطفى أمين خطابا يقول له فيه : إنه شرف عظيم لمؤسسة أخبار اليوم أن يكون العقاد كاتبها . وإن أخبار اليوم قررت أن تعين العقاد بمرتب شهرى وأن تدفع له مرتبه مقدما وتنتظر مقالاته ، كما تنتظر رؤيته ، بشوق عظيم واحترام أعظم .

وأخذت الخطاب إلى العقاد فى بيته . ولكن العقاد اعتذر عن الطوس وعن الكتابة !

وعندما نقل المرض على العقاد زاره ابراهيم باشا عبد الهادى . وجلس على طرف السرير وترك مجلة أمريكية . ولما مد العقاد يده يرى المجلة تساقطت منها مئات الجنيهات . وصرخ العقاد يقول : خذوا هذه المجلة والطوس واعطوها لدولة الباشا مع الشكر !

وعندما أعددت حديثا للعقاد فى التليفزيون دفع له التليفزيون مائتى جنيه . ونشرت « الأخبار » أن « الأستاذ العقاد قد تقاضى مبلغ ٢٠٠ جنيه عن حديثه فى التليفزيون ! » .

وغضب العقاد جدا . وطلبنى فى اليوم التالى وهو يقول : وهل كثير هذا المبلغ على رجل مثلى أمضى من عمره ستين عاما فى القراءة والكتابة .. هل كثير على العقاد فى بلد كهذا أن يتقاضى هذه الأجرة مرة فى عمره .. إن أحقر راقصة تتقاضى هذا المبلغ فى هزة أو هزتين ..

(٣٨- عبقرى فى حياتى)

فقلت له في دهشة : ولكن أحدا يا أستاذ لم يقل شيئا من ذلك . لا أحد . بل إن الناس جميعا أسعدهم أن يسمعوك وأن يروك ..

- يا سيدى إن الطوس لا تهم العقاد . ولم تشغل العقاد .

- ولكن من الذى قال ذلك !

- اقرأ جريدة « الأخبار » يا مولانا .. إنها نشرت الخبر ووضعت في نهايته علامة تعجب ! علامة تعجب من ماذا ؟! بل إن هذا هو الشيء الذى يدعو إلى العجب !

وتعبت في إقناع العقاد أننا نعرف في وضع علامات التعجب بلا مناسبة ، حتى لم تعد هذه العلامات إلا عادة أو مجرد بديل عن النقطة الواحدة في نهاية الكلام . بل إننا لم نعد نستخدم النقطة الواحدة إننا نستخدم النقط الكثيرة هكذا ... فكأن هذه النقط هي علامات تعجب انكسرت عندما وقعت على السطر !

وقبل ذلك عندما صدرت مجلة « الشهر » التي رأس تحريرها الأستاذ أحمد الصاوى محمد . وكنت مع حمس فؤاد وعبد السلام الشريف كل هيئة التحرير فيها . وكان يملك هذه المجلة الأستاذ حامد العبد زوج السيدة لطيفة العبد ، فطلبت من العقاد أن يكتب لنا مقالا طويلا . وسألني : كم يكون طوله : فقلت له : عشرون صفحة قال : وهو كذلك يا مولانا !

وكان يستخدم كلمة « مولانا » لكل الناس وعليك أن تفسرها على هواك : إحتراما واحتقارا .

وسلمني العقاد مقاله وكان عن « الوجودية » .. هجوما عنيفا عليها ، في الموعد المحدد . وأسعدنا العقال أن يكتبه العقاد . وإن لم يكن قد أسعدني كل ما جاء في المقال ، ففي ذلك الوقت كنت أدعو للفلسفة الوجودية وأقوم بتدريسها في الجامعة . وأصدرت عنها أول كتاب سهل في اللغة العربية . وبعت منه أكثر من مائة ألف نسخة في سنة ١٩٥١ ..

وقررت المجلة أن تدفع للعقاد ثلاثين جنيها عن المقال . ورأيت أن هذا المبلغ قليل جدا . وخشيت أن أعطيه للعقاد فيغضب . وخشيت أيضا أن أبعث به مع أحد الأصدقاء فيستحي أكثر . فذهبت للسيدة لطيفة العبد ، وطلبت منها

ن نرفع مكافأة العقاد ، لأنه العقاد .. ولأنه شرف عظيم لنا جميعا أن يكتب العقاد .. وأمسكت القلم وغيرت فى الرقم فجعلته خمسة وثلاثين جنيها . وقبلت الأستاذ العقاد وأعطيته الشيك . ووضعه فى جيبه . وسألنى إن كان عندى مانع فى أن أرافقه إلى البنك . فقلت . بسعدنى يا أستاذ

ونزلنا معا . وذهبنا إلى البنك . وأمسك العقاد الشيك ووقعه وأعطاه لصراف البنك . وقلب الرجل فى الشيك واحمر وجهه ثم توارى . وعاد يتصبب عرقا وهو يقول : مع احترامى العظيم لك يا أستاذ ولكن الشيك فيه تغيير . والسيدة التى غيرت فى الشيك لم توقع مرة أخرى بجوار هذا التغيير .. طبعا حضرتك الأستاذ العقاد وكلنا معجبون بك . ولكنه الروتين يا أستاذ .

وغضب العقاد ، ولم أجد رأسى فوق كتفى . وبسرعة امتدت يد العقاد وبحوض الشيك إلى قطع تشبه ريش عصفور أبيض انفجرت فيه قنبلة .. وافترقنا عند باب البنك . ولم أعرف بالضبط ما الذى حدث .. وذهبت فورا إلى السيدة لطيفة العبد . وروبت لها ما حدث . ولا أعرف إن كانت السيدة قد اقتنعت لما أقول . ولابد أنها أشفقت تماما على هذا الشاب الصغير الذى أصيب فى عزيز لديه .. واقترحت أن نعطيه خمسين جنيها بلا شيك . ووافقت . ثم ترددت . فقد خشيت أن يظن العقاد أن هذه الأموال قد جمعناها من جيوبنا نحن الذين نحبه .. أو أنها كانت أكبر أو كانت أقل . ووافقت السيدة على كتابة شيك آخر ذهبت به إلى العقاد فى بيته .. وكانت الساعة التاسعة مساء . وكان الأستاذ نائما . فحمدت الله . وتركت الشيك ، وأنا مطمئن أن الأستاذ لم يغضب إلى درجة تعتمه من النوم المبكر !

• • •

وكنت أداعب العقاد وأقول له : يجب أن تغير هذا البيت الذى تسكنه يا أستاذ !

وكان يسأل : ولماذا يا مولانا ؟!

فلم يكن من الصعب أن أقول له : إنه ضيق . وقديم . وغير صحى ..

وكان العقاد يقول : إنه تغير على هذا البيت ستة من الملاك . والعقاد باق .

وكان يقول : ولكن هذا البيت له مزايا ملكية .. فالهواء يدخل من هنا ..

والشمس تجيء من هنا .. وفى الشتاء أذهب إلى هذه الغرفة .. وفى الصيف أجلس هنا .. وعند تعامد الشمس على مدار السرطان ومدار الجدى وحد الاستواء .. وأشياء كثيرة يقولها العقاد تقنعك بأنه ليس فى الدنيا أحسن ولا أجمل من هذا البيت !

ولم أكن أراه كذلك . فكنت أقول له : هل صحيح مايقال من أن فى هذه الشقة غرفة أستأجرها البواب .

- من قال ذلك ؟

- سمعت .. وأن البواب قد ملأها بالصفائح والكراكيب .

- لم يقل ذلك أحد غيرك !

وكنت أقول له : ياأستاذ هل معقول أنك تسكن فى بيت .. به أول وأسور جاز دخل مصر ، وآخر كتاب عن الصواريخ ؟

وكان يضحك ولا يرد . فهو حريص على البيت لمزايا فلكية . وهذا يكفى !

وفى غرفة نومه كل الأحذية الواسعة .. وهذا هو الشىء الذى أختلف فيه مع العقاد . فأنا لا أطيق أن أرى حذاء فى غرفة النوم . وإنما كل الأحذية والشباشب بروائحها وترابها يجب أن تكون بعيدة . ومن المناظر التى تؤذينى وتدهشنى أن أجد فى الافلام واحدا جاء بنام فألقى بحذائه وخلع جوربه ووضعه فى الحذاء وترك الاثنين إلى جوار السرير . وأرى أن المشكلة هنا هى مشكلة سينمائية .. فالمخرج لا يريد الممثل أن يذهب بعيدا عن الموقع الذى يتم تصويره فيه .. فهى عادات سيئة قد حتمها الإخراج وضرورة اختصار حركات الممثلين والممثلات أمام الكاميرا .. وربما كان عند العقاد أن كل أحذيته واسعة جدا مثل ملابسه .. وأن المسافات التى يمشيها قصيرة .. فلا يكون للأحذية رائحة كريهة .. أو لعل البيت كله قد ضاق بالكتب ، أو لعل أحدا من الذين يخدمون العقاد من الحماة ويرون فى فصل الحذاء عن السرير عن الجورب نوعا من الترف ، كما أن العقاد مشغول برأسه عن قدميه !

وكان العقاد يعالج نفسه تماما كما يفكر فى نفسه . ولا يجد العقاد فارقا بين الورقة يكتبها والروشتة ... يكتبها أيضا . فلما مرض العقاد وتقلب على جنبيه

يشكو من ألم هنا وهناك . عرضت عليه أن أتى له بأستاذ الجراحة فى قصر العينى د . جمال بحيرى . فوافق . وذهب د . جمال بحيرى يستمع من العقاد وهو يصف مرضه . ويشخصه . ويروى له كيف عالج نفسه . وكيف أنه لأسباب طبية يعرفها العقاد قد قام بتنويع الأدوية ..

وكان د . جمال بحيرى يهز رأسه يوافق على ما يقوله العقاد . ولما خرجا . سألت د . بحيرى إن كان الذى قاله العقاد صحيحا أو دقيقا . فقال : متناهى الدقة . إنه يتحدث كما لو كان أحسن طبيب باطنى !

ويبدو أن العقاد قد حرص على أن يكون الطبيب للعقاد أيضا . ولم يغير هذا الموقف : أن يكون هو الطبيب والمريض معا .. ولم يطح أحد فى إقناعه بغير ذلك . هل هو عناد العقاد ؟ هل هو علم العقاد ؟ هل هو عدم ثقة العقاد بالاطباء ..؟

على كل حال إنه العقاد الطبيب الذى قتل العقاد الأديب .!

والعقاد كان مشغولا عن البيت الذى يسكنه بالمعانى التى ترد على رأسه وهو يفكر فيه طالعا ونازلا . ففى كتابه « فى بيتى » يقول عن السلم الذى يرتقيه كل يوم : « كنت أصعده ثلاثا ثلاثا .. واليوم أصعده واحدة واحدة .. كنت أصعده وبياض شعرى يتوارى فى سواده ، واليوم أصعده وسواد شعرى يتوارى فى بياضه .. » ولم يغير البيت !

★ ★ ★

وكان العقاد إذا غضب يقول : عندما يحاسبنى الله يوم القيامة فإننى أقول له كيف تحاسبنى وقد خلقتنى فى عصر فلان من الناس !

وهذا الفلان يكون زعيما أو وزيرا أو كاتبا ، على حسب الظروف !

★ ★ ★

ولا نهاية لما يمكن أن أقوله عن العقاد كاتبا وأستاذا وصديقا وفنانا رقيقا ومحبا للدعابة ومهذبا وقارئا ..

وفى كل مدوة للعقاد كان هو وحده يملؤها بكل أنواع المعرفة . ويملؤك أنت أيضا . عقلك وقلبك . وأعلامك . ويرصف الطريق الى بيتك . وفى

هو شك يعلو رأسك إلى السقف ، وبعض هذك سعيد حين ينظر إلى السماء قد ارتفع وعلا ، لم يكن في سمو العقاد في سمائه أكثر من واحد يحس بسمو العقاد ، إنه هبة إنه رابطة إنه موهبة ... جنس فلا يأتي إلا جلس وإنما قل - إن العقاد قد انعقد بكامل هيئته وشن جنسه يتكامل فيه العدد الفاضلي وكل رأي هو رأي الأعلمية الشاعر ، والناقد والمؤرخ والفيلسوف والمصلح والسياسي ، رجل الدين والمفكر الحر ، بل سعد وأنى البكاء بهم جميعا : عباس محمود العقاد !

واتسعت الدنيا وتلونت
ووجدتني مواطنا عالميا

واتسعت الدنيا وتلونت، ووجدتني مواطنا عالميا

كان الخوف أقوى مشاعري في كل مراحل الطفولة .. وعندما أصبحت شابا صار القلق .. وعندما صرت رجلا أصبح الشك .. فقد كنت أتصور دائما أن الخوف أمام الباب .. ولذلك يجب ألا أفتح الباب .. ألا أخرج ليلا .. وكانت أمي تقول : العفاريت .. الذئاب .. اللصوص يخطفونك ويذبحونك ويسلخون من جلدك كعكا ..

وكنت أخاف من الليل والسير في الحقول .. وإذا نمت غطيت وجهي وذراعي وساقي فلا يظهر مني شيء حتى لا تلمسه العفاريت .. وإذا سرت في الشارع ووجدت رجلا معه قرد وحمار فهو غجري وهو الذي يخطف الأطفال ويذبحهم ..

وفي هذه السن المبكرة لم أناقش هذه المخاوف مع أحد .. ولا شككت فيها لحظة واحدة .. ولذلك فأنا أعود إلى البيت بسرعة قبل غروب الشمس .. وكنت أندهش عندما أرى الأطفال يلعبون كرة القدم في الليل في ضوء البيوت وأحيانا في ضوء القمر .. ولكني لا أفكر لماذا لا يخافون ..

وبسرعة أجد الجواب عند أمي : إنهم أبناء البلد .. أما نحن فغرباء ..

أي أن العفاريت تطارد الغرباء .. وهي تطارد الغرباء لأنهم يمشون واحدا واحدا .. ولا يمشون مجموعات كبيرة . ولما كنت وحدي فلابد أن أخاف على نفسي . وكنت أخاف .. وكنت أرى من النافذة وأحيانا من ثقب الباب أشباحا تروح وتجيء .. وأحيانا أسمع أصواتا .. أما الخربشة في الشباك ، فهي إما عفاريت وإما بعض الذئاب والثعالب تريد أن تلتهم الدجاج فوق السطح .. وقد رأيت الذئاب والثعالب واللصوص في بيتنا .. هذه حقيقة .. ولم أستطع أن أعرف إن كانت هذه ثعالب حقيقية أو هي عفاريت إتخذت شكل هذه الحيوانات ..

وفى يوم لا أنساه فى ساعه متأخره سمعت طرقات على الباب . ولم أجرؤ أن أخرج رأسى من تحت الغطاء .. ولا استطعت أن أوقظ أمى .. وانتقلت الطرقات من الباب إلى النافذة . وصحت أمى . وكان والدى .. وقد دفعنى الخوف الشديد إلى النوم العميق . وعندما صحوت لم أستطع أن أرفع رأسى من تحت الغطاء .. وظللت كذلك حتى إنتصف النهار .. فكلما حاولت أن أسمع لم أجد صوتا حولى .. وفى ذلك اليوم ظن والدى أننى مريض .. وقد أكد له صحة ذلك الاستنتاج أن وجهى كان أصفر .. ولم أقل له أننى كنت خائفا .. وقد ظن أننى لا أريد أن أذهب إلى المدرسة .. فهذا أول يوم فى العام الدراسى !

وكنت فى العاشرة من عمرى .. وكنت أمسك أى كتاب وأقلب صفحاته .. وأقرأ . ولا يهم أننى أفهم . ولكن اعتدت على ذلك . وأكثر الكتب لوالدى ، ولذلك لم أستطع أن أفهمها .. إلا كتابا واحدا .. هو رحلة « ابن بطوطة » وكان هذا الكتاب هو أعظم وأروع كتاب فى حياتى .. لم أفهم منه الكثير . ولكن كل الذى استطعت أن أعرفه من والدى أن ابن بطوطة رجل سافر إلى كل الدنيا وحده .. ورأى عجائب الكائنات والعادات . وسمعت حكايات من والدى ولكن احتفظت بالكتاب لأقرأه بعد ذلك بعام . ثم أعاود قراءته مرات بعد ذلك ..

وكان عالمى محدودا جدا .. لا أحاول أن أجعله أكبر وأوسع .. فلو إذا سرت فى شارع فإننى لا أعرفه .. وإذا عرفت بقالا أشترى منه ، فهو واحد .. لم تكن عندى هذه الرغبة ولا هذه القدرة ، على أن أغامر بمعرفة شىء جديد أو أحد جديد .. كأننى مربوط بحبل .. وعلى قدر هذا الحبل فإننى أتحرك . والغريب أن هذا الحبل من صنعى أو من صنع خيالى .. بل لست مربوط بحبل فقط .. وإنما كأننى أمشى تحت الأرض فى نفق له أول وله آخر .. لا أخرج عنه .. ولا أرى غيره .. بل إننى لا أرفع رأسى لا أرى الجانب العلوى من الشوارع أو البيوت .. ولا أرى إلا جانبا واحدا من الشارع .. وقد ذهبت إلى البقال وقفت فى نفس المكان الذى اعتدت أن أقف فيه .. ثم إننى أتحدث إلى بائع واحد ، فإذا لم أجد هذا البائع وظهر واحد آخر .. فإننى أرتبك .. وأحيانا أعود إلى البيت وأقول لوالدتى : ليس عندهم سكر الآن .. ربما بعد ساعة .. أو غدا !

وأهم ما في هذا الشارع كان عسكري المرور . على النيل توجد خيمة . وهذه الخيمة ينام تحتها رجال المرور . ولكن واحدا منهم قد وضع دعامتين على منضدة . ثم هو يسجل السيارات المتجهة يمينا وشمالا .. فيكتب . فورد رقم ٧٩ ملاكي اسكندرية الساعة التاسعة و ١٥ دقيقة .. وكنت مبهورا بعسكري المرور . وكنت أنظر إليه بإعجاب . ويزداد إعجابي به عندما يشير إلى السيارة . أية سيارة أن تقف . وكانت تقف . وطلبت من عسكري المرور أن أؤدي هذا العمل عنه ، ريثما يصنع القهوة أو الشاي أو يحلق ذقنه . وكانت ساعات من أروع ساعات حياتي . فأنا أقف وقد ارتديت الجلباب والعقاب والطاقية وأؤدي هذا العمل الجليل ..

ولم يكن الذي يهربني هو الوقوف هكذا .. ولا تسجيل البيانات .. وإنما منظر السيارات تظهر صغيرة ثم تكبر ثم تتوقف .. السيارات لامعة .. والناس ينظرون من وراء الزجاج اللامع .. وتتمنى السيارات وتصغر وتختفي .. جاءت من مكان بعيد ، وذهبت إلى مكان بعيد .. من المجهول إلى المجهول .. وشكل كاوتش السيارة .. معسول لامع .. مستدير دائر .. وأحيانا تثير وراءها ترابا ودخانا .. والناس وراء الزجاج بالبدل والفساتين والسيدات بالملابس الملونة والأطفال الصغار وأحيانا الكلاب . شيء غريب عجيب .. إنه عرض يومي مستمر .. أنظر إليه مسحورا مبهورا .. كل شيء يتحرك بسرعة من هنا إلى هناك .. وأحيانا تتوقف السيارات لشراء الفاكهة أو سندوتشات الفول . أو لإلقاء أكياس من الورق الملون اللامع .. وعندما يتقدم إليهم الشحاذون ، فإنهم يعطونهم بالقرش والقرشين دون أن يشتموا أو يضربوا الشحاذين . وإذا القوا أعقاب السجائر فإنهم يدوسونها بأحذية جديدة لامعة .. بل إنني رأيت سيدة تدخن وقد أدهشني ذلك تماما ..

وكنت أرى التوربات يغسلونها بينما السائقون يشربون الشاي أو يضحكون أو يشاجرون .. ثم تتحرك التوربات بعيدا إلى مدن أخرى .. وكنت أقترب من السيارة وأنظر في داخلها إلى الدريكسيون ولا أعرف ما هذا .. وأنظر إلى عدادات ومفاتيح ولا أفهم .. وأسمع صوت الموتور يدور . ثم يعلو ويعلو ويندفع كأنه في حالة غضب .. كان للسيارة عقلا وقلبا .. شيء عجيب حقا

ووراء النيل قد امتلأ بالمزارع الشراعية .. وعلى الضفة توجد نوران قوقها

حلل الطعام . وسيدات يطبخن لهما الرجال يصلحون أشرعة السفن . وأحيانا ينزلون إلى الشاطىء يجرون السفن الشراعية .. وتعالى أصوات المراكبيه ويصرخون . حركة في النيل وعلى الشاطىء .. أناس كلهم على سفر يتحركون .. ليسوا مربوطين ولا جامدين وليسوا هائمين أيضا .

ومن المناظر التي كنت أحب أن أراها تراحم السفن عند الكباري في انتظار أن يفتح لسفائف مسيرها .. وكذلك تراحم السيارات والتوريات وعربات الكارو هذا الزحام . هذا التحضر هذا الاتجاه . صحيح أنه زحام ولكن كل واحد له طريق وكل طريق له هدف وكلهم يتحركون بعيدا . أو جاءو من بعيد .. هناك مسافات لا نهاية لها ..

ودون تفكير مني أو من زميلي في المدرسة وكان ابن العمدة تسللنا إلى إحدى المراكب في النيل .. نريد أن نذهب بعيدا .. نريد أن نعرف . وتوارينا بين شوالات القمح .. وجاء الليل تولانا الفزع فرحنا نبكي نحن الإثنين .. وكان شتاءا باردا .. وتعالت أصواتنا بالبكاء . واكتشفت المراكبية وجودنا . وأول ما بادر إليهم أننا لصوص وعندما نظروا إلى ملابسنا والى كتب معنا .. راحوا يسألوننا عن السبب .. وعندما طلع النهار . أنزلونا وأشاروا أن نمشي على النيل في هذا الاتجاه لنجد أنفسنا في بيوتنا بعد ساعات ..

وأحزنني ما صار إليه حال أمي من البكاء ولا أعرف كيف عنفت لها . ولا كيف قبلت اعتذاري . ولكن رغم هذا الحزن فقد كانت مغامرة حكيتها كثيرا لزملائي في المدرسة وأضفت إليها من خيالي ما يجعلها إحدى المغامرات . بين أنني كنت أقول لهم : ووجدنا أناسا لهم ذيل .. وأناس يأكلون الأطفال الصغار ؟!

وكان زملائي يسألونني : وأين ذلك .. ومتى حدث ؟

وكنت أقول : في الليل .. حتى لسألوا فلانا .

وفلان هذا هو ابن العمدة الذي راقبني في هذه المغامرة . وكان يقول أيضا ويتوهم أحداث . ومن مغامرات الزملاء وسخرية المدرسين والفراشين ، لم تعد تروى هذه الحوادث الخيالية ..

وفي يوم وجدت سيدة غجرية في بيتنا .. إنها حمراء اللون وقد صبغت شعرها باللون الأزرق ويتدلى من أنفها قرط كبير . ومن أذنيها أيضا . وفي

- عليها أساور من ذهب .. وقد جلست على الأرض .. ونثرت قطعة من
عملس فوقها رمل . وكانت تضرب الودع لوالدتي . أي تشوف بختها .

وسألت والدتي أحمست بدهشتي ، فهي التي كانت تحبني من العجز الذين
يحضرون الأطفال . فلابد أن تقول لي شيئا عن سبب وجود هذه العجرية .
ولما كانت لا تريد ذلك ، طلبت مني أن أشغل وأن أقفل الباب ورائي .. أو
خرج لألعب أمام البيت . ودخلت وأقفلت الباب .. ثم فتحته قليلا لأسمع
ما يدور بين السيدتين .. ولم أفهم .. ولكن لاحظت أن والدتي أعطتها فلوسا .
والعجرية وعدتها بشيء ما سوف تأتي به بعد غد .. ولم أر فرحا أو صفقا
على وجه والدتي . واعتقدت أن أرى هذه السيدة كثيرا في بيتنا .. تشتري وتبيع
سجاج والبيض والمناديل والقمصان والأساور .

وزارت أحد أقاربي كان يعيش في الإسكندرية . وجلست مسحورا إلى
جواره أسمعه يتحدث عن البحر والمواجات والسفن الكبيرة التي تنقل
البضائع .. وعن أسماء غريبة : محالي .. وبني .. وريشارسون .. والخواجة
أفوس .. والسيدة فكتوريا .. وكيف أنهم لا يكذبون وأن بيوتهم نظيفة .. وأنهم
لا يسبون الأعياد .. وأنهم يأكلون لحم الخنزير .. وأنهم يشربون النبيذ
والبيرة .. وأنهم يذهبون إلى الكنيسة كل يوم أحد . والغار وأسرار كانت
تهزني وتفتح عيني .. وتجعلني لا أريد طعاما ولا شرابا ولا نوما . وإنما فقط
أن أسمع إلى ما يقوله قريبي .. وكنت أنظر إلى يديه وقدميه .. وأصابعه
وعينيه وملابسه .. متوقعا أن أجد شيئا غير مألوف ..

وعندما سألته : وهل يذبحون الأطفال ؟

ضحك وقال : ليس في مصر .. في إفريقيا ؟

يقصد أن شيئا من ذلك لا يحدث في بلادنا . ولكن في بلاد أخرى . ولم
أسأل ولم أفهم .

وسأل عن الكتب التي أقرؤها أو من الناس الذين أجلس معهم . وعرف أني
أحاول أن أقرأ رحلات ابن بطوطة ..

وكنت أحب كثيرا جدا أن أتسلل إلى زورق صغير يربطونه بالسفن
الشراعية . وأجلس فيه والموج يعلو ويهبط وأنظر إلى ظلال السفن على
الماء .. وإلى العراكيبة يخلعون ملابسهم ويغطسون تحت السفن .. ويطهرون

عرة تمامًا .. ثم يرتدون ملابسهم .. ليخلعوها ويلقوا بأنفسهم في النيل .. ويربطون السفن في الشاطىء .. إلى الأشجار أو إلى أعمدة من الحديد يدقونها في الأرض .. وأحيانًا يأتون بحمار يجر السفينة .. وأحيانًا بحصان أو بثلاثة من الرجال . وفي يوم أعطاني واحد منهم رغيفًا ساخنًا . وطلب مني أن آكل معه .. وأكلت . وعندما حكيت هذه القصة لوالدتي ، صفعتني بشدة قائلة : مادا يقول عنك الناس ؟ جائع لا يجد طعامًا في بيته ؟!

وفي إحدى المرات جلست في الزورق الذي راح يهتز .. فجأة وجدت نفسي في الماء أعلو وأهبط وأصرخ . حتى أخرجوني من الماء .. هل غلبني النوم ؟ هل هي رغبة عميقة في أن أعوم ؟ في أن أفقد هؤلاء المراكبية . وكان ذلك آخر عهدي بالماء .. فظللت بعدها لا أنزل الماء ولا أحاول . ولا تعلمت السباحة ولا نجح أحد في أن يعلمني السباحة !

بسرعة بدأت علاقتي بالماء أو بالاقتراب منه ، وبسرعة إنتهت . كأنه مكتوب ألا أقترب من شاطىء نهر أو بحر .. إنتهى . وكانت تجربة أليمة مريعة . وعندما خرجت من الماء . لم يكن عندي سوى حرف واحد . مادا أفعل بملابسي التي ابتلت . وما الذي سوف تفعله أمي وبسرعة وجدتني بصف عريان وقد نشروا ملابسي على حبل في الشمس . وجدت ملابسي . وعندما عدت إلى البيت رويت لأمي كيف أن أحد رملائي كان في زورق وغلبه النوم فوقع في النيل .. ولكنهم أنقذوه . فصفعتني عدة مرات بشدة وطلبت ألا ألعب به بعد اليوم . فربما حدث لي ما هو أسوأ من ذلك . فأغرق وأموت !

• • •

وفي مواجهة هذا العالم ، هذه الدنيا الصغيرة المحيطة ، كان لابد أن أحمي نفسي . فاخترعت مجموعة من الأوهام والأكاذيب ..

فإذا لاحظ رملائي أنني أسرع إلى البيت قبل أن تغرب الشمس قلت : إن والدتي مريضة وأنا الذي أطهو لها الطعام وأعطيها الدواء.

وإذا لم أشارك في اللعب مع الأطفال إدعيت أن قدمي توجعني .. وأنني ممنوع من الوقوف في الشمس . وإذا طلب أحد الزملاء أن يزورني في البيت لنتذاكر معًا ، قلت أنني أنام مبكرًا ..

وإذا كان أحد يأكل فاكهة أو سندوتشا مثلا وقدم لى قطعة منه قلت . إنها حلت لى مغصا .. أو أننى مصاب بإسهال .

وفى يوم جاءنى أحد الزملاء ليلا ولم نكن والدتى بالبيت وراح يدق الباب .. وقال إفتح ..

قلت : ماما ليست موجودة ..

قال : وإيه يعنى !

قلت : عندنا كلب ، سوف يهجم عليك ويمزق ملابسك .. غدا صباحا .. أو فى المدرسة ملتقى !

ولم يكن عندنا كلب ..

ووجدت الزملاء قد تباعدوا .. وأنا لا أحاول أن أقترب من أحد . وإذا حدثت فإنهم لا يبالون بذلك . ويسخرون قائلين : إجر يا شاطر على أمك !

وفى يوم زارتنا والدة أحد الزملاء وطلبت من والدتى أن أحضر إحتفال عيد ميلاد إبنها . ووافقت والدتى بسرعة فقالت لها السيدة : ولكنه يقول لزملائه فى المدرسة أنك تضربينه ليلا ونهارا ولأتفه الأسباب ..

ولكن والدتى واصلت . وخرجت مع والدة زميلى . وكان لابد أن أعود إلى البيت وحدى ليلا .. وكانت تجربة مروعة . لا أعرف تفاصيلها . وكل الذى أذكره أننى لم أشعر بنفسى ولا بالطريق .. وإنما كنت أسير على الأرض أو فوقها .. فأنا لم أشعر إلا بأننى أدق باب بيتنا .. وإلا أن الباب انفتح .. وإلا أننى أرتدى قردة جزمة واحدة .. ورويت قصصا من بينها أن الكلب طاردنى . وأنه حاول أن يأكلنى من قدمى فخرجت الجزمة من بين أنيابه ..

والمعنى : حمد الله على سلامتى !

ولكن لم تصدقنى والدتى . وكان لابد من الضرب المبرح بسبب إهمالى الشديد ؟!

* * *

ولا أعرف على التحديد متى تحطمت حواجز الخوف والفزع من الناس والليل ومن نزع الغطاء من فوق وجهى صيفا وشتاء ..

ولكن من المؤكد أن كل شيء في حياتي قد تغير عن طريق الكتاب فالكتاب هو العالم الذي أفتحه وأقضيه ليلا ونهارا وأسطر عنه إلى الناس .. وكانت دنيا الكتاب أوسع وأطول وأعمق وأجمل .. وكل كتاب أقرؤه : يفتح جديدة .. ونور جديد .. وأناس جدد .. وكل كتاب أقرؤه أرتفع به شبرا عن الأرض وعن الناس .. وأصبحت معنى أن أسأل رملائي إن كانوا قد قرأوا الكتاب الفلاني .. فأجدهم لم يقرأوه .. وتكون سعادتي .. كتابا بعد مائة كتاب بعد ألف كتاب .. ولم أجد أحدا منهم قد سمع عن « ابن بطوطة » ورحلاته .. وبعد ذلك عن ابن جبير . أما الكتاب كوك فلم يعرفه أحد .. مع أن الكاتب كوك كان مكتوبا في قصص الأطفال الإنجليز .. والكتاب وجدته بالصدفة .. فقد وجدته عند زميل أمه يونانية .. وكان أحسن التلاميذ جميعا في اللغة الإنجليزية . وكان المدرسون يطلبون إليه أن يقرأ وأن يكتب .. لكي نتعلم منه حسن الأداء .. وهو الذي قرأ لي هذا الكتاب الصغير .. وقد نسيت كل الكلمات وكل تفاصيل الرحلات إلا صورة الرجل : طويل عريض ، شعره طويل ذهبي وأعينه وعيناه وبدلته العربية : القميص طويل وأكمام القميص تخرج من كم الجاكتة . والجاكتة طويلة جدا وواسعة . والبنطلون ضيق والجزمة لها وردة .. وفي يده ورقة كبيرة ملفوفة والرجل له شخصية قوية .. وله نظرة حصينة .. وهو ينظر بعيدا .. ووراء الرجل سفينة شراعية ..

بدأ حياته يعمل في دكان بقالة . والدكان يطل على البحر . وهو اسكندري . وكان عندما ينتهي العمل يجلس فوق صخرة وينظر إلى البحر . وفي إحدى المرات غلبه النوم .. ولكنه لم يسقط في الماء ، وإنما نام على صخرة كبيرة .. وعندما سألته أمه أين أمضى ليلته قال : إنه نام فوق صخرة معلقة على البحر

وصدقته أمه ولم يصدقه أحد

وسألته : ولكن لماذا يا ولدي ؟

أجاب : أريد أن أكون بحاراً .

قالت أمه : إذهب إلى فلان وهو يعلمك .

وذهب . وترك البقالة واشتغل عندما في إحدى سفن نقل الفحم . وكان رئيس المركب إذا طلب منه شيئا أداه بسرعة وبدقة . وإذا سقط شيء في البحر ،

ـ ـ ـــق البحاره إلى إلقاء نفسه في الماء والإبتعاد بالأشياء المفقودة . وانتقل بعضهم في سفينه أخرى وثالثة ورابعه ثم طلب إليه إحدى الشركات الملاحيه ـ ـكون هو قبطان إحدى السفن وكان في العشرين من عمره ..

وقد لاحظ زملاؤه من البحارة أنه يتقدم بسرعة . وأنه شجاع . وأنه مخلص وأنه يقرأ كثيرا . وأن المركب الذي يقوده إذا وقف إلى جوار ـــفن أخرى ترى كل البحارة وقد هبوا إلى بيوتهم إلا هو .. فإنه لا يترك المركب . ـ بعض هناك يأكل ويشرب ويمرح ويقرأ .. وكان يطلب إلى والديه زيارته في ـمركب . فهو لم يحب الشاطىء . إنه ابن البحر وسوف يعيش فيه ومن ـــه ..

ـ في سنه ١٧٦٨ أي عندما كان في الأربعين من عمره قررت الجمعية ـملكيه أن توفد سفينة إلى جزر تاهيتي لرصد مرور كوكب الزهرة وراء ـــمس . وكان ذلك حادثا هاما لن يتكرر إلا بعد مائة سنة وكان العلماء ـريصين على رصد هذا الحادث لمعرفة المسافة بالضبط بين الشمس والأرض ..

وتقدم لهذه المهمة كثيرون . ولكن الكابتن كوك هو الذي فاز بهذا الشرف ـعظيم . فقد قدم للجمعية الملكية تقريرا دقيقا كتبه قبل ذلك عندما وصف ـــوف الشمس على شبه جزيرة نيوفوندلاند .. لقد كان التقرير دقيقا شاملا ـــل ايضا مسحا وافيا لشبه الجزيرة جغرافيا واجتماعيا . وقد رأت الجمعية ـــ رجلا لديه هذه الموهبة وعلى الوصف الدقيق ، لقادر أن يقوم بالمهمة .. ـــد يكن هو الذي سوف يرصد كوكب الزهرة وإنما عدد كبير من الفلكيين .

ـ في يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٧٦٨ خرج على ظهر سفينة جديدة من ميناء ـــموث ليمس إلى تاهيتي بعد ثمانية شهور .. ولرصد الظاهرة الفلكية يوم ٣ ـــونيو سنه ١٧٦٩ .. وكان رصد الظاهره هو السبب المعلن من هذه الرحلة .

ولكن السبب الأهم هو اكتشاف أستراليا . أي الأرض الجنوبية المجهولة . ـــ يضع العلم البريطاني ويضم الأرض الجديدة إلى التاج البريطاني . هذه ـــي المهمة . وقد اختارت الجمعية الملكية أعظم مكتشف في كل العصور ، ـــم يستطع أحد أن يكتشف أرضا بهذا الاتساع في اي وقت . فهو إكتشف ـــــر لية ، نيوزيلندا وجزر هاواي .. وغيرها من الجزر الصغيره ..

وكان الكابتن كوك يكتب مذكراته كل يوم وبدقة شديدة . ومن يقرأ مذكراته يخيل إليه أن هذا الرجل لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يمرض .. وكأنه لا يركب سفينة صغيرة وسط الأمواج والعواصف والشعب المرجانية وبحر البحارة . وإنما كأنه يمشي على الماء ليكتشف أرضا جديدة في ظروف قاسية وهو لا يشكو ولا يتألم . كأنه يعرف مكانها بالضبط فيذهب إليها .. مع أنه لم يكن على يقين من أي شيء .. ولا كانت الخرائط التي معه دقيقة .. ولكن شيئا ما في أعماقه يؤكد له أن الأرض الجديدة هناك في انتظاره ليكتشفها . وقد يسهل لنا حوارا بينه وبين البحارة .. بل إن البحارة عندما كان يعذبهم الجوع والعطش والملل ، فهو يسجل أقوالهم ولكن يرد عليهم .

وهو الذي إكتشف أن نقص الخضروات والفواكه قد أدى إلى موت كثير من البحارة بمرض الكساح والإسقربوط .. ولم نكن قد عرفنا فيتامين ج الموجود في البرتقال . ولكنه بالملاحظة الدقيقة إكتشف خاصية البرتقال ولذلك كان يصر على إطعام البحارة خضارا وفواكه طازجة .. فلم يمت من بحارته أحد !

وكان ينام قليلا جدا . كان ينام ساعة واحدة في غرفته الدافئة . وينام ساعات أخرى متقطعة جالسا على ظهر السفينة .. ينام دقيقة ويصحو أخرى ولا يعرف إن كان صاحيا أو نائما . كأنه ينام بعين ويصحو بعين أخرى . وكان يقول في مذكراته : ساعة واحدة عميقة تكفيني جدا ..

وكان آخر من ينام وآخر من يأكل وآخر من يشرب وأول من يصحو وأول من يخلع ملابسه يدور حول السفينة يكتشف ما الذي فعلته الأمواج والعواصف بها ..

وفي إحدى الليالي إستأذن العلماء في أن يكتب خطابا لوالدته . وقرأ عليهم الخطاب القصير : والدتي أحبك وأؤكد حبي لك وإمتناني العظيم . فلولا تشجيعك ما جئت إلى هذا المكان في مهمة جليلة . إن كل عمل أنجح في أدائه فالشكر لك . وإذا كان العمل جليلا . فالشكر لك واجب على التاج البريطاني .

وقبل أن يسأله العلماء كيف يرسل هذا الخطاب إلى والدته .. كان وضعه في زجاجة وأغلقها وألقى بها في المحيط قائلا : وعدها بأنني عندما أفرغ من كتابة خطاب لها أن أبعث به فورا !

ـ تضحك . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يضحك فيها .

ثم استأنف العلماء في كتابه خطاب آخر لوالده . لأنه قد نسي أن يقول لها شيئا هاما . وجلس يكتب بحذيه وهم يضحكون . شيء آخر يا ماما نسيت أن أقوله لك . لقد فرضت أمسي ، وضربت نفسي قلما بالنيابة عنك ، لقد نسيت أن تعد أوامرك في الصلاة كل يوم أحد . نسيت أن أصلي وأدعو لك يوم الأحد الماضي . فليس من السهل أن تتذكر الأيام . معذرة .

ثم وضع الخو ـ في زجاجه وألقاها في المحيط دون أن يضحك هذه المرة !

* * *

واصبح البحث عن كتب للكابتن كوك من آمالي في الحياد . وكان أملا صعبا . لقد مضت سنوات طويلة دون أن اعثر على كتاب له أو عنه .. ولكن وجدت كتابا عن (الرحلات البحرية القديمة) من تأليف عبد الرحمن بدوي . وكان كتابا ضخما ومددت يدي وقلبت ووجدت فصولا عن الكابتن كوك . ووقفت أتصفح الكتب ثم جلست على الأرض أمام المكتبة وقرأت الكتاب كله في ساعتين . وتطرت إلى بائع الكتب ووجدته وكأنني سرقت منه شيئا . وسألني الرجل ألست أنت ابن فلان ؟

قلت : بلى إنه والدي

فقال الرجل هذا الكتاب لك !

ولم أتم ليلتي .. جلست أقرأ الكتاب على مهل من أوله لآخره .. وانظر إلى الصور والخرائط .. وأدهشني أن الكابتن كوك كان هو الآخر يخاف من الليل ومن أمواج البحر . ولكنه تساءل فيما بينه وبين نفسه . ولماذا يكون الليل مخيفا ؟ ما الفرق بين الليل والنهار .

فقرر في أحد الأيام أن ينام أمام البيت ليلا . وأن يظل مفتوح العينين ليرى ما هذا الذي يجيء في الليل ويخيف الناس ولا يطلع عليهم بالنهار . فلم يجد شيئا وانتهى الخوف !

أما الذي اكتشفه الكابتن كوك فهو الساحل الشرقي من استراليا .. وكتب

سفينته تحطم في الحاجز المرجاني المعتد ألف كيلومتر .. ولكنه رغم ذلك لم يحف وإنما تفادى الموت والمجارة كلهم يائسون .. فلما طلع النهار أصابهم الرعب . وتأكدت عظمة الكابتن كوك لديهم ..

واكتشف أيضا جزيرة نيوزيلندا .. ووقفت سفينته على شاطئها . وهاجمه السكان الأصليون وأطلقوا السهام والرماح .. وأطلق عليهم النار .. وقتل منهم عشرات .. ولكن امتلأت سفينته بالفواكه والخضروات . وهجم البحارة على الفيات . وحذرهم من المرض . وبقى هو أعظم جميعا .

وقال للعلماء على ظهر سفينته : إنني أسمع صوتا غريبا يملأ نفسي ويقول : امامك مهمة أكبر .. إنها النهاية !

واكتشف جزر هاواى . وكان السكان الأصليون لهذه الجزر ينظرون إليه على أنه إله . فالأساطير تقول لهم أن الإله سوف يكون طويلا عريضا ويجيء على ظهر جزيرة .. أو سفينة كبيرة كأنها جزيرة .. وواجهه السكان الأصليين بقسوة . وكان يستغل تقديسهم له وكان يبالغ في إنهارهم .. فكان إذا دخن السيجار أمامهم سقطوا ساجدين : إذ كيف يخرج الدخان من فمه ولا يحترق !

وكان يضع يديه في جيوب البنطلون فيسقطون ساجدين .. إذ كيف يضع يديه في بطنه ، ثم لا يموت بعد ذلك .

ولما أطلق النار على شيخ القبيلة وأرداه قتيلا ، لم تفهم النار التي لا يعرفونها . وإنما أفزعهم وأغضبهم مقتل شيخ القبيلة .. فقتلوا عقولهم وأطلقوا السهام والرماح على رجاله فقتلوا منهم كثيرين . ثم جاء واحد من ورائه وضرب رأسه .. فسقط على الأرض .. ثم في الماء ، فانهالت عليه السهام من كل جانب .. ومات يوم ١٣ فبراير سنة ١٧٧٨ عن خمسين عاما !

ونقل جثمانه إلى بريطانيا !

ولم يكن السكان الأصليون يتصورون أنه هو أيضا يمكن إصابته وقتله وموته .. فلما مات هاجموا البحارة والسفينة ونهبوها .. وكان انتصارا عظيما لهم !

وعندما ذهبت إلى جزر هاواى في أغسطس سنة ١٩٥٩ وقفت في نفس الأماكن التي وقف الكابتن كوك عندها .. وجاء من يضربني فوق رأسي ومن

يطلب أن أسقط على الأرض سهيل السهم إلى آخر ما حدث للمكتشف العظيم !

وعندما ذهبت إلى جزيرة سيلان (سرى لانكا) صعدت إلى قمة آدم . حيث وقف ابن بطوطه .. وحيث نزل أبونا آدم من السماء .. هكذا تقول الأسطورة .. فوضع قدما في سيلان وقدما في عمان في اليمن . وكانت قدم آدم كبيرة لدرجه أن التجويف الذى احدثته في الأرض ، على شكل قدم ، بحيرة كبيرة !؟

• • •

ولم عدت إلى قراءة كتاب « الرحلات البحرية القديمة » بعد ذلك . لم أجد فيه شيئا يستحق القراءة فالكتاب رديء الطباعة رديء الورق وليست به صورة وإنما هي لوحات ملونة سيئة .. ثم إن الصوره التي كنت احتفظ بها للكابتن كوك ثم تكن له ، وإنما كانت لممثل سينمائي ليس في كل إسمه : لا جيمس ولا كوك ولا كابتن . ولا أعرف كيف احتفظت بهذه الصوره سنوات دون أن أنظر إلى الإسم تحت الصوره .. وأسلوب الكتاب ركيك . ولم أجد معلومة واحده مفيدة ولا قصة ممتعة . ولا موعظه .. ولا شيئ يشجع التلاميذ في مثل سني على القراءه والمغامره .. والبحر والرحلات

ولكنني كنت أقرأ هذا الكتاب بخيالي .. بحسي الشديد . ورغبتي العارمة في أن أخرج .. في أن أحطم عالمي الضيق . في القفز من القفص المصنوع من الخوف والقلق والشعور الدائم بالغربه والعزلة تماما كما يحاول العصفور أن يهرب من القفص .. وبعد أن يهرب فإنه يحب فوق القفص . والذى يرى العصفور طائرا صاعدا هابطا ، يخيل إليه أنه إنما ينطلق فعوقه يظل طائرا حتى يموت فوق السحاب ولكنه فقط يريد ألا يكون في القفص .. ثم يظل مربوطا بخيط خيط فوق القفص !

وكذلك أنا ، لم يعجبني الكتاب ولا ما جاء به .. ولكنني ظللت محتفظا بهذا الكتاب سنوات طويله .. وحتى عندما وجدت كتبا أكبر عن الرحلات . وعن الكابتن كوك لم أتخلص من هذا الكتاب القديم . الذى هو صوره من تجاربي ومن حياتي . وكيف كانت تبدو الأشياء في الطفوله .. وقد عثرت على بيتي

في المنصورة . ووجدت البيت صغيرا والباب ضيقا والشارع حارة ، وكنت أرى ذلك كله واسعا شاسعا .

ونحن صغار ، كانت الدنيا أكبر منا ، ونحن كبار ، صارت الأشياء اصغر منا ..

وكذلك هذا الكتاب ، بعد أن رأيته صغيرا تافها ، لم أتخلص منه تماما كما لم أتخلص من ملابسي الصغيرة ومذكراتي الساذجة .. إنها صورة مني ومرحلة من تجاربي أتفرج عليها من حين إلى حين ، لأرى كيف كنت وكيف أصبحت .

ووجدتني بعد ذلك على سفر دائم ..

واتجهت إلى الخارج ، ولم يتسع وقتي لكي أرى أماكن كثيرة من مصر . فأنا رأيت استراليا ، ولم أر دمياط ورأيت كوبا قبل أن أرى رشيد .. وأقمت في القطب الشمالي ، قبل أن أرى أسوان .

وكانت رحلتي ، حول العالم في ٢٠٠ يوم ، سنة ١٩٥٩ على شكل كتاب في ٨٠٠ صفحة هذا الكتاب فاز بجائزة الدولة التشجيعية عن أدب الرحلات .. وهو أكثر الكتب العربية إستشارا بشهادة اليونسكو منذ سنة ١٩٦٣ حتى اليوم .

وكان كتابي ، اليمن ، ذلك المجهول ،
وكتبي ، أطيب تحياتي من موسكو ،
وكتابي ، بلاد الله خلق الله ،
وكتابي ، غريب في بلاد غريبة ،
وكتابي ، أنت في اليابان ،

أما كتابي ، أعجب الرحلات في التاريخ ، في ٧٠٠ صفحة فقد جمعت عشرات الرحلات التاريخية الكبرى ، برا وبحرا وجوا . وكان الهدف ، تشجيع الشباب على السفر والمغامرة وتقديم المثل الأعلى والقدوة الحسنة وكان ذلك عقب الإنهيار النفسي والهزيمة العسكرية سنة ١٩٦٧

وقد كان من نتيجة هذه الكتب أن ظهرت عشرات من الكتب عن الرحلات وأدب الرحلات والهجرة إلى القارات الخمس . وقد ساعدت كثيرين على الهجرة والسفر والرحلات والمغامرات .

من جد كتب حول العالم في ٢٠ يوم ... المجلس الأعلى للآداب
عضو جائزة الدولة في أدب الرحلات ..

مع عالمي الصغير وسع عمق وأجمل ومن خلف الصور في
صور المكتشفين والمغامرين وبدأ سفر بي بعالم كله ... وكتب
طعمها ورائحة وموسيقى وبهجة وشعر ... أي موضوع عالمي !

القلق الوجودى ومشاكل أخرى

القلق الوجودى .. ومشاكل أخرى!

لم يكن واضحا هذا السؤال : ما الذى يضايقنى فى الجامعة ؟

ولا واضحة أية إجابة عن هذا السؤال . فليس من الممكن أن يكون لى رأى فى العلوم الكثيرة التى أدرسها كيف يكون لى رأى وأنا لم أعرف منها إلا القليل .. وكيف يكون لى رأى وأنا غير قادر على أن أفعل شيئا . ولماذا أفعل أى شيء .. فمن الضرورى أن أدرس ومن الضرورى أن أحرص على ذلك وأن أنجح وأن أتفوق .. فمثلى ليس أمامه إلا اختيار واحد : أن ينجح ويتفوق ، فليس هناك أى سند مادى او إجتماعى يجعلنى احصل على نصيبى المتواضع من الحياة .. لا شيء إلا النجاح بتفوق ..

وإذا جلست إلى زملائى وجدتهم يلعنون المدرسين والمكتبة والكتب والامتحانات .. وهو كلام عادى جدا لا معنى له ولا قيمة أيضا . فالذى يشكو من الكتب عنده مكتبة فى بيته والذى يشكو من أن هذه الدراسة لن توصله إلى شيء ، يجيء إلى الكلية فى سيارة .. والذى يتحدث عن مستقبل الدراسات العليا قد تحدد مستقبله نهائيا .. فهو عنى إبن عنى .. ويستطيع أن يعيش بلا فلسفة وبلا دراسة وبلا نجاح ..

إن فهل هذا الذى أقوله دليل على ضعف شخصيتى ، وعلى أننى أكثر مما يقوله الغير دون فهم ؟ !

او أن الذى أقوله لنفسى ليس صحيحا .. فأنا عندى مشاكل كثيرة . وعندى تعبير عن هذه المشاكل فإننى أستعير مفردات أخرى . فبدلا من أن أشكو من المواصلات ، وأننى أذهب إلى الكلية على قدمى ، فإننى أشكو من الممكن

المسيء في إصابة ، فإنني أصف الطمأنة بأن الذي يعطي بها عريان . و . الإنسان إذا تعب بحثا فإن يجد فيها الراحة .. إنها ليست الفراش الناعم و المعد الحريرية التي يوضع فوقها الرأس ، ويجيء النوم بعد ذلك .. وعندما أشكو من تكدس العلوم وأن بعضها يرتطم ببعض ، فإنني في الحقيقة أشكو من شيء آخر . هو تكدس الأثاث في بيتنا .. وإرتطامي به دهابا وإيابا ليلا عندما يعطب التيار الكهربي ، وعندما أستمع إلى تأوهات أمي وأبي فأسارع لأعرف أيهما يستعجل الموت ، ويستعجل أن يقول لي الكلمة الأخيرة . هذه هي التكسات الحقيقية التي أتوجع منها .. هذه الهموم الثقيلة على رأسي وعلى قلبي وليست العلوم الطبيعية ..

وفي الليل عندما يجتمع ملعب الشطرنج أجد أحد الرملاء يشكو من زوجه أبيه . وكيف أن والده ضعيف جدا أمامها وأمام إخوتها وأولادها .. وأنه يريد أن يترك البيت ، لولا أن خروجه من البيت يؤكد ضعف والده وقوة زوجته وأبوه يريد أن يتوهم أنه قوي ، وإنما فقط يحاول أن ، يقتصر ، الشر .. وأن تكون بينه وبين إخوته غير الأشقاء علاقات الأخوة والصداقة .. وأن يصير . وعلى الرغم من أن هذه الشكوى تأخذ شكل الدموع في عينيه .. فإنه من خلال هذه الدموع يصرخ من السعادة عندما يقول لي : كش الملك !

وأكش الملك ، ويغلبني في الشطرنج . ربما كان هذا هو الإنتصار اليومي الذي يسعده . بل إنه يرى في هذا النصر ، بشرى ، خير .. وأن الفرج سوف يأتي بعد هذا الضيق .. والله لطيف به فليس معقولا أن يكون مهزوما في كل مكان : في البيت والمقهى !

هأنا . إذن . مناسبة سعيدة له يستخرج منها الأمل والمستقبل الأفضل بإذن الله !

ورميل ثان إذا انفرد بي يقول لي صنايع .. صنايع . إلى الأبد !
فاسأل : من ؟
يقول : أنا ..

لماذا ؟ لأن والده مسلم ووالدته مسيحية متمسكة بدينها . فهي لا تشجع أولادها على الصوم والصلاة وفي نفس الوقت لا تمنعهم . خوفا من غضب

حب ولكن المشكلة أن كل البنات والأولاد الذين يدرسون على الأقل هم
ها هي بنت إنه لم ير سوى مصطفى واحدا فأنوه من أصول وكل أقاربه
و ت والعوجيون في القاهرة يعملون في حرف متواضعة وبدأ يتفهم
معنى العنصرية

، مه يدعي الصلاة والصوم ، ولكنها ليست صادقة في ذلك .. فقد صبحها
ـ من مرة تأكل وتشرب سرا في رمضان ، دون أن تعتبر عن ذلك
حتى مصارحته بأنها مريضة .. كاذبة ومنافقة إلى ؟! وأنوه محتوع وهو
ضائع بين الرجل المؤمن الضعيف والأم الكاذبة الكافرة ولذلك كان أكثر
تعلقا بجماعة الإخوان المسلمين ، وأكثرنا إنبطاحا على السنوات
الخمس ت

، في يوم قرر هذا ، الصنايع ، أن يترك البيت . تمهيدا لأن يترك مصر
بعد . قال لي : ما رأيك ؟

قلت : عندي مشاكل تمنعني من مجرد التفكير في ذلك .

قال : أما أنا فقد قررت نهائيا أن أترك هذه البلاد مع الأسف !

قلت : لماذا قررت نهائيا .

، قال لي إنه كان في غرفته عندما فتحت أمه الباب لتجده أمسك صليب من
خشب يحاول أن يثبت فوقه هلالا كما كانوا يفعلون أيام ثورة ١٩١٩ .
ـ ن يسأله أمه ما الذي يفعله وقعت رأسه ثم صفعته ؟ !

، ذهله ذلك ، ولم يشأ أن يسألهم ولا هي شاءت أن تستوضح ما حدث

قلت هذا كل ما حدث ؟

قال : هل تتوقع أكثر من ذلك ؟

قلت : قد يؤكد أنها استعرت على دينها وأنت حر في سبيلك .

قال : ليس بهذه السهولة لا تنس أنها أمي ودمها مثلي الأعلى .. أو
شيء أو كان يبدو . فقد مصنوع فيها وهي والدي .. ثم
، سار إلى حقيبة بجواره .

قلت : جمعت ملابسك ؟ وهل تركتك تفعل كل ذلك دون أن تصفعك .

قال .. بل انا جمعت ملابسي .. وألقيت بالحقيبة من النافذة .. ونزلت و
أسمع أمي تبكي في غرفتها .. إنتهى !

ثم سكت ليقول : هل تسافر معنا إلى البرازيل ؟

- معكم ؟

أنا وفؤاد الحلبي وركي دمشقيه ووفيق العظمة .. وعزيز أبو البربر
وهم جميعا زملاء في قسم الطبيعة وقسم اللغة الفرنسية .

وكان يجلس إلى جوارنا رميلنا المعاقل دائما . كيف ؟ الرياضي بجوارنا دائما .
لماذا ؟ المتمسك بمصر والمصرية والتاريخ . ولم أفهم . إنه شاؤول ليشع .
وهو مشهور بأسئلته الغريبة المفاجئة

مثلا في يوم من الأيام قال لي : إسمع .. تتزوج أختي مارلين إنها تحبك ؟
مفاجأة بكل المعاني . فلم أر أخته إلا مرة واحدة . وهي لطيفة ذكية
واسعة الأفق .. وتقرأ في كل شيء وقادرة على الحديث بعدة لغات .. وهي
أصغر مني بثلاث سنوات .. وحاولت أن أنكر ملامحها بسرعة وهو يكلمني
فلم أجدني قادرا على ذلك ..

وقبل أن أستوضح معنى هذا السؤال يقول شاؤول ليشع . لا تتصور لحظة
أنك أجمل رجل في العالم .. ولا أغنى رجل .. ولا أذكى .. إنها سمعت
عنك . وعرفت أنك طيب وعلى وأنك « مالك الحزين » . تملك الطائر
الحزين إلى الأبد .. وأنها قررت فيما بينها وبين نفسها أن تجعلك أسعد .. هي
التي تقول .. وحتى لاتدوخ معي ومعها فهي وجدت علاجا لك .. إنك تريد فقط
قليلا من الاستقرار .. هذا القليل سوف يمكنك من الدراسة .. هذه هي
« الوصفة » الطبية لحالتك .. حاول أن تناقشها في رأيها هذا ..

وفوجئنا بأنه يعلق على حالة رميلنا « المصابع » بقوله : ولا يهمك أنت
متمسك بدينك .. وهي تتمسك بدينها .. في استطاعتك أن تجعل غرفتك مسجدا
وافتح الراديو بالقرآن على الآخر .. وعلق صورة حمس البنا .. فلست وحدك
في البيت . فأبوك مسلم أيضا .. فأنتما أغلبية . هذا إذا كنت قد قررت أن
تجعلها معركة .. وأن تتحدى إرادتها .. ولكن إذا وجدت من يحالفك الرأي ،

فتركب له البيت ، فسوف تعود من أمريكا بعد أيام ، لأنهم جميعا سوف يحاصرونك الرأى والرؤية والدين !

وهو أشجع من سأل الشيخ حسن البنا قائلا : يافضيلة المرشد العام .. لماذا لا تتزوج يهودية .. إن الرسول عليه السلام تزوج السيدة صفية وهى يهودية .. ولماذا لا تتزوج مسيحية أيضا .. وبذلك تضرب مثلا رفيعا فى التزاوج بين الأديان .. لماذا ؟

وقد ضحك الشيخ حسن البنا وسأله : وأنت ؟

قال : يهودى إبن يهودى وسوف أبقى كذلك ..

ثم سأله الشيخ حسن البنا : ومن هى هذه اليهودية ؟

فأجاب : أختى راشيل .. وقد أسمت نفسها رفقة .. ما رأيك ياأستاذ ؟

وضحك الشيخ حسن البنا . ولم يقل شيئا !

وفى إحدى المرات ذهبا إلى مسجد فى شبرا . لا أذكر اسمه الآن .. وكان موعد صلاة الجمعة .. وجدت أن شاؤول قد خلع حذاءه .. ثم ذهب وتوضأ .. ولم يتسع الوقت لكى أستوضحه .. ثم وجدته قد وقف إلى جوارى .. وصلى .. وسألته : ولكن لماذا ؟

فقال : الدنيا حر جدا ولا أستطيع أن أتركم ساعة وساعتين أمام الباب ..

وضحكنا ثم قلت له : هذا بينى وبينك ولا تقل لأحد ذلك .. فهذا عيب .. أرجوك !

وفى يوم كنت فى بيت شاؤول وقد دعانى للعداء والعشاء بعد ذلك .. وإذا به يفاجىء أمه قائلا : قولوا مبروك ..

وتطلعنا إليه وإلى المفاجأة القادمة ولم يقل أحد منا شيئا .. أمه وأخواته مارلين وراشيل .

فقال : لقد وجدنا شقة جميلة على النيل ، أحسن من هذا البيت الحقير فى حارة اليهود ! .. قولوا مبروك .

ولم يقل أحد شيئا ..

وإذا به يلتفت إلى والدته ويقول ماما .. مبروك .. لقد وجدت لك عريسا يملك محل أقمشة فى الأزهر .. رآك وأعجب بك ويريد أن يتزوجك وأنا موافق .. إنسى جاد !

وصمتنا . وقد إعتدنا منه ذلك .. وإذا به يخرج ورقة من جيبه ويقول : هذا إسم التاجر ورقم تليفونه هي الدكان وفي البيت . وهو على إستعداد لسماع صوتك الجميل في أي وقت !

إن شاؤول شخصيه مدهشة . وعنده قضية واحدة . كيف يمكن ترويج الآخرين بعضها من بعض .. كيف يلغي الفوارق والخلافات الدينية .. هذا هو عدائه الوحيد . وهو يكره « إسرائيل » ويكره أن تقوم هذه الدولة .. ويرى أن قيامها أكبر دليل على غباوة اليهود . لأنهم بدلا من أن يعيشوا ويكسبوا دون أن يدري بهم أحد في كل الدنيا . فقد جمعوا أنفسهم في مكان واحد . جعلوا من أنفسهم هدفا معلوما لكل أعدائهم .. وهذه غباوة .. وهو يتمنى أن يجيء اليوم الذي يعود فيه اليهود متفرقين في العالم ، يتكاثرون ويحكمون السياسة والمال ، كل مكان الكرة الأرضية .. بدلا من أن يجمع العالم على كراهيتهم وهو مؤمن بأن اليهود سوف يصبحون بهذه الحيله في الشرق الأوسط وأنهم سوف يهربون من الدولة وهم فيها بأن يتزوجوا من المسلمين والمسيحيين . وتصبح معالم الديانة اليهوديه .. وتصبح معالم كل الأديان لمعين الشعوب كلها بلا دين سماوي وإنما بدينه سلوكية مثل الديانات الهنديه والصينية والبابلية ! ويسرعه بعد مناقشات جادة فجأة بأن شاؤول يعرف . هل سمعتم آخر نكتة ؟

(٢)

تجمعنا عشرين أمام باب جمعية « الإخوان المسلمين » في بولاق الدكرور بالعرب من الجامعة لنقدم واجب العزاء في والد احد الزملاء .. ثم سرنا معا إلى المدرج ٧٨ في كلية الاداب فقد جاء دوري في ذلك اليوم أن ألقي بحث على طلبة قسم الفلسفه أما موضوع البحث فقد حدده رئيس قسم الفلسفة وكان رجلا إنجليزيا إسمه د . لاموند الموضوع هو : القلق الوجودي . ما هو ولماذا ؟

ودخلت المدرج . وكانت القاعده أن أقرأ البحث . لأنه لا يصح للباحث الجاد ان يرتجل فهي الارتجال إستخفاف بالمستمعين وغرور من المتحدث وهذا لا يليق بطالب في مستهل حياته العلمية ولكني إعتذرت بأن يدي صعيب .

. ـ الإضاءة ليست كافية . وأعني بسبب الوقت الطويل الذي أمضيته في القراءة والكتابة أكاد أحفظه بكلماته ..

بدأت كلمتي بقولي : أطلب من الله الرحمة بنا والمغفرة فالموضوع شاق ونا صغير والمشاكل ضخمة ، ولا أملك إلا هذه الأصابع المتواضعة التي لا تقوى على احتواء الكون والحقد والآثار والطلاسم والرموز التي لا نهاية لها ، وليس عندي إلا هذا العقل المبتدىء الذي لم يتدرب بدرجة كافية على مثل هذه الهموم الكثيرة .. بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد حاولت أن أكون مفهوما ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

ووجدتني أقول : في سنة ١٨٣٢ وفي إحدى الغابات بالقرب من بيونس بريس ذهب شاب عمره ٢٤ سنة . كان قد درس أصول الشريعة المسيحية في إحدى الجامعات ثم تحول إلى دراسة الأجناس البشرية والحيوان والنبات .. وقد يقلب بأصابعه ، وبعد ذلك بعينه وعقله في هذا العدد الهائل من الحشرات التي وجدها تحت أوراق الشجر .. لقد وجد في مساحة مقدارها ٨٦ نوعا من الحشائش ..

وكلها مختلفة في الشكل واللون والحجم !

ذلك الشاب هو عبقري المستقبل تشارلز داروين .. ثم عرفها فيما بعد ذلك بمئة عام أن عدد الحشائش الموجودة على الأرض تبلغ ربع مليون نوع .. هذه الحشائش لا تتزاوج كأنها ليست من فصيلة واحدة .. وكان الرأي الشائع في ذلك الوقت .. أن الله سبحانه وتعالى خلق الحيوانات والحشرات والنباتات منفصلة بعضها عن بعض .. وليست بها أية صلة من أي نوع .. ولكن داروين ذهب إلى جزر في المحيط الهادي فوجد هذه الحشائش وقد تنوعت لونا وحجما وشكلا .. ووجد الحيوانات من الفصيلة الواحدة قد تباينت في اللون والحجم . فما السبب ؟ السبب أن الحيوانات إذا عاشت في ظروف مختلفة فإنها تطاوع البيئة وتقاومها وتتعايش معها وأن الحيوانات التي تفعل ذلك تطول أعمارها .. أما الحيوانات التي لا تطاوع البيئة فإنها تنقرض وتموت .. فالبقاء للأقدر والحيوانات على مقاومة الظروف والتغلب عليها ..

ثم قلت . دعوني أتقدم إليكم بنظرية إهتديت إليها ، ورغم أن هذه عبارة

كبيرة ودعوى ضخمة ، وإنى لا أجد إسما لهذه الفكرة التى أعرضها عليك وهى « نظرية العينات » . فكل ما نبحثه هو عينة .. فبحث الحداقى هو بحث لعينة من الحدائق . لا كل الحدائق .. والبحث فى الإنسان هو بحث فى عينة من بنى البشر ، وليس كل البشر .. تماما كما نأخذ قطرات من المطر أو من البحر ثم من دراسة هذه القطرات نخرج برأى أو بنظرية عن تركيب مياه الأمطار والبحار .. وكذلك فعل تشارلز داروين .. لقد درس عينات من الحشرات والزواحف والنباتات ، ليخرج منها بنظرية . هذه النظرية ليست كافية لتفسير كل شىء .. ولكن تفسير ما استطاع .. وكذلك البحث فى القلق ليس قلق كل الناس . ولكن بعض الناس . فأنا لم أدرس إلا عددا من الرملاء حولى .. ولم أدرس كل الطلبة ولا كل المثقفين فى مصر أو فى العالم العربى أو فى العالم .. أستاذنا العظيم سقراط عندما أراد أن يتعمق فى الإنسان ، لم يكن أمامه إلا تلاميذه .. راح يقلبهم ويؤلبهم بحصهم على بعض .. ومن الشرر المتطاير منهم وعلى ضوئه ، أخذ يتسلل إلى أعماق النفس الإنسانية .. إنها - إذن - عينة ليست كافية .. ولكن هذا هو المتاح لنا ، فى هذه المرحلة من البحث .. وهذا عذر أتقدم به مبكرا ، إذا لاحظتم أى نقص أو سلبيات فى هذه الدراسة المتواضعة .

وليس من الضرورى أن يكون القلق هو حال كل الشباب .. فإنى أعرف شبابا لم يسمعوا عن هذه الكلمة .. فهم راضون تماما . قانعون تماما . وأعرف شبابا دفعهم القلق إلى التفكير فى ترك مصر ، والذهاب إلى بلاد أخرى ليستأنفوا فيها القلق ولكن فى ظروف أخرى .. إن قصة « روبنسون كروزو » الذى وجد نفسه فى جزيرة مهجورة .. قد استأنف فيها الحضارة الغربية وحده .. لقد نقل كل ما تعلم وما تألم به إلى هذه الجزيرة .. فهؤلاء الشباب لم يفكروا فى أسباب القلق ولا كيف يمكن القضاء عليه .. وإنما فقط فى أن يبحثوا عن جو أفضل عن حلقة أجمل لمعاناة القلق من جديد .. تماما كما ينقل مريض من غرفة بحث السلم إلى غرفة فى أجمل الفنادق ، دون أن نفكر فى علاجه .. أو كأن يقتضى أحد اللصوص أن يتوب عن سرقة الفقراء فلا يسرق إلا الأغنياء . فهو لم يعدل عن السرقة !

وقلت : إسمحوا لى أن أروى لكم قصة رمزية معدها مناسب تماما يقال

ـ .جلا كان يعمل في قطع أشجار الغابات ـ القصه للأديب الألماني باومباخ
سعت إليه زوجته الجميلة وجلست إليه بعد أن قطع الأشجار . وفجأة ظهرت
ـــة صغيرة الحجم وقالت لهما : عندي ينبوع الشباب ..

ـــارا وراءها وملأ الرجل زجاجة من ينبوع الشباب وقالت لهما السيدة :
ـــرب منه بضع قطرات عندما تشعران بالحاجة إلى ذلك ولكن معمول هذا
ـــاء يبطل إذا نظرت أنت الزوج إلى امرأة أخرى ، وأنت الزوجة إلى رجل
خر !

وعاد الإثنان وأخفيا الزجاجة في مكان بعيد لا تمتد إليه الأيدي . ولأنهما
ـــن فلم يجدا ضرورة لشرب قطرات من الزجاجة .. وحرص الزوج
ـــ ينظر إلى أية إمرأة أخرى ، وهي إلى أي رجل اخر .. وأنجبا أولادا ذكورا
ـــ . وفي يوم إمتدت يد الرجل إلى الزجاجة وسقطت منه .. وحزن ولكنه
ملأ زجاجة بماء آخر . وأخفاها في الملابس .. وفي يوم شعرت الزوجة
ـــعب فقررت أن تشرب قليلا منها . وامتدت يدها إلى الزجاجة فسقطت منها ،
ـــرعت بملء زجاجة أخرى . وكانت تقول لزوجها : لماذا لا تشرب من
زجاجة ؟

وشرب الإثنان وكل منهما يقول للآخر إن أثر الزجاجة يبدو عليك واضحا
ـــارة وحيوية وشباب وسعادة .

وقد حاول الإثنان أن يعثرا على « ينبوع الشباب » في الغابة ولم يفلحا ..
وفي يوم لاحظ الرجل أن شعرة بيضاء في رأسه . وانزعج . وطلبت إليه
زوجته أن يشرب من الزجاجة . وشرب وشربت هي أيضا !

وكانا يقولان لبعضهما البعض : شباب وحيوية وجمال وسعادة .. وحياة
زوجية مثالية وأولاد أصحاء ..

وقد حاولت أن تطلعه على ما حدث ولكنها ترددت . وفكر هو في أن
يسرحها ، ولكنه تردد . فهي تراه سعيدا وهو يراها جميلة ..

وفي يوم قررا معا أن يبحثا عن « ينبوع الشباب » في الغابة ووجداه ..
هناك وجدا السيدة أيضا . وقالت لهما السيدة : ولكنكما لم تشربا من
الزجاجة .. إن الشيخوخة ظهرت عليكما ..

ونظر الإثنان إلى سطح الماء .. فرأى الرجل نفسه شبحا أبيض الشعر مجعد البشرة .. ووجدت الزوجة نفسها كذلك ونظرت إليه ونظر إليها فسألها وكنت تعرفين أنني هكذا كبرت ؟

قالت : نعم ، وأنت كنت تراني كذلك ؟

قال : نعم ..

وصرخت فيهما الساحرة وهي تقول : يجب أن تشربا من الينبوع قبل غروب الشمس .. أسرعا !

ونظر الرجل إلى زوجته وسألها : ما رأيك ؟ فقالت : لا . إنما سعداء هكذا ..

وعاد الإثنان إلى البيت مغمغمين ، والناس يضحكون عليهما ويرون في ذلك مصداقا للعبارة الشهيرة : إن الحب أعمى وأطرش ..

ولكنهما سعيدان !

وكذلك كثيرون من الشباب لم يعرفوا ولا يريدون أن يعرفوا ، ولا تعمقوا ولا يريدون أن يتعمقوا معنى القلق النفسي والطمعي والديني والسياسي .. إنهم قد شربوا من زجاجات الماء العادي الذي لا يعيد الشباب .. ولا يريدون أن يصدوا حياتهم !

والسؤال كما ترون سهل ، ولكن الإجابة صعبة .. وأنا أحاول أن أدور حولها .. وأكتفي بعينات من الناس لعلي أهتدي ..

وأتذكر بهذه المناسبة أن الفيلسوف البريطاني رسل قد طلب إلى تلامذته في أحد الإمتحانات أن يكتبوا : عن الفرق بين الشك والملحد والكافر والذي أدري . وكان الإمتحان صبيحة رأس السنة الجديدة ..

فكتب أحد الطلبة : إن الله وحده هو الذي يستطيع أن يجيب عن مثل هذا السؤال .. وكل سنة وأنت طيب !

فضحك الفيلسوف رسل وكتب على الورقة : عشرة على عشرة لله وصفر على عشرة لك .. وأنت طيب ! —

وهذا القلق ليس خاصا بالفلاسفة والمشتغلين بعلم النفس . وإنما يصيب كل

الناس .. والسعادة ليست من نصيب البلهاء والبسطاء ، بل هي أيضا من حظ الفلاسفة أيضا .

وفي يوم سئل الفيلسوف الفرنسي الأنيق جدا ، أوجيست كونت ، : كيف نكون فيلسوفا ونأكل أحسن الطعام ، ونقيم في أحسن القصور ، وترتدي أجمل الملابس ؟ فقال : وهل تظن أن الله قد خلق كل هذه الخيرات لتكون من نصيب البلهاء وحدهم ؟ !

ولا أعرف كيف إنتهت المحاضرة . ولا إن كنت وجدت تعريفا جامعا مانعا للقلق عموما والقلق في الفلسفة الوجودية .. ولا أين ذهبت بعد المحاضرة . ولا ما الذي كان يقوله الطلبة عند خروجي من المدرج .. ولا أن كان رئيس قسم الفلسفة د . لامونت كان يهنيني أو يستوقفني ..

واتجهت إلى حديقة الأورمان .. عالم آخر .. كوكب آخر .. الأشجار والأزهار .. الظلال .. الأطفال .. الوجوه الضاحكة .. وعلى أحد المقاعد جلست . ولم أتابع ما يدور من حوار هنا وهناك .. وكيف تتلاقى الأحاديث ورائي ومن فوق رأسي كأنهم أسرة واحدة ..

إلى جواري جلس رجل إبن بلد وزوجته وطفلان صغيران ..
قال الرجل . تعالي يا ولد هنا .. أترك مكانا لحضرة التلميذ .. أنت تلميذ ؟
قلت : نعم ..
قال : أنت وزوجتي .. هي أيضا تلميذة .. كلميه يا عواطف ..
قالت عواطف : أنا تلميذة في كلية التجارة ..
قال : لا يبدو عليها ذلك .. أو يبدو عليها ، ولكن أنت لا تتصور أن يكون رجل مثلي زوجا لها .. صحيح أنا أليس الجلباب ولكني جدع وأعجبك .. وأنا الذي أدخلتها الجامعة .. وأريدها أن تشاركني في الدكان . وفي زراعة الأرض . العلم نور .. وأنا ليست عندي رغبة في التعلم ، ولا أحب أن يسخر مني المتعلمون .. ولكن عواطف إذا تنورت ، ستوف تقف في وجه كل هؤلاء اللصوص الأغنياء .. وإن شاء الله سوف آتي لها بعدد من الخادمات من البلد لكي تتفرغ للمذاكرة .. يبقى أنا رجل أعجبك .. أليس كذلك ؟

فلت فعلا نت أقصر من ألوف من المعلمين الذين لا يحبون مهنتهم ان يتعلمن ..

قال هذه هي مشكلة حياتي كلها أنا بعت كثيرا وطردوني من المدرسة ولكن سوف يكون ولادي أحسن مني وحمدي الحمد لله كن شيء عال العال الحمد لله وعلى فكرة نحن عندنا حديقة في الفيلا التي يسكنها في المعادي ولكن افضل ان يبعت أولادي مع الاطفال وليس وحدهم فقد كانت هذه علطة والدتي جعلتني ملوعة أعيش وحدي وألعب وحدي علشه لا أكررها أبدا أنا أعجبك اليس كذلك ؟

نعم ، لا شك أحسن وأسعد حالا وأكثر واقعية . عندك مشكلة عرفها بوضوح ووجد لها حلا !

حتى إذا ظهر

الطفل المعجزة قتلناه

حتى إذا ظهر الطفل المعجزة قتلناه

الأطباء وقفوا حول شاب مريض ، ١٩ سنه ، يحركونه يمينا وشمالا . ولكنه لا يعي . والتفت أحد الأطباء قائلا : بعد أسبوعين سوف ينزل من السرير !

ولكن الشاب لمح مجلة فنية قد سقطت على أرض الغرفة فأشار إليها . وقدموها له . وبسرعه مرت عيناه على السطور . وقفز الشاب واقفا ثم ألقى بنفسه على السرير قائلا : الآن يمكن أن أموت سعيدا !

كان ذلك في سنة ١٨٥٣ فقد قرأ هذا الموسيقار الشاب براهز مقالا بقلم الموسيقار شومان يقول : أيها الناس سوف يظهر من بيننا فنان عظيم قادر على أن يعبر ببلاغة عن أعمق مشاعرنا . سوف يكون له أسلوب جديد فريد ، فإذا ظهر هذا الشاب المعجزة فلا ترفعوا عيونكم عنه ولا تبعدوا آذانكم . إفتحوا له قلوبكم وكل الطرق التي تؤدي إلى المجد . . أيها الناس سوف يخرج هذا الشاب كامل الأوصاف والمعدات والذخيرة . . تماما كما كانت تخرج الآلهة من رأس كبير الالهة زيوس . . أيها السادة إن هذا الشاب قد ظهر . . إنه بيننا وفي مقدمتنا . . إنه سيدنا وتاج رأسنا إلى الأبد . . إنه الموسيقار براهز !

وكان ذلك حدثا فنيا نادرا . فنحن لا نجد كثيرا في تاريخ الموسيقى أو الفنون الأخرى أن يعترف عظيم لعظيم آخر بتفوقه وتفوقه ..

وهو في عالم الأخلاق أكثر ندرة . فأعظم عظماء الموسيقى موتسارت عندما رآه الشاب بيتهوفن واستمع إلى موسيقاه قال : إنتظروا هذا الشاب سوف يكون حديث الدنيا كلها !

ولكن الشاب الذى أصبح حديث الموسيقى لم يقل كلمة طيبة واحدة عن موتسارت !

فى تاريخ الموسيقى مذابح بشعة ، وحدثت ومؤامرات واغتيالات بالسم والحقد . ولذلك كانت هذه الحقبة من أروع ما سجل تاريخ الموسيقى . .

وما قاله الموسيقار شومان يتردد فى كل زمان . . فالناس ينتظرون المعجزة . يتوقعون الحدث الفريد والشخص الهادى إلى ما هو أروع وأفضل . . يتوقعون المهدى المنتظر فى الموسيقى والأدب والسياسة والدين . وعندما يظهر هذا الشخص ، يلتف الناس حوله وقد يطول هذا الالتفاف بين الناس وقد ينتهى بسرعة بالقضاء على هذا الشخص الذى صدم الناس فى عزيز لديهم : الكسل والتحير دائما . لأن صوته يوجع العين . وصوته يزلزل الأذان . . وما يدعو إليه يجعل الناس يتمردون على عاداتهم القديمة . .

فكأن الناس تنتظر المعجزة ، ثم لا يقوى الناس على التغيير . . فيضيقون بصاحب المعجزة . كثير من الأنبياء قد قتلوا . وكثير من المصلحين قد أعدموا . .

ولم يعرف التاريخ كله طفلا معجزة مثل الموسيقار النمساوى موتسارت (١٧٥٦ . ١٧٩١) .. لم يذهب إلى المدرسة . علمه أبوه الموسيقى دراسة وكتابة وإبداعا . فكتب أول سيمفونية وهو فى التاسعة من عمره . وعندما بلغ الخامسة عشرة كان قد كتب بيده ٥٥٨ صفحة من تأليفه . لم يصدقه أحد كانوا يظنون أن والده يكتب له . حبسوه فى غرفة سدوا أبوابها وشبابيكها حتى لا تدخل المعازيف تكتب له . أتوا بالكتاب المقدس ووضعوه حوله حتى لا تقترب منه الشياطين . فكتب وأبدع . وعندما زار بابا الفاتيكان نهامس الكرادلة بأن كل شىء يدل على أن هذا الطفل على صلة بالعفاريت . فطلبوا إليه أن يعزف . عزف . أن يرتجل ارتجل . أن يدخل تعديلات على ألحان قديمة . فعل . ثم طلبوا أن يؤلف موضوعات حددوها له . كتب وعزف . إذن هو عبقرى ليس له نظير فى التاريخ .

وعندما ذهب إلى لندن ، أتوا له بعدد من الأطباء ليكشفوا على قواه العقلية . . ولم يجد الأطباء شيئا غير عادى ، إذن العبقرية فى أعماق معه . أين ؟ لا أحد يدرى !

وأمن الأطباء فى ذلك الوقت من القرن الثامن عشر أن العبقرية هى ضخامة المخ . وكلما كبر الرأس كانت العبقرية أعظم . أنظر إلى رأس الحمار والثور وبقية الحيوانات إنها أكبر بكثير جدا من رأس أى إنسان ؟!

وفى القرن العشرين عندما فحصوا دماغ اعظم علماء الفيزياء أينشتين ووضعوا المخ تحت الاختبار لم يجدوا شيئا غير عادى . إذن العبقريه شىء من عند الله يدخل أى مخ وأى رأس من أى حجم ومن أى لون !

وأصبح من آمال أى أب أن يكون إبنه طفلا معجزة ، ومن أحلام أى شعب أيضا . وفى تاريخ الشعوب نجد عددا من أطفال المعجزة . ويكون ذلك دليلا على أن شعب من الشعوب لديه هذه القدرة على ولادة المعجزات .. فى الفن والعلم والحرب . فالشعوب الشابة هى القادرة على الولادة . والشعوب العلاقة هى المكلفة من السماء ، بتقديم أطفال المعجزات . . وفى تاريخ الموسيقى النمسا والمانيا والنمسا والأدب ، أطفال وشباب المعجزات . .

فالأمريكان قدموا فى هذا القرن الممثلة شيرلى تمبل ، طفلة معجزة فى التمثيل والرقص والغناء . يقابلها فى العالم العربى كله فى هذا القرن الطفلة « فيروز » التى كانت معجزة السيما العربية . ولم يعد معجزة ، يكفى أن تذهب إلى أى فرح وتتفرج على الأطفال كيف يرقصون لقد صنعهم التليفزيون وتشجيع الناس فكانوا ألف ألف فيروز !

حتى بطل الأبطال محمد على كلاى جاء فى قصة حياته أنه مشى وعمره ١٨ شهرا . . ولما بلغ الشهر الثامن والعشرين ضرب أمه فى فمها فحطم لها ست أسنان . هنا تنبأ له العلكيون بأنه سوف يكون معجزة الملاكمة فى أمريكا !

وفى انجلترا إستطاع جون استيوارت ميل أن يتكلم اليونانية واللاتينية وهو فى السابعة من عمره . وكان بعد صبيا .

وفرنسا تحدثت عن الفيلسوف العظيم مونتنى الذى تعلم اللاتينية وهو فى السادسة من عمره !

ووزير الثقافة الفرنسى الأديب أندريه مالرو علم إبنه اليونانية واللاتينية فكنتا نظمان الشعر بهاتين اللغتين وهما فى العاشرة !

والفيلسوف الفرنسى موتسيكو كان يتكلم تسع لغات وهو فى الحادية عشرة .

وفي إحدى العازفات الجوقة على لندن إكتشف ليوان أن إبنتهما لها صوت جميل وأنه يعطي ثلاثة أرباع السلم الموسيقي . فهي إذن طفلة معجزة . إنها المطربة جولي أندروز . وعمرها ١٨ سنة !

وفي هذه السن أيضا عكف الأديب اللبناني خليل جبران على كتابة السطور الأولى من كتابه الجميل « النبي » ..

وفي الخامسة عشرة إستطاع المفكر الفرنسي باسكال أن يقدم لنا أول كومبيوتر . أول آلة حاسبة كلها من تفكيره وتدبيره ، قد أكملها بدقة وكتمان شديد !

وفي مثل هذه السن بدأ الناقص شديدا بين الطفل المعجزة يوهان اشتراوس مؤلف « الدانوب الأزرق » وبين والده ملك الفالس ..

وفي التاسعة عشرة من عمره قام المخترع الإيطالي ماركوني بمحاولاته الأولى في الإرسال اللاسلكي . الراديو .

وفي هذه السن أعلن الشاعر الفرنسي رامبو : أنا إنتهيت ! .

وكان قد نظم مئات من القصائد الجميلة إبتداء من التاسعة من عمره . ثم هاجر إلى الحبشة . .

ولم ينظم بعد ذلك بيتا واحدا !

وفي هذه السن أيضا كانت المفاجأة الأدبية الكبرى سنة ١٩٥٤ عندما صدرت رواية « مرحبا أيها الحزن » للأديبة الفرنسية فرانسواز ساجان التي اتخذت إسمها من رواية « البحث في الزمن الضائع » للأديب الفرنسي مارسيل بروست !

والشعوب تبحث عن المعجزة في المجال الذي تحتاج إليه . فإن كان الإقتصاد هو المشكلة أخذت تبحث عن العقول الإقتصادية الجبارة . « كثيرا ما اختلطت مشاعر الشعوب » فجعلت عبقريا من ليس كذلك . وراحت سحيته ، أو ذهب العبقري المزعوم صحية لآمال الناس .

أو يبحثون عنه في الفيزياء أو الكيمياء أو الطب أو اكتشاف أرض جديدة كما حدث في القرون الأربعة الماضية في القارات الخمس .

وفي الغرب عند الشعوب العلمية التفكير « يعتبرون صاحب المعجزة

العبقري . . ولكن في الشعوب البلاغية التي تؤمن بعبقرية الكلمة ظهر الأنبياء أصحاب الرسالات الإصلاحية وكان أسلوب الأنبياء هو الكلمة والحكمة . عشرات الأنبياء والقديسين وأدعياء النبوة . قد ظهروا في مهبط الديانات الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلام . كما ظهر أنبياء اخرون في البوذية والكونفوشية والزرادشتية والبهائية والشعوبية . . وسجل لنا تاريخ الأدب العربي أطفالا معجزة كالذي يحفظ القصيدة من مائة بيت ، إذا سمعها مرة واحدة . . أو يحفظ كتابا من أوله لآخره إذا قرأه أحد على مسمع منه مرة واحدة . . أو يحفظ حوارا بين رجلين يتكلمان الفارسية أو التركية وكان المستمع لا يعرف هاذين اللغتين . كل ذلك رواه التاريخ عن شاعرنا العظيم أبي العلاء المعري . وكان أعمى !

يحكى أن شاعرنا الكبير البحتري . أنه كان يلقي قصيدة بين يدي أحد الخلفاء . القصيدة طويلة وعندما طواها ووضعها في جيبه بين إعجاب الحاضرين . تقدم شيخ وقور يقول له : كيف تدعي شعرا ليس لك ؟ أيها المصاب الكذاب . إنها قصيدتي وأنا أعيدها عليك كلها !

وأعادها . وكان حزن البحتري شديدا . فهي من نظمه وإبداعه . وعاد البحتري إلى بيته . . وفوجيء بمن يستدعيه . وذهب إلى بيت الخليفة . وتقدم له الرجل الوقور معتذرا قائلا : إنها لك يا ولدي ولكني رأيتك تتجاهلني !

ولم يكن البحتري يعرف أن هذا هو الشاعر الأعظم أبو تمام !

ويقال مثل ذلك أيضا عن الشاعر العبقري أبي الطيب المتنبي . بل إن المتنبي لم يكتف بعظمته ونبوغه على كل الشعراء طفلا وشابا ورجلا ، فادعى النبوة . وقال أنه نبي مرسل . وأن الوحي قد نزل عليه بقرآن جديد . . نزل عليه مرة واحدة . . وطلب من الناس أن يؤمنوا به . .

ووقف على ربوة مرتفعة ونظر إلى الدنيا والناس تحت قدميه يعرب عن عظيم احتقاره لكل شيء ولكل أحد . قال المتنبي :

أي محل أرتقي
أي عظيم أتقي ؟
وكل ما قد خلق

الله وما لم يخلق
محتقر في همتي
كشعرة في مفرقي !

وكذلك إدعى أبو العلاء المعرى النبوة . واخترع سورا وآيات يحاكى بها القرآن الكريم ؟!

ووصف القاصى أبو جعفر شاعرنا المعرى إبن مدينه معرة النعمان

كلب عوى بمعرة النعمان
لما خلا عن ربقة الإيمان
أمعرة النعمان ما أنجبت إذ
أخرجت منك معرة العميان !!

ولكنها التقاليد الشرقية أن يكون الطفل المعجزة نبيا . من عند الناس أو من عند الله . . ولذلك زعم لنفسه هذه الصفة العظيمة عدد كبير من مثل المتنبى والمعرى . .

ثم تغير مفهوم المعجزة ، بتغير لحتياجات الشعوب . وتصورها للخلاص من عذابها المادى والمعنوى . ففى القرن العشرين ، ورغم التطور العلمى الهائل ، فما يزال هناك أناس يدعون النبوة والألوهية أيضا . ويجدون أناسا يمشون وراءهم ، إلى خارج المجتمع وإلى الخروج على القانون ، وإلى الهجرة من قارة إلى قارة وإلى الموت الجماعى بإشارة من إصبع هذا الإله !

ولدى الإنسانية كلها شعور بالندم على الذى أصاب عبقرى العبقرية موتسارت . فقد عاش طفلا فقيرا وأبوه أيضا . وكبر شابا معذبا مريضا نعيسا . وفى كل مرة نستمع إلى موسيقاه العظيمة ، يستشعر الناس بندما أعظم فقد أصابه الإهمال والحسد والجهل . ولذلك يجب ألا يموت طفل جوعا أو مريضا . . يجب أن تتاح لكل الأطفال كل الفرص . . عن يدرى ربما ظهر موتسارت فى الشعر والفيزياء والإقتصاد والفضاء والاختراع !

وفى المعرض الدولى فى بروكسل سنة ١٩٥٨ ، قدمت كل دوله أروع ما إبتدع علماؤها .

أما النمسا ، بلد موتسارت ، فقدمت لنا نموذجا لرياض الأطفال . . الرعاية

[illegible]

[illegible]

[illegible]

أما الهدف فهو : لماذا تفوقت اليابان ؟ ولماذا تأخروا هم ؟ ما الذى يجب عمله من أجل « تحليق » أطفال المعجزة وعبقرة المستقبل . .

إن روسيا والدول التابعة لها . وأمريكا والدول الشبيهه بها ، قد أدمنوا جميعا عقارا واحدا هو : المستقبل

فكل هذه الدول ترى أن الجنة غدا وبعد غد . . وأن عصورهم الذهبية قادمة ، وأنهم سائرون إليها . .

وعلى عكس الدول التى تؤمن بالمعجزة والعبقريات فإنها ترى العصر الذهبى فى الماضى . . وأن الجنه كانت فيما مضى . وأننا يجب أن نستعد للموت لكى ندخل الجنة التى فاتنا أن نكون فى ربوعها . . فنحن نعيش من أجل أن نموت مستورين . ويا الله حمى الحمام . منتهى الحجر عن المساهمه من أجل ما هو أفضل . وهو كفر بما تدعو له كل الأديان بأن يعمل الإنسان ويكدح . ويعيش لتحقيق الخير والعدل والحرية والسلام بين الناس . وبذلك يريح نفسه وغيره ويكون مستحقا لرحمة الله فى الدنيا وجنته فى الآخرة . . بدلا من أن يختار الموت ، أو ما يشبه الموت ؟

وهى البحث عن المعجزة وتحليقها وإستعجالها ، ظهر فى التليفزيون والسينما أطفال المعجزة فأمريكا إهتزت طربا بعشرات ملايينها فى كل مرة ترى شابا يجيب بسرعة خارقة على مثل هذه الأسئلة : كم شعرة فى ذيل الحصان إذا كان عمره شهرا ؟ وكان يجيب . أو كم عدد النجوم فى السماء التى يمكن أن تراها من ثقب أبره ؟ كم عدد الدموع التى يذرفها الإنسان فى كل حياته ؟ وما الذى قاله مايلون لأحد جنوده فى روسيا يوم كذا ؟ من هو القائد العسكرى التى كانت قدمه اليسرى أصغر من قدمه اليمنى ، ويده اليمنى أكبر من يده اليسرى ولسانه أقصر عن طول اللسان ثلاثة ملليمترات ؟ وكان يجيب . كم عدد الحاضرين الآن أمامك ؟ أنظر بسرعة ! وكان يقول . . والناس تصفق وتندوخ من الإعجاب بهذا الطفل الذى لم تلد مثله الأمهات فى عشرين قرنا .

وفجأة إنكشف السر إنه غشاش . . وأن هناك إتفاقا بينه وبين محرج البرنامج على إقتسام المكافأة المالية وهى ملايين الدولارات . ولايزال المحرجون يعملون !

والمعنى . إنهم فى أمريكا فى إنتظار المعجزة . . من أى نوع هى أى وقت !

وظهر فى أمريكا أدعياء النبوة والألوهية أيضا !

وبعد مائة سنة من المقال الذى كتبه شومان ، كتب الأديب الفرنسى أندريه موروا مقالا فى مجلة « الأخبار » الأدبية يبشر هو الآخر بظهور طبقة معجزة تعبر عن عصرها وعن جيلها . عن جمال عصرها وعن عيوب شبابها . وعن الملل واليأس والقرف . ولكنها فى نفس الوقت إستطاعت أن تمشى على الرمل وأن تمتص الملل ، وأن تذيب القرف ، وأن تتغلب على اليأس فتكون أملا جديدا لكل شباب الأدب والفن والعلم . .

ثم قدم للعالم الأديبة الفرنسية فرانسواز ساجان . .

وعرفنا فيما بعد أن رواية « مرحبا أيها الحزن » التى ألفتها فرنسواز ساجان كانت طويلة جدا . وأن إحدى دور النشر قد طلبت إلى أندريه موروا أن يختصرها . فاختصرها إلى الربع فكانت عملا أدبيا جميلا ، وحادثا هائلا فى أوروبا وأمريكا وفى العالم العربى أيضا .

وكنت ، وكنا ، من أكثر الناس حفاوة بهذا الجديد . . وتبارى النقاد يبحثون لهذه الأديبة عن مدرسة أدبية ، يجعلونها من تلاميذها . . أو شجرة يجعلونها من ثمارها .

المهم أن الأديبة الشابة ظهرت وثبتت من الحفاوة ما لم يلقه مليون مونسارت لو ظهر فى كل مدينة فى الدنيا .

وفى الخمسينيات كانت الطفحة الوجودية قد بلغت قمتها . . فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا . وبدأ الإهتمام الشديد بها فى مصر وصدر لى أول كتاب عن الفلسفة الوجودية . .

وأحست دور النشر فى العالم أنها لابد أن تبحث عن معجزة أدبية تؤدى إلى رواج كتب الأدب وكل الأعمال الأدبية الشابة . . وظهرت فى ذلك الوقت أديبات صغيرات فى فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وانجلترا . ولكن بقيت فرنسوار ساجان هى الأديبة وهى الأولى وهى المعجزة !

وفي فرنسا ظهرت طفلة في السابعة من عمرها تنظم الشعر الطفلة إسمها: مينو دوريه ، وظهر ديوانها الأول بعنوان « أيتها الشجرة أنت صديقتي » وإلتف النقاد والمؤرخون حول الطفلة الصغيرة يسألونها ويفحصونها . . وكان لهذه الطفلة دوي الهائل ودوى أجراس مليون كنيسة في العالم . وراح الزهايل والقساوسة يهتفون أنفسهم : أن الله لم يترك الإنسان بغير معجزة !

وفجأة تكمشت أمزاج الكتاتس وأقلام النقاد عندما إنكشف أمر هذه الطفلة فالشعر من تعليم والدتها مدرسة اللغة الفرنسية التي لم تتح لها فرصة الظهور رغم محاولتها ذلك !

وكأنا نحن أيضا في الشرق العربي كنا ننتظر مثل هذا الحدث الذي يهز الفكر الراكد ، والأدب الرسمي ، والطفحة الوجودية الطالعة . فكان الحديث عن فرانسواز ساجان وروايتها التي ترجمت في بيروت ، هو الحديث . .

ولذلك كان إهتمامنا بأدبيات عربيات نوعا من الرد على المعجزة ، بمعجزة أخرى . . لو كان دليلا على أن أرض الحيانات والأنبياء قادرة على أن تلد المعجزات الأدبية أيضا . .

فكان الإهتمام بالأديبة السورية غادة السمان . وكانت مجموعتها القصصية « عيناك قدري » حدثا أدبيا فالعبارة جميلة والتعبيرات جديدة . ووهج للحيوية والتمرد والتألق والسقط والفرحه بالحب والألم المنتعش وظلول اليأس . . وللمشاعر الوجودية !

أو هكذا تصورنا في ذلك الوقت . ورأيت ورأينا ، أنها أعمق وأروع من فرانسواز ساجان ، أو أنها تريدها كذلك !

ثم ظهرت رواية « أنا أحيا » لأديبة لبنان ليلى بعلبكي . وكان حماسي وحماسنا ، لهذه الأديبة هائلا . وإقترحت على الناشر اللبناني أن اختصرها كما فعل أندريه موروا في مائتي صفحة بدلا من خمسمائة ، ووافق ولكني ترددت ، فقد رأيت دوري متواضعا جدا !

وأعجبتني رواية « أنا أحيا » ولكن وجدت في عباراتها عمما وغلظة وكرهت أن تجيء على لسان الكائنة عبارات أقرب إلى البصق على وجه الأب والأم .

وكتبت مقالا بعنوان : أنا أحيا ولكن لا أسعى ! وقلت أن الرواية أعجبتني لو لا قلة أدب المؤلفة وأسلوبها العنيف في صفع وركل الوالدين ، بلا سبب حقيقي في مسار أحداث الرواية . . حتى لو كان هناك سبب ، فليس أعنف على مثل هذا الأسلوب الغط الغليظ . . وظهرت لها بعد ذلك قصص قصيرة لم أجدها ذات قيمة وإن كسب لها دلالة أخلاقية ، فهي قلة أدب فقط . ولذلك طهرت ليلى بعلبكي وإحتفت مع روايتها الأولى : « أنا أحيا » وإختفت الأديبة بعد ذلك بسنوات قبل تزوجت مسيحيا إنجليزيا وكسرت قلمها !

حتى عادة السمن ظهرت لها أعمال أدبية أخرى هي تنويعات على ألحان من الكتاب المقدس . . كأنها أعادت صياغة « نشيد الإنشاد » في لغة عربية ومشاعر متمردة . وإختفت كأديبة وظهرت مسحية لها أسلوب أدبي . ولم تعد معجزة الخمسينيات !

وكذلك كوليت خوري الأديبة السورية . ولكن قد حرمتها الظروف من أن تلقى ما يستحقه من الحفاوة . فقد إرتبط إسمها بالشاعر الرومانسي نزار قباني . وأنقى ظلالا على رواياتها الأدبية الأولى والكتب التالية !

وظهرت أديبة لبنان ليلى عسيران ظهر لها ديوان شعر صرخات للشاعرة المصرية الشابة جويس منصور . ولأنه كان بالفرنسية لم يلق ما يستحقه من إهتمام كبير . وظهرت أديبات أخريات من لبنان وسوريا أيضا . ولكن لم يكن لهن صدى . . فقد اعتدنا على الصغيرات في الأدب العالمي حتى لم نعد نلتفت إلى الأنباء الكبار .. كأنه زمن الصغيرات حتى يكبرن . وكبرت الصغيرات ولم يعد أحد يقرأ لهن . كأننا أعجبنا بهن صغيرات فقط ، ولا نريد أن يكبرن . فإذا كبرن ، فهن مثل كل الأدباء في كل العصور . .

* * *

وظللنا في مصر نتفرج على الأحداث الأدبية العربية والأوربية ، دون أن نساهم إلا بالقراءة والنقد والإعجاب . .

وكنا سعداء بالنشر والتبشير بكل ذلك . .

أو كأننا سعداء بأن عددا كبار الأدباء العقاد وطه حسين والحكيم والشعر ، أبطحة وصالح جودت وأحمد رامى والمطربين عبد الوهاب وام كلثوم وسيد درويش : وأن لدى الآخرين صغيرات الأدباء .

وعندما إنحدنا مع سوريا كان السوريون يبهروننا بتفوقهم الأدبى . فكل مسئول يتعرد به يروى لك شعرا من حفظه أو من نظمه . . وكتبت الصحف والمجلات المصرية على هذا الشيء الغريب : الذوق الأدبى . وعن الناس الذين لا يخطئون فى النحو والصرف وعن المرأة السورية التى هى الأخرى تنظم الشعر وترويه بصوت جميل ووجه أجمل .

وفى مؤتمر الأدباء فى بلودان قامت الشاعرة عزيزة هارون تقول والأدباء يصرخون لجمال الشعر والشعر ، بكسر الشين وفتحها ، والصوت والوجه والعنق . .

وظهرت شاعرة أخرى وهى ضوء القمر تلقى بقصيدة جميلة لم أعد أذكر منها إلا نصف بيت تقول :

تعوضين عطرا وشيئا حرام !

وجعلت هذا النصف بيت عنوانا لمقال نشرته فى أخبار اليوم وبسرعة تحول « الشيء الحرام » إلى عناوين لمجموعة من القصص القصيرة وأفلام وأغنيات . .

وتساءلنا من تكون الشاعرة الجريئة . وعرفنا . وسميا الإسم بعد ذلك . .

وفجأة جاءنى فى مكتبى وكنت وقتها رئيسا لتحرير مجلة « الجيل » وزير الثقافة السابق فى سوريا د . الجندى . وقال أن الشاعرة إسمها . خالدة عبد الله

ونشرت للشاعرة قصائد . . ثم نشرت لها قصصا قصيرة وكتبت فى مقدمتها . إن لم تكن هذه طفرة أدبية معجزة فهى استئناف للمعجزات الأدبية .

وسألت بعد ذلك إن كان أحد قد رأى هذه الأديبة فى دمشق فقال كثيرون : نعم . . وقال آخرون : ولكن هذه القصص من تأليف الوزير نفسه . . فهو الذى نظم لها القصائد وكتب لها القصص !

وقد عثرت في أوراقي أخيرا على مجموعة من القصص القصيرة بقلم خالد عبد الله ، بخطها أو بخطه . ولعلها ولعله لم ينشرها . فإن كان أحدهما حيا ، فالقصص عندي . وإن كانت هذه الأديبة تنتمي إلى عصر المعجزات الأدبية ، فهي لا تخلو من ذكية ، أدبية ومذاق شائك صنجدد .. تمرد فتاة شرقية على تقاليد الأب والأم والمدرسة والشارع . .

وما يقال في مصر والعالم العربي الآن عن إختفاء العظماء أو قرب إختفائهم في النثر والشعر والطرب والسياسة ، والتطلع إلى المواهب الجديدة ليس بأكثر من تكرار لنداءات وصلوات قديمة من أجل ظهور الطفل المعجزة ليلقى ما تلقيه كل أصحاب المعجزات . . نعرج لها ثم نبكي عليها ونحزن على غيابها ونصلي من أجل ظهورها لندفنها في احتفال مهيب !!

إنها أم كلثوم

الله .. الله .. ياست

إنها أم كلثوم .. الله .. الله .. يا ست

لم تكن حياتي جميلة . ولكن كان فيها كلام جميل .. أو كانت مليئة بأصوات جميلة ..

ففي الصباح الباكر أستمع إلى الأذان الجميل . والذي كان هو الذي يؤذن في البيت .. وكان يتلو القرآن بصوت جميل .. وكان لي خال جميل الصوت والصورة .. وكان يستريح إلى وجودي معه .. أذهب معه في الليل إلى بيوت أقاربه . وكانوا يطلبون إليه أن يغني . وكانت لي خالة صوتها جميل أيضا .. ففي صوتها « بحة » لم أسمع لها مثيلا إلا عند ممثلة إيطالية إسمها « إليانورة روسي دراجو » .. وحفظت القرآن الكريم . أجمل كلام . وحفظت مئات الأبيات من الشعر . أرددها وراء أبي . بعض هذه الأبيات أعرف معانيها ، والباقي أعرف موسيقاها . .

أما طفولتي نفسها فلم تكن جميلة . ولا أظن أنني في هذه السن المبكرة قد أحسست بشيء من كل ذلك .. فما الذي يعرفه طفل .. يلهو طول اليوم ثم يأوي إلى فراشه والدموع على خده معظم الوقت . فقد كانت أمي تضربني كثيرا . وعرفت فيما بعد أنني لم أكن المقصود بذلك .. فقد كانت في ضيق دائم هو الذي على سفر . ولا يراه ولا أراه إلا قليلا وهي لا تستطيع أن تضرب والدي ، فأنا البديل . أما لماذا الضرب ؟ فلأنني أبلل الفراش ، ولا أعرف السباحة ، وأصعد النخل وأضرب الأطفال .. ولأنني وراء أحد الشحاذين .. وكان صوته هويا وكنت لا أنبين الذي يقوله . وكنت أعتقد في ذلك الوقت أن صوته جميل .

ونصيب وأنا صغير أن أدخل الأزهر .. فلم أحفظ القرآن ؟ ألست أحب أن أكون قارئا جميل الصوت . فقد كنت أظن أن الأزهر هو الذي يعلم الناس

القراءة الحميلة . ولم أتبين أن والدي كان جميل الصوت وحالي وحالتي .. وانا أيضا ، ولم ندخل الأزهر

وأنا طفل ذهبت مع والدي لسماع السيدة منيرة المهدية . أنا لا أذكر صوتها ولا صورتها ولا أعرف المكان . وأتذكر أنني ذهبت معه لكي نستمع إلى المطرب عبد اللطيف اتنا ولم أره إلا قبل وفاته في بيت الأستاذ محمد عبد الوهاب . فوجدت رجلا نحيلا ناعم الشعر والصوت أيضا . .

وفي إحدى المرات ذهبت بنا السيارة وسط الحقول وقيل لنا . هنا ولدت أم كلثوم إنها قرية طماي الزهايرة .. وكان لي زميل في الدراسة من هذه القرية إسمه منير وكان في مثل سني جميل الصورة . أشقر . أزرق العينين ذهبي الشعر وكنا نسميه السلطان فهو يركب حمارا أبيض كبيرا ويمشي وهو على ظهر الحمار .. وأغنياته لأم كلثوم .. وكنا نلتف حوله ونطلب إليه أن يغني . وسمعنا بعد ذلك أنه ذهب إلى القاهرة وأنه أصبح مطربا مشهورا . ولكن عرفنا فيما بعد أنه دخل الجيش . خرج من القرية ولم يعد .

وتأكد حبي للغناء . بعد كان يتردد على بيتنا شحاد . وكان يغني . فبدا سمعنا صوته سارعت بإعطائه الخبز وبقايا الطعام . وكان يطلب بعض السكر . وكنت أتسلل بالسكر والشاي واللحم مقابل أن يغني . وكنت أطلب إليه أن يقف أمام الباب وأقف أنا في البلكونه وكانت المرة الأولى التي استمعت فيها إلى أغنية : يا جارة الوادي لمحمد عبد الوهاب .

كل يوم يجيء هذا الشحاد ، يقف أمام الباب ، وانا أطل عليه من البلكونة . ويغني يا جارة الوادي وليل حيران بالليل ظالماني ..

وفي يوم صنعت والدتي وقد أمسكت غطاء ماكينه الخياطة ، وهو من خشب رفيع . نصف إسطواني وقد احببت رأسي فيه ورحت أغني : يا جارة الوادي .. وكان هذا الغطاء يضخم الصوت ويجعل له صدى في أذني .. ثم سمعني وأنا أرتل القرآن في داخل هذه الإسطوانة الخشبية وكان يضحك ولم تكد أمي ترى ذلك حتى ضربني بعنف . فهي لا تريد شيئا مما أريد أو مما يريد والدي .. لا قرآن .. ولا أزهر . وإنما أن أكون مثل أقاربها من المحامين والوزراء .. وهي التي إعترضت على أن أحفظ القرآن في الكتاب خوفا من أن أصبح شيخا معمما او قارئا في المقابر أو خطيبا في مسجد . وا

سم إصرار والدى ، لم تطح فى الإعراض ولم تمنعه دموعها وتهديدها بترك البيت .. وتركت البيت . وأمام بكائنا جميعا عادت . واقتنعت أنا عن الذهاب إلى الكتاب برضاء لها وخوفا منها . ولكن لسبب ما غيرت رأيها ، وكانت تشجعنى على الذهاب إلى الكتاب . .

وأول « فونوغراف » أو « جرامفون » رأيته فى حياتى كان فى دكان يملكه ابن العمدة . وهو عبارة عن صندوق خشبى كبير . وله إسطوانات سوداء وتدور هذه الإسطوانات وتنطلق فوقها إبرة . هذه الإبرة لها ذراع .. وهذه الإبرة هى التى تجعل الإسطوانة تنطق بكل الأغانى القديمة .. أعجوبة .. معجزة .. وكانت أصوات الإسطوانات « ممتازة » . أم كلثوم وعبد الوهاب وصالح عبد الحى .. وكان الأداء ممتازا . وكنت أكثر الأطفال إنتظاما فى الذهاب إلى هذا الدكان .

هل فى هذا الوقت بدأت أغنى لنفسى بصوت مرتفع . من الذى قال لى ان صوتى جميل « جدا » .. لا أعرف .. فهل أنا الذى قررت أن أغنى ، فلما سمعت أن صوتى جميل ، صممت فى الغناء .. وفى ذلك الوقت حفظت الأغانى ، وشعرت كثيرا بصوتها .. ورحت أتردد سرا على العوالم .. وأقف إلى جوار المنشدين وأشترك فى حلقات الذكر .. وأتمايل وأدوخ وأتساقط من الإعياء .. ولكنى مأخوذ بما يصور ويشدون .

وكانت أول مرة أرى القسوة من والدى لم يضعنى على غدى . ولكنى أحسست أن يده كأنها فعلت ذلك . فقد وجدنى قد لعبت حراما حول وسطى وأمسكت مقشة ورحت إكنس أمام بيت سوف يقام فيه ذكر .. والدى حدث أن رجلا رآنى واقفا هادئا يا ولد .. إكنس أمام البيت !

وفى الليل قال لى والدى : يا بنى . إن كان يعجبك صوت حسن . الشحاذ . فسوف أجعله يأتى إليك كل يوم تلعب معه .. وسوف أبعث إليك بمتولى .. إبن عبد الرسول حولى الزراعة فصوته أيضا جميل !

وكان والدى يستطيع ذلك وأكثر .. فهو مأمور تعديش زراعة عز الدين بك بكر ..

والشحاذ أصبح يعمل فى بيتنا .. وإبن الخولى أيضا .. وكان حسن يسبق

بالحلمي المستمر على أن يظل يعني أعيه واحدة طوال اليوم .. هو يرهق أم أنا فلم أكن أعلم .. وكنت أصاحبه في العشاء .. ثم أغني وحدي .

وسمعت من الراديو محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وعبيرة للهندية وفتحية أحمد وأصوات كثيرة أخرى لا أذكرها . وألصقت أذني بالراديو . وتحركت حنجرتي مع كل الأصوات . وبيني وبين نفسي أحسست أني سوف أكون مطربا .. ولا شيء آخر .. ولا أعرف ما معنى أن يكون الإنسان كذلك . ما الذي يفعله . ما الذي يكون عليه مستقبله .. لا شيء .. فقط أريد أن أغني .. وكثيرا ما فتحت الكتاب ورحت أغني ولا أقرأ . .

وكان ذلك لعبا ولهوا . وجاء الجد . ودخلت المدرسة . وكان لابد أن أنجح وأن أتفوق . وأن أكون الأول . هذا ما كانت تصرح به أمي .. فهي لا تريدني أن أكون مثل فلان الذي فشل . وفلان العاطل . وفلان الذي أضاع أرضه على البنات .. وككل طفل كنت أسمع ذلك ، ولا أعرف ما هو المطلوب بالضبط .. ما هو المطلوب أكثر من أن أذاكر وأن أنجح وأن أكون الأول . وعرفت فيما بعد أن غضبها وسخطها ليس بسبب خوفي من ألا أتفوق ، وإنما هو خوف عام وقلق عام .. فزع من كل شيء حولي وحولنا . .

ثم إتخذت أمي موقفا محددا : معيش غناء ولا كلام فارغ .. حمص لا يدخل البيت .. ومتولي لا يدخل البيت .. ما حرصك على أن تصاحب الشحاذين والخدامين . لعلها تزعص إبن المأمور .. ولعلها تكره إبن العمدة .. هل تريد أن تكون شحاذا ؟ هل تريد أن تكون لصا يسرق الدجاج .. تحفظ القرآن وتكنس الأرض ؟!

وفي يوم ناديني أمي من البلكونة ثم فتحت بالجراموفون .. ونمطم على الأرض ومعه كل الإسطوانات . لا أعرف كيف أصف ذلك . ولا عرفت في ذلك الوقت .. فقد جرت حربا ، غامرا ، لم أستطع أن أبكي .. ولم أستطع أن آكل ولا أن أشرب .. ولا أن أفتح كتابا .. ولا أن أغترس !

إنتهى . لا أعرف ما الذي إنتهى في داخلي ، لا أعرف ما الذي إنسد في وجهي ، ولا الذي إنسحب من الهواء فاصبحت محدوقا .. إن الأرض قد إنشقت تحتي .. وهويت في هدوء وصمت تام إلى أعماق مظلمة صامتة .. لا صوت لا ضوء .. لا أحد في الدنيا في تلك اللحظة .. إنتهى الذي امتداً !

ومضت سنوات طويلة والدراسة هي شاغلي .. وانتقلت من المنصورة إلى القاهرة لأدخل الجامعة . وكنت أسكن في بيت في شارع الأمير حسين بالزمالك .. ليس في البيت الذي هو قصر عظيم تملكه السيدة نعمت هانم بكر ، وإنما في بيت مجاور له . له سلم خشبي . وكنت اعيش مع والدي . وفي الحديقة الصغيرة يظهر جنود قوات الحلفاء إنهم يوغسلاف . يأكلون ويشربون ويرقصون .. وفي الليل يطلقون إلى البوابين أن يرقصوا حول النار .. كأنهم في أواسط أفريقيا .. وكان يبهرني شكل النار والأشباح السوداء حولها .. وكان الجنود اليوغوسلاف يتمايلون ويرقصون وزجاجات الخمر في أيديهم .. كل ليله . وكان البوابون يغنون هم أيضا . ويطعمهم واحد يغني وهم يدقون الطبول بعنف . ويعصبهم تمسك عطيات الخال وراح يدقها بالشوك والسكاكين . .

وفجأة وفي إحدى المرات نزل والدي بسرعة . وطلب إليهم أن يكفوا عن كل ذلك فورا . ويتوقفوا . وتوارى البوابون .. والجنود .

إنها أم كلثوم .. أم كلثوم وترددت هذه الكلمة ألوف المرات .. همسا ولمسا بالفم للأذن .. وتصفيقا وقفزا عاليا .. أم كلثوم سوف تجيء الليلة لتغني في عيد ميلاد الهانم .. وكانت دهشتي عميقة . هل كنت سعيدا ؟ لا أظن وإنما كنت في دهشة غير واضحة .. أم كلثوم التي نسمعها ولا نراها ولا أظن انني رأيت لها صورة واضحة ولابد أن الصحف والمجلات تنشر صورتها . ولكني في ذلك الوقت لم أكن من قراء الصحف . فكانت معلوماتي السياسية والإجتماعية متواضعة جدا . فقد أحسست في ذلك الوقت أن الطالب لا يرفع عينه عن الكتاب ولا يذهب إلا لمكانين إثنين : الكلية والبيت ولذلك فلا مقهى ولا سينما . .

ووقفت مع كثيرين على باب القصر . وجاءت أم كلثوم ووراءها عدد من العازفين يحملون العود والكمان والقانون .. هيئتها طويل وعلى كتفيها بالطو .. واتجهت إلى السلالم وصعدت وأضيئت الأنوار كلها وأغلقت النوافذ الزجاجية .. وعندما سمعنا نغمات موسيقية تجيء من بعيد تسللت على السلم إلى ما يقرب من النوافذ .. ومن بعيد وقفت أم كلثوم تتمايل ، ودخن لا تسمع ما تقول وأمامها عشرون أو ثلاثون من الصبيوف . جاءوا ودخلوا دون أن

يدري بهم أحد .. ولم أجد والدي بين الحاضرين . ولكنه في داخل القصر وبعيد الموظفين أيضا .

وعندما ذكرت السيدة أم كلثوم بهذه الحادثة بعد ذلك بوقت طويل ضحكت وقالت كان من الممكن أن تقع كارثة ..

فقد أصر أحد الباشوات على أن تغني أم كلثوم عيد ميلاد سعيد بالإنجليزية ..

وهي رفضت . لأنها لا تريد ولأنها لا تعرف هذه الأغنية ..

فإذا بأحد الباشوات يقترح أن تشدو السيدة أم كلثوم بأغنية رقة العروسة . لماذا ؟ لأن أحد الباشوات قد لاحظ أن نعمت هانم بكر كانت في تلك الليلة عروسا لا ينقصها إلا عريس .. وأصرت أم كلثوم على الرفض .. أو .. تخرج فورا !

ولم تكن ليلة سعيدة .. فلا الهانم راضية عن هذا الرفض أو التعالي من أم كلثوم ولا أم كلثوم كانت سعيدة .. ولا والدي عندما إنتهى بها جانبا يدفع لها الأجر .. فقد كان أقل من الذي إتفقت عليه .. ولا أنا .. فقد سكت والدي حتى الصباح ، ولم يشأ أن يحكي لي ما حدث !

ثم جاء بواب أم كلثوم وهي يده مظروف يقول . المدت مش عاوزه الفلوس دي !

• • •

وأحببت صوت أم كلثوم .. وسهرت وسعدت بأغانيها .. ومضت سنوات طويلة قبل أن أراها وأن أجلس إليها . كان ذلك في بيتنا . دعوتها للعشاء . فجاءت . والآن أراها بوضوح : إنها قصيرة القامة ، وتراها في الصور طويلة فارعة . إنها سمراء فحمية ، وتراها في الصورة وعلى الشاشة بيضاء .. إن الماس يتدلى طويلا من أذنيها ، ويحتشد هلالا على صدرها . وهي عندما تدخل ، كأنها تتمشى على المسرح .. فهي مركز الضوء . وكل الأصوات يجب أن تتوقف . والكل يجب أن يقفوا . وأن يصافحوها . وأن يتزاحموا عليها .. وبسرعة ينضم الصيوف نصفين : السيدات حولها ، والرجال في انتظارها .. وبسرعة يتعالى الضحك : إنها نكت أم كلثوم وقفشاتها .. وهنا يطالب الرجال بنصيبهم من النكت وهمة الدم .

وأم كلثوم تفضل أن تجلس مع الرجال فهم يحدثونها في السياسة وهي أخبار الدنيا وهي تريد أن تعرف . .

وأم كلثوم تأكل أي شيء ولكن بحساب . وهي لا تشرب الشاي جدا ولا البارد جدا . وهي تمشي ساعة وسدسي كل يوم . وهي التي صانت نفسها وجسمها .. وهي التي جعلت المطربة محترمة .. فهي لا تغني في الكباريهات ولا تغني للسكارى وهي لا تغني بينما حولها أناس يرقصون .. هي التي رفعت قدر المطربة .. وهي التي فرضت إحترامها على الناس . فواجهها الناس بسلوك محترم .. هم محترمون وهي عظيمة الإحترام .

وحفلات أم كلثوم الشهرية حفلات قومية . قد وحدت بين العرب من المحيط إلى الخليج .. جمعتهم على الحب والفن .. وصحت رؤوسهم على أيديهم وهي تغني وأحد يقولون : الله .. يا ست .. الله ..

وجاءت الطائرات من كل العالم تحمل عشاقا لصوتها مرة كل شهر .. فإذا غنت أم كلثوم فالإذاعة كلها قد تفرغت لها .. وأغانيها نداع كما هي بما فيها من صوصاء وتصفيق .. فتلك عنصر هام من معالم الحفلة الحية ..

وطالت الأغنية الواحدة ساعة وساعتين .. والجمهور يطلب منها أن تزيد وتعيد ويقولون : للصبح يا ست !

وعشاقها يحفظون أغانيها تماما ، فإذا أدخلت تعديلا جديدا صرخوا بهجة ونشوة مؤكدين أنهم يعرفون أن هذا جديد قد أضيف للأغنية .. ويتحدث عشاقها فيقولون : أنا عندي التسجيل الذي رددت فيه أم كلثوم : يطولوك يا ليل ٧٥ مرة ..

فيقول آخر : وأنا عندي التسجيل الذي قالت فيه : يا اللي كان يشجيك أنيني ٩١ مرة !

وتسجيلات ضحكت فيها ، وتسجيلات سهدت فيها .. وتسجيلات ظهرت سمعة في عيدها .. قصص وحكايات ونوادر ، والناس يعرفون من الذي يجلس في الصف الأول من عشرين عاما ، ولا يغير مكانه .. ومن الذي يجلس في الصف الثاني ..

وكانت حفلات أم كلثوم هي العرسة الأنيقة لكل سيدات المجتمع فيرتدين أشيك وأجمل ما عندهن حفلات تؤدى إلى رواج الكوافيرات والتزرية والتكسيات والمطاعم والفنادق وشركات السياحة ..

والناس يعرفون أن أم كلثوم قبل حفلها تجرى البروفات .. ثم تنام مبكرا قبلها بيوم . ولا تأكل ولا تشرب .. ثم تجيء في سيارتها الكاديلاك وتدخل بها مسرح الازبكية . والناس ينتظرونها على الباب . ويبصرون إلى وجهها ويطمئنون عليها ويؤكدون لبعضهم البعض في داخل المسرح : رأيتها .. قمر .. قمر ١٤ .. اللهم صلي على النبي ... للصبح إن شاء الله !

ويرتفع الستار عن أم كلثوم . وقد جلست على مقعد ، ومن ورائها : عازف القانون أحمد عبده صالح وعازف العود الفصبجي وعازف الكمان الحفناوي . معالم التخت الغنائي .

وبقية الطقوس المعروفة للعالم العربي كله .. وتبدأ الموسيقى .. ثم تنهض أم كلثوم . والمسرح يرتجل التصفيق . وتتقدم أم كلثوم مشدودة القوام عالية الرأس : كبرياء وأبهة وعظمة وثقة بالنفس وحب الناس .. وفي يدها المنديل الحرير الذي تمسكه بيد ثم تمسكه باليدين معا .. وتعتصره وهي تغني .. وترفع يديها الإثنتين وتتراجع برأسها .. ثم تتراجع كلها وتتقدم من الميكروفون .. ويستطيع المشاهدون أن يتحدوا المشاهدين أنفسهم كل حفلة ، إن كان أحد يستطيع أن يصف لك ملامح أم كلثوم .. أو وجهها أو شعرها الأسود الذي لم تتغير تسريحته .. لا أحد فهي طاقة من النور .. فهي ماثورة من النعيم . وهي عروس في حفلة زفافها إلى مليون قلب عربي .. إنهم يجذبونها طويلة عملاقة .. وهم لا يرونها وإنما هم يرون صوتها يصل الأرض بالسماء .. ويبقى في السماء كثيرا وطويلا وعميقا .. ثم يبرق ويلمع ويلمس ويسحر بطيع بالعقل فالكل صغارا وكبارا فقدوا عقولهم .. وأسلموا قيادهم ورمالهم لأم كلثوم .. طاغية ؟ طاغية جميلة ؟

ساحرة ؟ ساحرة نبيلة ..

وفي اليوم التالي لا تسمع إلا صوت أم كلثوم في كل بيت وفي كل شارع وفي كل سيارة .. كأن الناس إستمعوا إليها ليلتها . ويريدون أن يتحققوا مما رأوا

فى العالم .. كأنهم يريدون أن ينالوا على ذراعها . على صدرها تحت ثدييها .. إنها أم كلثوم .

– ومقبول منك أى شىء يا ست !

قال لى الموسيقار رياض السنباطى أنه زار أم كلثوم فى اليوم التالى لإحدى الحفلات . وكانت تستمع لإحدى الأغنيات فوجدها جالسة تتمايل وتقول : الله يا أم كلثوم !

• • •

وعرفت أم كلثوم فى الحرب .. بعد النكسة العسكرية والهزيمة النفسية والعهر التاريخى . كنا جميعا فى الأرض ، تحت الأرض .. حفرنا لأنفسنا قبورا هربا من أنفسنا . كنا الشهيد والحانوتى .. وكنا ، المعددة ، التى تزعق بأعمق صوتها وتقول : يا مهمى !

يا مالة أنف مبيع فى ست ساعات ..

ولم تكن أم كلثوم فى حاجة إلى فلسفة أو دراسة عميقة للتاريخ لكى تساهم بصوتها . وساهمت . ولكن أرادت أن تذهب إلى أبعد من ذلك ، فطلبت منى مجموعة من النداءات .. مئات النداءات تتوجه بها إلى الشعب تطلب إليه الصبر على البلاء .. تطلب إليه أن يربط الحزام .. وألا يشكو من الحرمان .. فقد عانت شعوب غيرنا ويلات الهزيمة ؟ ألمانيا واليابان وفرنسا ..

وأذيعت نداءات أم كلثوم .

وطلبت أم كلثوم من عشاقها أن يتبرعوا بالذهب .. بالدبل والأساور والأقراط من أجل المجهود الحربى .. وتبرع الناس .

وقد طبعت لها هى ، أخبار اليوم ، إيصالات تعطيها لمن يتبرع بشىء . وقد جعلت لها شعارا بمصف بيت من أحد أناشيدها الوطنية : نعمى ولا نهون !

وكانت تطلبنى كل ليلة وتسألنى عن أخبار الحرب . وإن كانت أمريكا قد أصابتها كارثة . أو أن الله كما خلقها أغرقها فى المحيطين الأطلسى والهادى ..

وقد إقترح على أم كلثوم أحد عشاقها المؤمنين قراءة « عدية ياسين » على إسرائيل وإنجلترا وفرنسا وأمريكا . وربما قادر على أن يسحق هذه الشعوب .

ولكن قيل لأم كلثوم أيضا أن الرئيس جمال عبد الناصر بعد إنفصال سوريا وبعد النكسه العسكريه قد غاب عن الوجود .. أو فى حالة غيبوبة أو غيابه .. وأنه لم يعد هناك .. وأن مصر بغيرها الذين حوله وأنه لا يدرى ولم يعد يدرى .. إنتهى كل شيء وإنتهى الرجل . وكان الذى يحدثها هو المرحوم كامل الشناوى . ولم يكد يكمل هذه المعلومات والتحليلات حتى بكت أم كلثوم .. تماما كطفل سمع كل هذه الأخبار المفاجئة عن والده !

ودخلت أم كلثوم إلى غرفتها . وخرجت ليكمل كامل الشناوى ما الذى عساه أن يحدث فى مصر بعد ذلك !

وفى الليل وقبل أن أنام كان صوت أم كلثوم الأجش العليط يسألنى فى التليفون إن كان صحيحا ما قاله كامل الشناوى .. أو أنه يبالغ على طريقته فى الكلام : وإن كان هذا هو رأى كل الناس .. لقد جعلنى أعتزل عن العمر للخارج .. ولم يعد عندى أية رغبة فى الغناء فى حفلات عامة .. ولا أريد أن أقابل أو أرى أحدا !

وكان لابد أن يذهب إليها كامل الشناوى من جديد . ورافقته وقال لها صامحكا يا ست إنما أردت أهيئك نفسيا لغناء قصيدة جديدة حربية وفى نفس الوقت تشعل الهمم من أجل الثأر .. وأنت لم تنتبهى إلى ما قلت .. فأنا قلت لك : كأن عبد الناصر .. ليس هنا .. ولكن أنا سمعت من رجال حول عبد الناصر . أنه مثل الكرة المطاط كلما ضربته فى الأرض إرتفع أكثر .. وهو سوف ينتقم أعظم إنتقام . وأن الإنسحاب كان خطة .. وعلى رأى (وأشار ناحيتى) أنه كالذى يريد أن يقفز فوق قناة واسعة ، فلابد أن يتراجع إلى الوراء . !

وصدقته أم كلثوم . وأكلت وضحكت . وترددت على صديقات لها . ونامت نوما عميقا !

• • •

وتعرضت أم كلثوم لكثير من النقد والتجريح ..

مرة هوجمت لاختيارها الأغنيات الملتزمة بالذل والهوان .. وبعض أغانيها

من تأليف الشاعر الرومانسي أحمد رامي .. أي أنها تدعو إلى الذل والهوان في الحب .. تدعو إلى الإستسلام الإجتماعي ، والتراجع السياسي .. والتواكل الديني .

وقبل أن حفلاتها الغنائية الطويلة ، جعلت الناس يتعاطون المخدرات حتى لا يشعروا بمرور الوقت . إذن فأم كلثوم هي التي نشرت السلبية وروجت الحشيش في مصر والعالم العربي !

مع أنهم في تركيا يزرعون الحشيش ولا يعرفون أم كلثوم . وفي الصين حيث مئات الملايين تتعاطى الأفيون في نهاية القرن التاسع لم يسمعوا حتى عن مصر !

ولا أظن أم كلثوم هي المسئولة الآن عن إنتشار كل أنواع المواد والبودرة المخدرة . ولاهي التي قتلت سيد درويش !

ولما هوجمت أم كلثوم لأنها - أيضا - تغني القصائد الدينية ، قيل أنها تدعو إلى التعصب الديني . فكان لابد من الدعاية لغرور المارونية .

والذين يؤيدون اللهجة العامية ضد الفصحى ، هاجموا أم كلثوم لأنها إتجهت إلى غناء القصائد الشعرية التي لم يكن أحد يسمع بها لولا أنها غنت نهج البردة والهمزية والميلاد وقصائد إبراهيم ناجي وكامل الشناوي .

وهوجمت أم كلثوم أنها حجبت الكثير من المواهب الغنائية عن الظهور . لا بعظمتها وأضوائها الباهرة .. ولكن بشخصيتها والصحف التي تساندها . مثل صحف أخبار اليوم أكبر أوركسترا صحفي

وماتت أم كلثوم وإفتتحت الأبواب والإستديوهات لكل الأصوات من الشرق والغرب . وظل مكان أم كلثوم شاغرا ..

وبدأت « حرب الكواكب » بين الأصوات من الجزائر والمغرب وتونس ولبنان ولم تكد هذه الحرب تبدأ حتى خمدت .. فهي حرب بلا قضية .. لأن أم كلثوم قد ذهبت بجمعها ، أما مقامها ومكانتها وعرشها . فهو كما هو . .

وبدأنا نرى المواقف الهزلية .. واحدة تسمي نفسها « سيدة الغناء » . وهو اللقب الذي أعطته الجماهير لأم كلثوم ..

وأطلقت أنا عليها : سيئة الغناء العربي ..

ولشترت من يقول لها في حفلاتها يا ست .. يا عظمة على عظمه .
فلا هي ست ولا هي عظمة .. ولا هذه أصوات .. وإنما هي شوشرة مأجورة .. وتوالت الوجوه السينمائية على الشاشة . وكما ظهرت إختفت . وسوف تظهر وكأنها لم تظهر . فالفن الجميل إستغناء عن شعبي ..
أما الذي نراه الآن فهي حملات إنتخابية مدفوعة الأجر ..
وليس من الضروري أن يكون صوت آخر يخلف أم كلثوم . أو يكون في مثل عظمتها ، هذا العالم أو الذي يليه أو حتى هذا القرن .. ولكن سوف تظهر موهبة يوما ما . ولكن نحن نستعجل الموهبة لأننا إعتدنا أن نلتف حول أحد .. فالقلب له واحد .. والحب لشخص واحد .. وهذا الواحد نستعيض به عن الأصوات المكسرة التي ليست صحيحة ولا كاملة ..
سألت أم كلثوم عن أحب الأصوات إليها قالت : عايدة أحمد
وعن أظرف الأصوات قالت : شادية
وعن أفقر الناس على تلحين القصائد قالت لي : السنباطي
وعن أعظم الملحنين قالت : محمد عبد الوهاب
وعن الصوت المتميز قالت لي : غرور
وعن الصوت الذي تخرج هي مدرستها الغنائية قالت لي : سعاد محمد
وعن أم كلثوم قالت لي : أم كلثوم !

• • •

كانت أم كلثوم تحب أن تبدو أنيقة ..
وكانت السيدات يتوقعن منها في كل حفلة أن ترتدي فستانا جديدا .. الفساتين هدية تجيء من صديقات عربيات يحضرن من باريس . والتي تفصل لها الأزياء دائما هي مدام فاسو . .
إقترحت على أم كلثوم أن أصور كل أزيائها وأنشرها في مجلة آخر ساعة . وكنت وقتها رئيسا للتحرير وواصلت . .
ورافقني الصديق أحمد يوسف كبير مصوري أخبار اليوم . وكنت حريصا على إنقاذه مما هو فيه .. فقد وقع في الأسر سنة ١٩٦٧ . وحتى لا يعرفه

اليهود ، دفن الكاميرات في الأرض . ودفن معها رغبته في أن يعود إلى التصوير .. فلم يكن من الممكن أن يحمل الكاميرات وأن يصور الذي رآه من إنسحاب القوات المصرية . ولا من الوحشية الإسرائيلية . وأن يعود بكل ذلك إلى « آخر ساعة » .. وكأنه أحس بأنه أهمل في أداء واجبه . .

ولم أكد أعرض عليه فكرة أن نذهب معا إلى « أم كلثوم » أملا في أن يولد على يديها .. وأن تبرق عضلاته أمام غنائيتها حتى وافق فورا ..

وذهبت وأمضينا ساعات طويلة وهي ترتدي فستانا بعد فستان . وتقف كأية مانيكان .. فقد إعتادت أن يتحدث الناس عن صوتها ، لا قوامها ، وعن جمال الأداء لا عن جمال الفساتين .. فكأنها ليست صاحبة أجمل صوت ولكن أجمل فساتين أيضا ..

وأسعدها أكثر عندما عرفت أن الجيل الجديد من الشباب يتزاحمون على حفلاتها وعلى أغانيها القديمة . إذن لقد تكامل حب الناس لها : صوتا وذكاء ومرحا ولباقة ووطنية !

وتهامس الناس بعد ذلك بأن صوتها بدأ « يخمع » . أي ينقص .. وأنها لم تعد قادرة على أن تصعد السلم الذي كانت تصعده مقاما مقاما . الموسيقيون لاحظوا ذلك .. وعشاقها أيضا . ونحبنا جميعا ألا نرى ولا نسمع هذا الذي أمامنا .. وكانت هي أول من أدرك ذلك . وكأنها أرادت أن تثبت لنفسها أنها ما تزال كما هي .. وحاولت وتعبت وبدأ الناس يعربون على ذلك . .

وأدرك الناس أن محمد عبد الوهاب كان حكيما ، عندما انسحب من أمام الميكروفون . تاركا المجال لأصوات شابة أقوى وأقدر .. وإن كان محمد عبد الوهاب « يدندن » أحيانا .. فنجد في ذلك فاكهة نادرة . ولكنه ابتعد .. واكتفى بأن يكون صاحب اللحن والموسيقى !

وذهبت لأرى أم كلثوم لأول مرة . فلم أذهب إلى حفلاتها قبل ذلك . وتألمت كثيرا . فهي تجد صعوبة شديدة في الأداء . وهي تهتز بعنف عندما تعلى بالصوت فجر قادر على الخروج .. فقد إنسد الطريق إليه .. أو هو يتعثر .. ويقال في تلك الليلة أنها بكت .. ويقال أن بعض الحاضرين بكوا . وكانت آخر حفلاتها الغنائية .

ويقال أنها مرضت لما أصابها . وكانت تتمنى لو ماتت في قمتها .
وهي أن أحد الاطباء سوف يعالجها . يعالجها من ماذا ؟! من السن ؟ من المرض ؟
ولكن أحدا لم يستطع أن يقول لها : كفى يا ست !
حاولت فيما كتبت .. واستدرجتها إلى أن تقرأ . فلم تفهم ما ورد .
وعاشت أم كلثوم في قلوب الناس ويقلوب الناس ، وما تزال

• • •

قلت لأم كلثوم . هل تعرفين أنني غنيت إحدى أغنياتك في مؤتمر دولي !
فقالت بسرعة ! ومتى أفرحوا عنك ؟ !
حدث .. كان ذلك مهرجانا للشباب في فيينا . ذهبت شاب صغيرا على أنني طالب ، مع أنني كنت وقتها مدرسا في الجامعة . سألت : إن كان أحد من المصريين قد شارك في هذا المؤتمر . قيل : لا أحد . فقلت : إذن أقوم بتمثيل مصر .
وجلست وبعد أن توالى أعضاء وفود الدول المختلفة . كل واحد يتحدث عن بلاده وعن مشاكل الشباب . فجأة وبسرعة غريبة سمعت من يقول : مندوب مصر يتفضل !
ونهضت والنار في رأسي . لا أرى أحدا حولي . ولا أسمع . فلم يخطر على بالي أن أقف وأن أجيب عن أسئلة كثيرة . وفجأة وكالصاعقة جاء السؤال المدوي : هل يتفضل المندوب المصري فيغني مقطعا من النشيد القومي !
هل تحول الناس إلى موج يعلو ويهبط .. هل اشتعلت النار في هذا الماء . كما يتفجر البركان وسط البحر . هل حريقه كانت في جسمي ، وأن أسمع صوت البحار في أذني .. هل أنا الذي أغني : هلت ليالي القمر

لقد نسيت النشيد القومي .. أو النشيد الوطني . ولم أتذكر إلا هذه الأغنية لأم كلثوم . وحولتها إلى نشيد حماسي ثم عدت إلى مقعدي والصوص تتعالى في كل مكان .. ونظرت حولي .. وانحصرت درجة حرارتي فجأة . وكأن لوحا من الزجاج كان مغطى بالصياب فامتدت يد سحرية تمسحه فرأيت

بوضوح وجوها تضحك .. وعلى المقاعد وساقطة على الأرض .. إنهم جماعة من المصريين جاءوا فى آخر لحظة وسمعونى أغنى للقمر !

• • •

سئل الشاعر الظريف كامل الشناوى : من هم بحلاء مصر ؟

أجاب بسرعة : محمد عبد الوهاب وتوفيق الحكيم وأم كلثوم محمد عبد الوهاب يفضل لك أن تشرب القهوة قبل أن تزوره ..

وتوفيق الحكيم يدعوك بحماس شديد لأن تشرب معه على حساب نجيب محفوظ !

وأم كلثوم تكره أن يمنح أحد هذه السيرة !

• • •

فما الذى تسمعه من الميكروفون وعلى الشاشة الآن .. ؟

إنها أصوات محدودة الدخل .. إن أصحابها من صغار الملاك .. إنهم « فكة » عائلية .. لا مانع . ما دمنا لا نجد أم كلثوم ولا فايزة أحمد .. فالموجود يسد . ولابد أن تصبح المواهب الصغيرة فرصة أن تكبر ، فإن لم تكبر ، فسوف تظهر مواهب أخرى يوما ما .

وقد مرت على مصر مئات السنين قبل أن تظهر أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ ..

والأصوات التى تتزاحم على آذاننا لها صفة واحدة : الجرأة ..

إنها أصوات جريئة فقط . أى عندها القدرة على الظهور والغناء والإستمرار . هى تغنى ونحن نعتاد عليها ..

وبعض الأصوات التى لم تقبلها الإذاعة إتجهت إلى شركات الكاسيتات . تغنى ما يعجب الناس من العبارات العادية والنكت الدارجة . وتكسب كثيرا . وتغنى أيضا فى الحفلات وفى الكباريهات

والأصوات المحدودة جدا تغنى للأطفال . .

وإرتفع أجر الملحنين - وعجز المصريون عن الدفع ولذلك لابد أن يعملوا في أماكن كثيرة قبل أن يتجمع لديهم المبلغ الكبير . فبعض المطربات المغاربة جئن ومعهن الطوس . فكانت لهن الأغاني والفرصة . وتزاحمن على الميكروفون - ووجودهن في مصر دليل على سعة الصدر المصرية . ودليل على أن مصر هي قاعدة إطلاق للصواريخ الغنائية .. والتي لم تطلقها مصر في الفراغ الذي تركته أم كلثوم ، فلا هي غنت ولا أمل عندها في أن تغني بعد ذلك في أي مكان .

تماما مثل فايزة أحمد وصباح ونجاح سلام وسعاد محمد ونور الهدى وعزيزة جلال وسعيدة وعبادة وغيرهن . .

ولكن لم تظهر مطربة واحدة إلى جانب شادية ونجاة ومها صبري وياسمين . فالأصوات التي لديها صغيرة قدرتها تبعث على الأسى والحزن . أو هي قدرات « تقليدية » - قدرتها على تقليد أم كلثوم فقط .. حتى الأداء لا تملك إلا أن تهز كتفيك لـه.. كأنه طالب وقف على كتفك فهززته لكي يقع بعيدا عنك ، بدلا من أن تساعد صاحبات هذه الأصوات ، فإنها تتبارى في التعلق عليها ، لعلها تسقط بعيدا ، لأن مطلبها في أن تعيش ، مبالغ فيه جدا

إستمعت إلى أصوات فرقة أم كلثوم . أغانيها الجماعية ، وأغانيها الفرديه .. ليس لها من أم كلثوم سوى الإسم .. والإثم - أقصد تقليدها !

فأم كلثوم لم تمت هنا وسوف تبقى ما دام الجمال متعة وهدفا .

أما الشيء الذي سوف يموت بالتدريج فهو نحت الموسيقى العربية . فهذا النحت قد طال عمره الإفتراضي . أكثر مما ينبغي .

أم كلثوم هي التي أطالت عمره كما أطالت الأغاني .. ونحن قد قبلنا منها ذلك لأسباب شخصية . أي من أجلها هي شخصيا .

وأم كلثوم مثل يوشع الذي جاء في التوراة ، فقد أشار إلى الشمس ألا تغرب حتى يكمل معركته ، وتوقفت الشمس حتى إنتصر ..

وأم كلثوم هي التي أجلت غروب المسرح الغنائي الشرقي .. وبعد أن غربت أم كلثوم ، فقد جاء دوره لكي يسحب الله بعد الة ، ليظهر النحت الأوربي الياباني ، وتقصر الأغنية ويتحرك المطرب أو المطربة .. وإلا إتجه الناس إلى الموسيقى الغربية الراقصة !

وهى مصر مطربون كان يجب أن يبحثوا عن مهنة أخرى .

وأصوات أخرى كان يجب أن تعنى . صوت ، احمد عدوية ، رأيى الشخصى أنه صوت قوى سليم ، ولكن إختار أن يغنى قبلا وسرا ، وأن يردد كلاما سافلا يجرح به زوار الكباريهات .. وأن يبشر فى السيارات وان يكسب . وقد سبقته هذه السمعة السيئة إلى كل مكان . فهو الذى مد على نفسه الطريق إلى الإذاعة والتليفزيون . وإن كان يتسلل إلى الأفلام . ولكنه لا يطرب أحدا !

إنه المسئول عن ، تزوير ، وتشويه هذه الموهبة الصافية وهو فى حاجة إلى ، توبة ، لكى ينقل إلى الإذاعه والتليفزيون قبل فوات الأوان !

أما أصوات الشباب فهى أيضا محدودة النوع - أى محدودة ومتقاربة وليس قبل وقت طويل نستمع وتتميز بعضها عن بعض . فأصوات بعضها لم يكد يظهر حتى بدأ يذبل ويهوى لأسباب صحيه ، ولأسباب نفسية . ولم يعد يجذبه من الليلة الليلية فى الكباريهات إلا باسمين الخيام وعفاف راضى وهانى شاكر ومحمد ثروت وأحمد إبراهيم وبادية مصطفى .. وكان من الممكن لرأفت الشيخ أن يكون أفضل الأصوات الطالعة ولكن .

وقد سمعت بالصدفة إلى واحدة من أعضاء فرقة أم كلثوم ومن الممكن أن تكون صوت جميلا كما أن ملامحها أفضل وهى حياة محمد ..

وآفة هذا العصر الغناء الليلى مع الدخان والدخين والسهر الذى يشق الحنجرة ويقصف عمرها ..

ولابد أن نواصل البحث عن أصوات جديدة ومواهب شابة .

قال لى طبيب الأذن العالمى روزن أن أم كلثوم معجزة صوتية لأسباب عديدة .

السبب الأول أن صوتها قوى ملىء جميل .

والسبب الثانى أن فى بلاد مثل مصر مليئة بالهواء الفاسد . من الصعب أن تسلم لأى إنسان عين أو أنف أو أذن أو . حنجرة . وقد سلمت لأم كلثوم حنجرتها !

والسبب الثالث أن سلامة حنجرتها قد بقيت زمنا طويلا . لما معجزة الشعب المصرى كله ، أن سلمت له أذنه .. فهو يسمع ويسمع ويدوق وبأعلى صوته يقول : الله - أى أن حنجرته قد سلمت أيضا !

وكنا في « أخبار اليوم » (١٩٧٢ - ١٩٧٦) نمثل أعظم قوة دفاع عن أم كلثوم بكل الأقلام وكل الصحف (أخبار اليوم والأخبار وآخر ساعة والجيل) .. أعظم أوركسترا .. أعظم بحت صحفي .. وكان مصطفى أمين وعلي أمين في مقدمة الذين يسبون لأم كلثوم كل الصفات الجميلة في الحديث والنكتة والفهم والإدراك . ولكن مصطفى أمين وعلي أمين لا يتذوقان الغناء ولا الموسيقى . وكانت أم كلثوم إذا رأتهما في مقدمة الجالسين فرحها تدرعج لأنه لن يمضي وقت طويل حتى يكونا قد دخلا في حديث مع من يجلس إلى جوارهما .. ولابد أنهما يتكلمان في السياسة .. أو يسألان عن أخبار الدنيا .. وكانت تحذرهما من الكلام أثناء الغناء . ويقال أنهما كانا يفعلان ذلك !

وفي إحدى المرات دخلت مكتب علي أمين فوجدته يدور حول المكتب ويقول : الله .. يا أم كلثوم ..

ولم أجد في المكتب صوتا ينبعث من أي مكان .. لا عنده راديو ولا تليفزيون .. ولا يوجد راديو في الشارع .. ولم أكن في حاجة إلى ذكاء كبير لأعرف ما الذي هز علي أمين وجعله يدور سعيدا هكذا . إنه صوت المطبعة .. وهي تدور بلا توقف .

ولكن إعجاب مصطفى أمين وعلي أمين بأم كلثوم بلا حدود . فهي معجبة بهما . وهي قد ساهمت في نجاح أخبار اليوم .. وهما معجبان بالفتاة الريفية غير المتعلمة التي استطاعت بالموهبة أن تمشي على قدميها إلى عرش الغناء وأن تبقى خمسين عاما !

وفي أخبار اليوم تكونت فرقة غنائية ، أطلق عليها كامل الشناوي إسم « فرقة البلابل الموسيقية » وكانت تضم علي حمدي الجمال نائب رئيس تحرير الأخبار وصلاح هلال نائب رئيس تحرير آخر ساعة وعثمان لطفي سكرتير تحرير أخبار اليوم وأنا رئيس تحرير الجيل . وهي صباحية حفلات أم كلثوم نلتقي في إحدى الغرف ونغلق عليها الباب . ونغني ونستمع إلى بعضنا البعض .

وكان يشاركنا عبد الحليم حافظ . وكان ما يزال مبتدئا . غنى فقط أغنيتين صاعيني مرة ويا أبو قلب جافي ..

وكنا نتمنى له أكثر مما كان يغني لنا .. وكنا نحس أننا نتفضل عليه بجلوسه معنا واستماعنا له .. فلم تكن موهبته العظيمة قد ظهرت بعد ..

وكان كامل الشناوى يسخر مما يقوله إن فرقة البلابل قد إنحدت إسمها من « البلبلة » لا من البلبل !

قلت لأم كلثوم ـ مداعبا ـ أن فرقة البلابل تريد أن تستأجر شعة وأنها فى حاجة إلى مساعدتها ، فقالت بسرعة ما دام لا جمهور لكم ، فلماذا لا تعزفون كل واحد فى بيته ؟ !

• • •

وقبل أن تسكت أم كلثوم عن الغناء ، كنا جميعا قد إبتلعنا ألسنتنا وحناجرنا أيضا ، وإن كنا لا نزال ـ والحمد لله ـ ننعم بالتذوق العميق ـ للصوت العميل .. لصوت أم كلثوم ومعجزات غنائية أخرى !

قل لي من أنت؟

قل لى .. من أنت ؟!

س : ما حكمتك ؟

ج : الحكمة : لم أعرف بعد الحكمة وراء كل أى شىء !

س : هل ما تزال طفلا ؟

ج : بالأمس كنت طفلا خائفا من الآخرين ، ثم صرت شابا قلقا على نفسى ، واليوم أكثر قلقا على بلدى !

س : فى أى ظروف ولدت

وفى أى ظروف كنت تحب أن تولد ؟

ج : نحن نولد فى ظروف سبقنا إلى الوجود . ظروف أقوى وأعرب قبل أن أولد قد تحددت ، إلى حد ما صفاتى الجسمية ، وسماتى الأخلاقية ، لأنى سوف أرثها عن والدى .. وسيقضى إلى الوجود ' طبيعتى ولغتى وديني .. وقدرة الأسرة على تعليمى أو عجزها عن ذلك .. وفى حالتى كان عجزها واضحا منذ اللحظة الأولى . ولذلك كنت مهددا بعدم استمرارى فى المدرسة فى أى وقت .

كل ذلك قبل أن أولد .

فلما ولدت . كان من الضرورى أن أعرف وأفهم وأتوافق .. أى كان لابد أن أستعير لغة العصر وأساليب البيئة ، لأصبح قادرا على المسايرة والتقدم .. والتحدى بعد ذلك .

والإنسان . عادة . لا يكون راضيا عن أى عصر يولد فيه . لأنه فى حالة مستمرة للتوافق والتوفيق بين الذى يريده وهو كثير ، وبين الذى يستطيعه وهو قليل .

ومع ذلك فقد كنت أتمنى ، فعلا ، أن أعيش في عصر ، سقراط ، ، وعاطفيا ، في عصر مجنون ليلى ، عصور الاستغراق في شيء كبير ، يجعل كل ما في الدنيا متواضعا .. إلا الحكمة وراء كل شيء ، إلا الحب الذي يستغرق أي شيء .

سقراط كان يقضي اليوم كله يسأل ويتساءل ويجيب هو ..

فإذا قال له أحد : صباح الخير ياسقراط ، أجلسه إلى جواره وسأله : وما معنى الخير ..

ويمضي العمر كله يبحث عن الخير المطلق والخير النسبي ، والشر الأبدي والخير الذي هو ضيف غريب على الأرض ..

وفي عصر المجنون أو الشعراء العذريين أو عصر التروبادور Troubador في أسبانيا فليس هناك إلا الحب والعشق والشوق والحنين والوصال والشعر والموسيقى والنجوم والقمر .. وكل ما في الكون ، كورس ، يغني للمحبين .. والدنيا كلها شهود على ذلك .

س : هل انت إنسان طموح ؟

ج : لم يكن لي طموح في أي وقت .. ولا أعرف كيف انتقلت من حالة إلى حالة .. فأنا كالذي يقف على سلم متحرك .. أو حصيرة متحركة .. أنا واقف وهي تطلع وتنزل أو تتقدم وتتأخر ..

فكما للعصافير أجنحة لكي تطير ، وللأسماك خياشيم لكي تغوص ، فأما لي عينان لكي أقرأ ، وأقرأ وأكتب .. فعالمي محدود شرقا بالكتاب وغربا بالكتاب وجنوبا بدائرة معارف وشمالا بمعارض الكتب .. هذه هي دنياي .. ورق في ورق ..

والقراءة علمتني الصمت الطويل .. أي أن أستمع بعناية فائقة لما يقوله الآخرون ، وبعد ذلك يجيء دوري في التساؤل ثم أستمع .. ثم أتساءل . هذه هي حياتي ..

فالذي كتبت كان بضاعتي أعرضها على الناس .. والناس يرون فيها شيئا جيدا .. ولذلك يختارونني لكي أكون رئيسا للتحرير أو رئيسا لمجلس الإدارة أو عضوا في لجان جوائز الدولة أو يشترون كتبي أكثر من غيري ؟ أي

أن بصناعتي في سوق الكلام هي التي أعطتني هذه الصفات الإدارية أو القيادية .

ولكني لم أقصد ذلك . كل ما قصدت هو أن أقرأ وأن أفكر وأن أكتب .. فإن كان عندي طموح فهو أن أكتب أسهل وأجمل وأمتع .. مائة كتاب ألف كتاب إن استطعت ! .

س : كيف كانت بدايتك الأدبية ؟

ج : أول ما كتبت لم يكن مقالا ، وإنما كان قصة بعنوان « سوزى » .. قصة حب حقيقي ، لأنه حب من جانب واحد .. حب بلا مقابل .. حب أقرب إلى الوثنية . عملا بالأغنية المشهورة : كلنا نحب القمر القمر والقمر بيحب مين .. حظنا مبه النطر والنطر راح يرضى مين !

ولكن هذا هو الحب الوثني ، العشق الإلهي .

وهو حب بائس ..

فأنت عندما تقول للقمر ما أروعك ما أجملك .. تعلم أنه قطعة من الحجر .. له وجهان .. منير حار يطل علينا ، وآخر شديد البرودة لا نراه .. ورغم ذلك فنحن سعداء بهذا الوهم الجميل ..

س : مقال ندمت عليه ؟

ج : لم أكن أعرف من هو يوسف السباعي في سنة ١٩٥٣ . فحررت عشر قصص ورأيت فيها أحسن ما كتب الأدباء في ذلك العام ، ولم أختر ليوسف السباعي شيئا .

فهاجمني قائلا : من أنا حتى أفعل ذلك !

وكان ردي : ومن أنت حتى تقول ذلك .!

ثم قلت : أنت أديب عربان ، وأنصحك أن تعطي دورقين من القوت : إحداهما على عملك !

س : ما صلتك بكتبك بعد أن تفرغ منها ؟

ج : تربطني بمؤلفاتي علاقة غريبة فلا أقرؤها بعد صدورها .. تماما كأحمد سك بعد وجبة أنت طبختها وأنت أكلتها . أو بعد عناق طويل استنفد كل رغباتك وهد حيلك .

تماما ككل أم تعبت في الحمل والولادة والرضاعة .. ثم إنها تهمل بعد

ذلك من جديد .. ويمنحها العمل الجديد مناعب العمل القديم .. وفرحتها بالمولود الأول .. هما بالك بمن يحمل ويلد كل يوم .

فأنا كالنحلة لا تذوق العسل الذى تفرزه .. أو كحيوان اللؤلؤ يظل تحت الماء يذرف دموعا لامعة حتى يفقده الصيادون ويستخرجوا من بطنه حبات اللؤلؤ .. ثم يتركوه متعبا مرهقا تحت سطح الماء .. لكى يبكى من جديد .. وهكذا حتى الموت ..

هذا هو الإحساس العميق الذى أعرفه وأتعذب به .. وفى كل مرة يخيل إلى نفسى أشعر بذلك لأول مرة ثم أتجاوزه إلى عمل جديد .

عندما فرغت من كتابى « فى صالون العقاد » ١٩٨١ فى ٨٠٠ صفحة تصور أصدقائى أننى لن أكتب شيئا بعد ذلك ولمدة عشر سنوات .. لأن هذا الكتاب هو تاج على رأس كتبى .. وإننى سوف أجد صعوبة فى تأليف أى كتاب جديد .. ولكننى أصدرت بعد ذلك ستة كتب من بينها كتاب بعنوان « إلا قليلا » .. هو أول كتاب أؤلفه فى جلسة واحدة استغرقت أسبوعا .. وبعثت به من البيت إلى المطبعة ، فجميع كتبى قد صدرت فى مقالات أو سلاسل ثم جمعتها فى كتاب إلا هذا الكتاب .

واليوم سميت تمثالا كتاب « فى صالون العقاد » × .. ونسيت أيضا .. « إلا قليلا » فأنا مشغول بكتب أخرى كثيرة !

س : هل أنت فيلسوف ؟

ج : أنا دارس للفلسفة ومدرسها أيضا . الباحث عن الحكمة وعاشقها . وسوف أظل كذلك .. هذا قدرى .

وأنا هنا أتمثل موقف أستاذنا العظيم الفيلسوف الألمانى هيدجر ، رائد الفلسفة الوجودية فهو يقول . لقد ركعت عند قدمى سيدتى وأحببت رأسى . وانتظرتها أن تقول لى شيئا وقالت . ولكن الذى قالته قليل جداً ..

أما سيدته هذه فهى « الحقيقة » .. الحكمة وراء كل شىء فى حياتنا وفى هذا الكون ..

ولكننى « ولكنه » سأظل خاشعا صابرا !

س هل كانت لك أعمال أخرى غير الأدب والصحافة ؟

ج . لم أقم إلا بعمل واحد طوال حياتى اكتب :

حتى عندما كنت مدرسا في الجامعة كنت ألقى محاضرات في المبدعريا وتاريخ الحضارة وعلم الجمال . ولم أكن متحدثا ، وإنما كنت أكتب على مسمع من ألوف الطلبة . كنت أفكر بصوت مرتفع أخلط الفلسفة بالأدب بالتاريخ بالكتلة بالواقع . كنت أتدرب عاما على تيسير الكلام وتبسيط المعاني وفك رواسير المعضلات العقلية ..

وكنت أقوم بتفصيل الألفاظ على قدر المعاني .. وكانت عباراتي مثل فساتين صيفية شفافة تعطي المعاني وتفصحها أيضا وبين السر والفصيحة يأرجح جمال الكلام .

ومنذ ذلك الوقت وأنا أعرف أن الفاظي ، معرفة ، ملتصقة بالمعاني .. وأن الكلمات ومعانيها في عناق دائم .

ولابد أن شعوري العميق بأنني أكتب على مسمع من الطلبة هو الذي جعلني أنسى مرضي لمدة سنتين .. فقد نسيت أن أتماثل أجرى على ذلك . ولم أتذكر هذا الموقف العجيب إلا بعد أن تركت الجامعة بأكثر من عشر سنوات .

وفي ذلك الوقت كنت كاتبا مشهورا مشغولا بأن أكتب أسهل وأجمل وامتع ..

فقد كنت في كل الأحوال كاتبا وهذا ما أعتز به .. ولا أعرف إن كان هذا التعبير صحيحا . لأنه لم يكن أمامي خيار : فإما أن أكتب وإما أن أكتب . فأحذرت أن أكتب ! .

س : هل ما تزال تشعر بأنك شاب ؟

ح : لم أشعر بذلك .. ولو فعلت لكتبت الف الف شعرة بيضاء !

س : كيف اخترت زوجتك ؟

ح : يجتمع في زوجتي هذا الذكاء والحساس . أو هذا التألق .. النار التي تدفيء والنور الذي يضيء ..

ولابد أن تكون مزاياها الكثيرة واحتمالها الاستعراضي في عملي ، واستعدادها للتضحية ، والتضحيه دائما ، هو الذي جعلها قدري .

والإنسان لا يكون اعزب متشددا ، لسنوات طويلة . وإنما فقط عندما يبلغ السن التي يراها مناسبه للزواج . ويكون ذلك عادة بعد الثلاثين ..

ولا توجد سن معينة محددة للزواج فكل حسب ظروفه النفسية والاجتماعية . وقد تزوجت في الثامنة والثلاثين .

ولابد أن تكون الصفات الجميلة لزوجتي هي التي دفعتني من اعزب متشدد إلى متزوج أكثر تشددا . أي الجمال والذكاء والتشجيع والصبر على المكاره . والمكاره هي انشغالي كثيرا واستغرافي في القراءة والكتابة .. أي بين الحمل والولادة والرضاعة الفكرية والحمالة العاطفية . والكاتب لايعرف تحديد النسل الفكري . بل إني كثيرا مافكرت في ثلاثة أو أربعة كتب في وقت واحد إلى جانب كتابتي اليومية والأسبوعية والشهرية .. وكثيرا ما كنت في حالة حمل كاذب ، أو جاءت الولادة متعسرة . فالكاتب هو الرجل الوحيد الذي له كل صفات الأنثى .. فلا هو رجل ولا هو أنثى .. وإنما هما معا . أو إنه يتجرد من الذكورة والأنوثة .. تماما كنحلة العسل التي لا هي ذكر ولا هي أنثى ، وإنما هي مصنع رحيق فقط !

والكائن الوحيد في خلية النحل الذي هو انثى : الملكة .. فهي المصنع .. وهي أم الخلية .. والخلية والنحل والملكة والعسل هي الكاتب في كل وقت ؟

ألا ترى أنها مهمة شاقة أن تحمل سيدة وحدها كل هذا العبء . ثم إن هذه الزوجة رغم أنها صاحبة عسل كثير تكتفي بأن تعيش في الظل فمرا بعكس هدوء الشمس الذي هو الكاتب !

س : ما الحب ؟

ج : الحب : عاطفة .. تتولد من الإعجاب والتفاهم والتعود والرغبة في الامتلاك ..

ويكون الحب في الزواج ، ويكون الحب بغير زواج ..

ويمكن أن يقال : من زواج بلا حب نحب بغير زواج !

س : امرأة أثرت في حياتك ؟

ج : قبل الزواج : أمي .

بعد الزواج : زوجتي .

وكانت أمي هي منبع الألم الدائم والعذاب المتدفق وكل ماهو مؤلم مظلم مر .. وليست هي ، وإنما زرعنا على أيامها .. أيام كنت طفلا أتنقل من قرية

إلى قرية وراء أبي .. في ذلك الوقت تعمق عندي الشعور بالغربة والاغتراب .. أحسست أني مثل البدو الرحل .. أو مثل أبناء الحجر ..

أو الشعراء الصعاليك . أو اللامنتمي .. ومن هذه المعاني وتصاريفها تفجر في داخلي إحساس بكل معنى الطبقة الوجودية .

ولكن بعد الزواج تحاول زوجتي أن تقنعني بالأمل ولكني يائس .. وبالتفاؤل ولكني متشائم .. ورغم الخلاف في تكويني وتكوينها فإني قد توافقت معها إلى حد بعيد .. فهي في غايه الحيوية ولكن ليست عندها طاقة .. فهي تستطيع أن تنشط يوما كاملا ، تتحرك وتعمل وتنظم وتنسق وتبني . وبعد ذلك تنهار من التعب أياما طويلة ..

أما أنا فعندي طاقة ولكن ليس عندي حيوية .. فمن الممكن أن أجلس على مقعد واحد ساكنا جامدا كأني قطعة من الحجر يوما كاملا ، وإن تحركت فلكي أقلب صفحة في كتاب .. ومن الممكن أن أغلق بابي يوما أو عشرين يوما ، أقرأ وأكتب .

وزوجتي اجتماعية ، ولست كذلك . وهي شديدة الحساسية بالآخرين وبما هو واجب ، ولست كذلك . وهي مجاملة إلى أبعد درجة ولست مجاملا درجة واحدة . فمن دعاها إلى الحداء . دعته إلى الحداء والعشاء . وأما أنا فأنسى أني تعذبت ، أو أن أحداً قد دعاني إلى شيء من ذلك .

فالزواج قد أدخل في حسابي ، بعدا ، اجتماعيا وبعدا أخلاقيا ، وبمرور الوقت ، وجدت ان الحق معها في معظم الأحيان ..

وهي ناقد عنيف .. لا تجامل ولا ترحم . وأكثر المقالات التي أوجعت رأسي ، هي التي لم أشعر فيها بالآخرين . وهي أول من يقول لي ذلك . وتثبت الأيام صحة رأيها ودقة ملاحظتها وعمق إحساسها . واستمراري في الخطأ ..

وعندي نظرة ، أحادية ، .. فأنا أكتب كأنه لا أحد هناك .. وسبب ذلك موقفي المتباعد من الناس . أي حرصي على أن تكون هناك مسافة .. ومادامت هناك مسافة فكل شيء يبدو صغيرا ، فأرى الأشياء عموما لا خصوصا .. والناس خصوصيون عادة . أي يهتمون بأنفسهم أكثر من أي شيء آخر . يهتمون بالجزء الذي هو أنفسهم ، ولا يهتمون بالعموميات وهنا وقع في الخطأ !

أى إننى مادمت أتعب فى التفكير والتعبير ، أى مادمت جادا ، فإننى أحب أن يكون الناس كذلك ـ هذا أمل !

ولا أقول أن هذه كانت نظرتى دائما ، فكثيرا ماأحببت اللعب والمزاح والسخرية والاستخفاف دفعا الملل اليومى وصيقا بالمنطق ، ودغدغة للحياة الراكدة .. فالكاتب الجاد يتعب ، ويريد أن يتحلل من قيود العقل وأن يتخفف من الملابس الاجتماعية ، ويرتدى المايوه ـ حتى ولو لم يكن هناك شاطىء أو يمشى حافيا عاريا .. ، كثيرا ما أسىء الناس فهم الكاتب بل إن الكاتب عندما يتوجع ويشكو لقارئه ، فإن القارىء يصيق بذلك قائلا : إننى تعبان ولا تنقصنى متاعبك !

فمهمة الكاتب أن يخفف عن الناس ، لا أن يصب على رؤوسهم متاعبه ومصائبه ـ وهذا حق للقارىء لولا أن الكاتب بشر ، فهو الآخر يتعب .. كالطبيب يمرض ويموت ـ فالكاتب لا يملك بساط الريح وعصا موسى وخاتم سليمان ومال حاتم وجن شمشون ..

والكتابة ـ كل أنواع الكتابة ـ هى ترجمة ذاتية .. فالكاتب يكتب عن نفسه فى مواجهة الآخرين ، وهو يصف الدنيا كلها ـ من خلاله هو ، أى مرورا بعقله وقلبه وأعصابه وخوفه وشجاعته وبأسه وأمله ـ فكل شىء هو : أنا .. مروراً .. بالأنا ..

وعندما يتمنى الكاتب ويقول : أنا يرد القارىء عليه .. بل أنا !

* * *

س : فالذى تتمناه للعرب ؟

ج : أريد أن ينبت للعقل العربى عقل !

* * *

س : أى جيل هذا ؟

ج : هذا الجيل هو جيل التحولات الاجتماعية والسياسية الكبيرة والخطيرة بين البرامج التى قدمها الثوار المصلحون !

* * *

س : هل تغير العرب ؟

ج : لم يتغير العرب .. فكل عناصر ضعفه قديما أصبحت هي أسباب الضعف .. فنحن نتكلم لغة واحدة ، ولنا دين واحد وتاريخ واحد وجغرافية واحدة ..

ولكن ينطبق علينا ما قاله الكاتب الساخر برنارد شو على الإنجليز والأمريكان . إنهم شعب واحد تفصل بينهما لغة واحدة !

وكذلك نحن العرب ..

وليس بيننا إلا كلام في كلام . ولذلك ينطبق عليه ما قاله كاتب سعودي ساخر هو الأستاذ الصيمي : إن العرب ظاهرة صوتية !

* * *

س : ما السياسة ؟

ج : السياسة : هي فن المحالة الأنيقة !

* * *

س : ما أعظم التحديات ؟

ج : أعظم تحديات العرب : العرب وإسرائيل !

* * *

س : أنت تكرر كلمة « المسافات بيننا دائما » فما معناها ؟

ج : أم تفسير هذه العبارة التي سأولدها في كتاب « وداعاً أيها الملل » ثم في كتاب « نحن أولاد العجز » وهي كتاب ثالث .. « إلا قليلا » فهو أن نشأتي الريفية الحانقة القلقة جعلتني أتعرج على المجتمع من بعيد دون أن أشارك فيه . ولو أردته ما استطعت

فقد طفولتي وأنا أكثر الناس إحساسا « بالمسافات » التي بيننا . بيني وبين الناس .. فالانتقال من مكان إلى مكان جعلني كما يقول المثل اليوناني القديم : كالحجر المتحرك لايبنت عليه العشب ؟! ولم يبنت عشب الصداقة والعودة والألفة والقرب والعربي . فكنت أرى من بعيد وأصادق من بعيد .. وأذهب إلى بعيد في المكان وفي الحيال .. ولذلك لم يكن غريبا أن أوى إلى الكتب ..

اسكن فيها وأسكن إليها .. عالم جميل أنيق ولكنه ليس واقعيا .. فأصدقائي أحياء ، وعائلتي فلاسفة ولذلك لم أشعر بالأمن والأمان .. لم أعرف الدعة فأنا في مهب الريح .. لم أعرف الظل ، لأنني لم أجد الشجر . ولم يبت العشب على أحجاري ، لأنها لم تعرف الاستقرار . والسياسة علاقات واستغلال للعلاقات ، والسياسة هي التوفيق بين الناس . معهم وضدهم . والسياسي كالسمكة .. تقاوم الماء وتتحرك فوقه ولاتمشي بعيره .. والسياسة .. هواء .. تطير به وعليه وضده ..

ولست سياسيا وإن كان أستاذنا أرسطو يقول : الإنسان حيوان سياسي . أي انه يفكر في حياته وربطها بالآخرين ولكن لست مشتغلا بصفة خاصة بالعمل السياسي . وإنما أشتغل بالفكر السياسي . ولست من رجال الدولة . وكان من الممكن أن أكون منذ عشر سنوات وزيرا للثقافة . وأحمد الله أن هذا لم يتحقق . فأنا مازال في حاجة إلى تثقيف نفسي ، قبل أن أشتغل بتثقيف الآخرين .. ولو عاش سقراط وفرض عليا دولته المثالية لكنت في صدرها قد راستي الفلسفية تؤهلني إلى ذلك ، أما أعمالي الأدبية والنقدية فسوف يكون مكانها في الصناديق الأنيقة للربالة !

ولكن في غياب هذه الدولة التي لن تتحقق في أي وقت ، نحن جميعا في الصدارة وعند القمة . قمة الفكر . وإن كنت لا أعرف أين القمة وأين القاع .. فالإنسان إما أن يفكر وإما أنه لا يفكر . وأنت تكون حيث تضعك قصايدك . أو أنك حيث تضع قصايدك . أي تحدياتك ؟

* * *

س : كم يبلغ طولك ؟

ج : طولي ١٧٩ سنتميترا . هذا إذا وقفت على الأرض .. أما إذا وقفت فوق كتبي فإنني أضيف إلى ذلك أمتارا عديدة ..

وأكثر الناس لا يقفون على أقدامهم .. وإنما يقفون كما يجلس حيوان الكانجرو على ذيله .. وذيلي وذيلك هو تاريخي !

ولذلك فأنت أطول مما تتصور !

ويقال أن ملكة جمال تزوجت رجلا قصيرا قبيحا . وسألوها . فقالت مستنكرة : هل لأنه قصير .. ولكن عندما يقف على قدميه كم يبدو عملاقا !

س : أنت تقول انك ماتزال طفلا فما معنى ذلك ؟

ج : لا أزال ذلك الطفل الذى يصحو مبكرا لكى يباكر قبل أن يذهب إلى المدرسة . فى الساعة الرابعة من صباح كل يوم . أجدنى على مكتبى أقرأ وأكتب حتى العاشرة ، اذاكر كأنى أمتحن كل يوم !

* * *

س : أنت وأصدقاؤك ؟

ج : لدى إحساس بأننى مثل حيوان القطط لا أقترب كثيرا من الناس حوفا من أشواكهم ، وأما أننى لم اعرف طعم الصداقة . لذلك لا أفتقدها . لأن الإنسان لا يطلب المزيد من طعام لم يتذوقه . وأما أننى مثل إيكاروس أول إنسان طار بأجنحة من الريش الصقت إلى ذراعيه فاقترب من الشمس فذاب الشمع من ريشه .. فسقط ميتا . وأما إننى أشبه السمكة المعروفة فى « ألف ليلة وليلة » التى اقتربت من جزيرة المغناطيس فجذبت مساميرها فتحولت إلى ألواح خشبية . وغرق كل من فيها . فأنا أخاف مصير إيكاروس وأخاف مصير سمكة ألف ليلة وليلة !

أتمنى أن يكون لى هذا الصديق العزيز ، لولا أن هذه الدنيا لا فيها صديق ولا لها عزيز !

* * *

س : أنت حزين ؟

ج : الذى أحس به ليس حزنا ، وإنما هو قدر كبير من اليأس يدوب فى مقادير أخرى من التشاؤم وسوء الظن وانعدام الحكمة وراء كل شىء ..

ولذلك فأنا متشائم حاليا ، متفائل أحيانا !

الفرح لحظات .. فلا يطول جلوسه ، ولا نطول وقوفه .. إما لأنه كذلك وإما لأننى لا أتوقعه !

* * *

س : ما مشكلات العصر ؟

ج - أهم مشكلات العصر : القلق لانعدام الشعور بالأمان !

* * *

س : ما قضيتك ؟

ج : الإنسان قضيتي ..

فأنا أحب أن أرقب الناس .. وأن أفهم وأن أحلل وأن أعاود النظر والمتابعة والملاحقة . وليس الإنسان وحده : قضيتي .. وإنما الحكمة وراء هذه الحياة .. هذا الوجود .. فلست في حاجة إلى أن أنظر إلى النجوم في السماء لأعرف عظمة الخالق .. بل إن خلية واحدة تحت الميكروسكوب قادرة على أن تؤكد عجزي عن فهم حكمة الله .. وتؤكد عظمة الله التي لا حدود لها .. وهذا العجز يجعلني أتواضع كثيرا جدا عندما أتحدث عن العقل والفكر والإنسان .. فلا أقطع برأي أو بنظرية .. وإنما أسرف في استخدام كلمات مثل : ربما .. يجوز .. لعله ..

فمن الصعب أن أقطع بصحة شيء ، أو أقطع ببقين في أي أمر من أمور الحياة الإنسانية ..والحيوانية والنباتية .. والصخرية .. فالصخور لها حياة ولها عقل . وهذه أحدث نظرية في العالم .. وتلك قصة طويلة !

فالكون له عقل واحد ، وله لغة واحدة .. وله منطق واحد .. والله من وراء ذلك محيط .. هذه هي تحديات العصر . وهي كبرى تحديات من يفكر في نفسه وفي غيره !

وأنا واحد من ملايين المفكرين الذين يمسكون مصباح الفيلسوف الإغريقي ديوجين ويبحثون عن إنسان في وضح النهار ..

لولا أن هذا المصباح في داخلي أحاول به أن أنير أعماقي لكي أراني وأراك !

وقضيتي الخاصة هي صدى كل ذلك .

فليست عندي إلا هذه الموهبة القوية في أن ألمس بأصابعي هذا الكون . وأن أقيس السماء بالشبر .. وأن أحتضن الأبدية .. وأن أعتصر النور في قلمي : سهولة ووضوحا وجمالا ومتعة .. وألا أكون قادرا على ذلك حتى الموت !

س : من أنت في هذا الكون ؟

ج : لن أقول ما قاله ججارين الرائد السوفيتي للفضاء وأول رائد في التاريخ عندما دار حول الأرض على ارتفاع مئات الأميال : ولكني لم أجد الله ؟!

إنه جاهل .. فأنا لست في حاجة إلى أن أرتفع عن الأرض شبرا واحدا أو مليون مليون ميل لكي أرى الله .. إنه هنا .. في نفسي .. في عقلي .. في أصغر خلية من خلاياي ..

أما ججارين فهو راكب سيارة جاهل . بل إنه يريد زعزعة علمية يدبرونها من الأرض ..

وماهذه الأرض .. إنها قطعة من الحجر تدور حول نفسها أمام الشمس .. وما هذه الشمس .. إنه نجم ملتهب . واحد من ملايين النجوم في « المجرة » .. وما هذه المجرة إنها واحدة من ملايين ملايين المجرات في هذا الفضاء الذي لانعلم عنه إلا القليل جدا !

وإذا وقفت فوق أبي الهول فإنني أرى ذلك الطفل الذي دخل مكتبه وجلس ثم أمسك كل الأوراق التي كتبها في ساعات ومزقها جميعا .. ثم نزل هادئا كأنه لم يفعل شيئا .. ذلك الطفل الصغير جدا أمام عشرات الألوف من الكتب . هو أنا . لأن بيننا قريب من أبي الهول !

• • •

س : بسرعة : ما الحب ؟

ج : الحب تعبير مهذب عن رغبة غير مهذبة !

• • •

س : امرأة بكيت عليها ؟

ج : بكيت على امرأتين : أمي .. ومارلين مونرو !

• • •

س : رجل بكيت عليه ؟

ج : وعلى رجلين : أبي .. والأستاذ العقاد !

س : ما معنى وراء كل رجل عظيم امرأة ؟

ج : وراء كل رجل امرأة أو أكثر ..

أو المرأة . أى تجاربه مع المرأة التى هى أمه وزوجته أو التى أحبها أو التى قرأ عنها أو التى رآها .. أى هو الإحساس بالمرأة ..

وليس من الضرورى أن يكون الرجل عظيما ، لتكون وراءه امرأة .

ولكن إذا كانت وراء العظيم امرأة ، فلابد أن نصدق باعباء العظمة .. أو مقتضيات العظمة ، أو تكاليفها النفسيه والاجتماعية

وإذا كانت المرأة ، رغم هذه الأعباء تقف وراءه فمعنى ذلك أنها تحمل متاعب العظمة وترتضيها وترى أن هذه المتاعب هى توأم العظمة .

وبقاء المرأة وراء الرجل سببه أن المرأة تنظر إلى الرجل على أنه « مشروع » .. على أنه « خطة » هى تحرص عليها وعلى تنفيذها على أحسن وجه ..

وترى فى نجاحه نجاحا لها ، وفى فشله سقوط له ولها . فإذا نجح فهى التى صممته وإذا فشل فلأنها قد بعدت فى تقويمه وإدارته ودفعه إلى الأمام !

* * *

س : ما أقوى امرأة فى العالم ؟

ج : أقوى امرأة : شجرة الدر .

كانت مملوكة فتزوجت ملكا وحكمت فى ظله ولما مات تزوجت رجلا لا تحبه ، لتظل فى الحكم .. وأرغمته على أن يطلق زوجته . ولما علمت أنه يفكر فى الزواج من غيرها قتلته بالخيانة . وواجهت زملته .. وقتلت ابنه .. وواجهت رجال الدين وفى مقدمتهم قاضى القضاة العنيف : العز بن عبد السلام .. وهاجمها خدامها . وقتلوها بالعذاب ، تماما كما قتلوا انديرا غاندى .. ولكن قبل أن يقتلوها قالت لهم : قبل أن تقتلونى أعصبوا عينى حتى لا أراكم .. حتى لا أرى خدمى الذين توهمت أنهم مخلصون لى ، يقتلونى .. أعصبوا عينى حتى لا أرى كاذبى أقل بصرى !

ولم يشعر خدامها بهذه السخريه بهم والاحتقار لهم !

وقتلوها !

س : ما نصيحتك لهذا الجيل ؟

ج : يتعلم الجيل الحاضر ما يريد أن يتعلم أو ما يجب أن يتعلم . ولكن ليس من الضروري أن يتعلم ذلك فكل جيل . مثل كل شاب . عنده اعتزاز شديد بنفسه وأنه أقوى وأذكى وأطور . وأنه على نفسه . وليس في حاجه إلى الآخرين .

وقد علمتني التجارب أن الناس يكرهون النصيحة وأن أحدا عندما يطلب إليك النصيحة فهو يطلب عادة أن تؤيده في وجهة نظره . ونصيحتي إليك ألا تنصح أحداً !

• • •

س : ماذا يخيفك ؟

ج : إنني أخاف على الأطفال والرجال . على مستقبل الإنسانية فالعلم الحديث لم يسعد البشرية ، إلا بقدر أن يشعبها ويعذبها أيضاً فنحن بالعلم ، نى بالعقل نقضي على العقل !

س : ما صيغة الصراع الآن في العالم ؟

ج : القوة : حق !

والحق : قوة !

هذا هو الصراع الدائم بين العلمة والأنبياء . بين كل موسى وكل فرعون وسوف يبقى هذا الصراع إلى الأبد .. مرة تجلس القوة على العرش ، ومرة يجلس الحق .

وقد كان الحق ، ولا يزال ، غريباً ولذلك بعث الله أنبياءه ومعهم خطابات ، توصية ، .. التوراة والإنجيل والقرآن ، لعل الناس يؤمنون بالذين يحملون هذه الخطابات .. حتى يكون الحق قوة !

ونحن نعرف ما الذي أصاب الأنبياء ، وما الذي يصيب الطغاة .. وسوف يبقى الصراع إلى نهاية الإنسان !

وموسى عليه السلام هو الذي وصف نفسه في أرض المعاد ، أو على مشارفها بأنه : الغريب في الأرض الغريبة !

والرسول عليه السلام يقول : بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدا . أى الحق غريب فى أرض القوة ..

• • •

س : كيف حالنا نحن العرب ؟

ج : حالنا نحن العرب يبدو كأننا فى نهاية الدنيا .. أو نهاية الحضارة العربية .. تماماً كأننا فى الأندلس أو كأننا فى نهاية الإمبراطورية الرومانية .. أى أننا فى حالة من التفكك والتحلل والانفلات .. فى نهاية الخط الحديدى .. أو عند الغروب .. فالصعب واضح : اختفاء الرأى وانعدام الرؤية . فليست هناك نظرية . وليس هناك الرجل القوى القادر على تطبيقها أو على فرضها على الجميع .. ولذلك لم يعد الهدف واضحاً أو تعددت الأهداف والطرق .. حتى ضاع الهدف الواحد الذى نريده .. وتداخلت الطرق فلم يعد هناك طريق ..

ونحن أمام هذه النهاية أو الشعور بها ، وواجب المثقفين أن يوضحوا ذلك وان يدفعوا الشعوب بعيداً عنها .. أو يؤجلوا هذه النهاية الحزينة .. النهاية المأسوية للأمة العربية .. أو الشعوب العربية ..

انى : إنسان عقلاً وقلباً .. والذى يستيقظ فى أعماقى هو ، الإنسان البدائى ، .. إنسان الكهف . وقد تدربت طويلاً وكثيراً على التسلط عليه .. ومشكلتى هى أننى أروض وحشاً فى داخلى ، فصدرى هو قفص يضم عدداً كبيراً من الوحوش والطيور الكاسرة . وأنا صاحب سيرك .. وبسبب العشرة الطويلة تجدنى أحيانا مثل مربى الكلاب أو الخيول أو الصقور .. وفى هذه الحالة وبسببها لا أعرف أين الوحش وأين الإنسان فى داخلى وخارجى !

• • •

س : من نحن الآن ؟

ج : الإنسان ملك وهو يحلم ، وشحاذ عندما يصحو من النوم !

فالرومانسيون ملوك ، والواقعيون متسولون ..

وإذا أحببنا فكلنا شعراء ، وإذا صحونا من أحلامنا فكلنا مدرسون

ومحلمون وقضاة ومحامون ولكن ما هذا الذى يمكن أن نسميه رومانسياً .. إن الحب عندنا : بكاء وعذاب .

وإذا سمعت أغانى أم كلثوم فأنت أمام من يحب ويتمنى أن يظل يحب بغير نهاية وبغير أمل ، فنبقى فى حالة من العذاب الدائم ، والهوان الأبدى .

وإذا نحن انشغلنا بالسياسة ، أى بإدارة شئون الشعوب ، فنحن أمام المواجع المسرحية . القتل والتضحية .

فنحن إذن « دراميون » . أى دراميون رومانسيون !

• • •

س : كلام .. كلام .. ماذا تقصد بذلك ؟

ج : ليس من قبيل الصدفة أن تظهر الديانات السماوية فى هذه المنطقة من العالم : توراة اليهود وإنجيل النصارى وقرآن المسلمين .. وقبل ذلك الزرادشتية وبعد ذلك البهائية كلها تعتمد على « الكلمة » :

وأول عبارة فى الإنجيل : فى البدء كان الكلمة .

وفى القرآن : اقرأ .

ولذلك فنحن نعيش ونموت بالكلام .. وسوف يبقى كذلك !

• • •

س : هل كل معلوماتك مؤكدة ؟

ج : لست على يقين من أشياء كثيرة !

• • •

س : ماذا تريد ؟

ج : أعرف نفسى ، لكى أعرف غيرى .. فأعرف الحكمة وراء كل شىء !

• • •

س : هل أنت راض ؟

ج : أكثر الأحيان لست راضيا .

• • •

س : ما الذى تقوله كثيراً ؟

ج : إننى أتحدث عن صمتى كثيراً ؟

• • •

س :أنت معقد ؟

ج : الناس كالأقمشة : أقمشة غليظة الخيوط ، ولذلك عقدها واضحة . وأقمشة من حرير لها عقد أكثر ولكن لأن هذه العقد متجاورة تماماً ، فليست واضحة !

• • •

س : ما هوايتك ؟

ج : مع الأسف لست لى هواية !

• • •

س ماذا تقول فى نهاية المشوار ؟

ج لم يبدأ المشوار . فأنا ما أزال فى الطريق .. وهو طريق بلا نهاية .. وربما هناك محطات أتوقف عندها لكى أوقع فى نهاية كتاب فرغت منه .. وأستأنف المسيرة فى كتاب آخر حتى الموت . أرجو ذلك !

• • •

س : هل هناك ادباء شبان ؟

ج : نعم : ولكن من الصعب الحكم عليهم قبل ان تظهر ملامحهم !

• • •

س : ما هو الأدب ؟

ج : الأدب : ترجمة ذاتية . فكل الذى أكتبه هو عن نفسى وعنها . فإذا تحدثت عن الجبل أو البحر أو السماء فإنى أتحدث عن إحساسى بالجبل فى تلك اللحظة .. ومن الممكن أن أكتب عن الجبل عشرين مرة بعد ذلك .. وفى كل مرة سوف نجد تعبيراً مختلفاً ، أى إحساساً مختلفاً ، ولذلك ما كتبته عن الأستاذ العقاد فى كتابى « فى صالون العقاد » كان عن جبلى ، وكان عن قلقى وحيرتى بين المذاهب والأشخاص وهى مواجهة العقاد الذى اعجبت به إلا قليلاً واختلفت معه . فأنا كتبت عن العقاد الذى أراه أو الذى أحب أو لا أحب أن أراه ..

فأنا - إذن - أكتب عن نفسى فى جميع الأحوال ..

• • •

س : ما الطغيان ؟

ج : الطغيان يعمل بالناس ما فعلته عصا موسى بثعابين آل فرعون .. فموسى ألقى عصاه فإذا هى حية تسعى تلتهم حيات سحرة فرعون . وكذلك الطغيان : إرادة فرد تلتهم إرادات الآخرين !

• • •

س : ما خلاصة تجاربك فى الحياة ؟

ج : لا أعرف خلاصة لتجربتى فى الحياة .. فى كل مرحلة من مراحل الحياة ، كانت عندى حكمة .. وتجاوزتها سنوات .. ثم اكتشفت معنى جديداً ..

وخلاصه هذه التجربة ، إذا كان ولابد من خلاصة فهى : أنك لست مهماً جداً كما تتصور . وبدونك سوف تستمر الحياة ولكننا نحن الذين نجعل لحياتنا أهمية . ومن غير هذا الشعور ، فلن يكون لحياتنا معنى . ولكن يجب ألا تسرف فى أهميتك وفى ضرورتك ، وفى أن الكون يعتمد على وجودك .. فأقرب الناس إليك سوف يعيش من غيرك ، وربما أفضل وسوف ينسى دورك فى حياته . فأنت مهم جداً عند نفسك وعند من يحتاج إليك .. ولكن انت وكل الناس ، وهذه الأرض ، والحضارة الإنسانية ، لا أهمية لها وإنما نحن مثل العنكبوت نعزز خيوطنا ... هذه الخيوط هى بيت العنكبوت .. وهى مصيدة صحراوية وهى معيشه أيضاً . المطلوب أن نتواضع كثيراً ولعلنا نحط أننا ننسى كل ذلك ولو تذكرنا هذه المعانى ما أكلنا ولا شربنا ولا نام لنا جفن !

• • •

س : هل أنت ملتزم ؟

ج : إذا كان الالتزام معناه : أن أكون مسئولاً عن كل كلمة قلتها وعن قضايا بلدى وعصرى ، فأنا ملتزم ...

• • •

س : ما ثروتك ؟

ج : لا عندى ثروة حقيقية ولا ثروة وهمية ..

وكان من أحلامى أن أعيش فى جمهورية أفلاطون ، حيث لايملك أحد شيئا .. وإنما يكفى أن يأكل ويشرب ويفكر ! !

• • •

س : ما الذى أعطته لك الصحافة ؟

ج : أعطتنى بعض القوة ، وأخذت بعض الحرية !

• • •

س : ماذا أخذت من الكتابة السياسية ؟

ج : حصدت من الكتابات السياسية : صداقات وهمية وعداوات حقيقية !

• • •

س : ما الذى ينقص المثقف العربى ؟

ج : المثقف العربى تنقصه الثقافة !

• • •

س : قل لى حكمة ؟

ج : استعيرها من صديقى امير الشعراء المعاليك ، عروة بن الورد :

دربنى للغنى أسعى فانى
رأيت الناس : شرهم الغنى
وأتقاهم وأهونهم عليهم
وان أمسى له حسب وفير
يباعده القريب وتزدريه
حليلته ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال
يكاد فؤاد لا قيه يطير
قليل ذنبه ، والذنب جم
ولكن للغنى رب غفور !

ولكنى أختلف مع أمير المعاليك فى معنى الغنى والفقر وأتمسك بالحديث النبوى الشريف الذى يقول : إنما الغنى غنى النفس

نحن أولاد الفجر

وأنا صغير كنت أرى عدداً من الناس ، نساءً وأطفالا ورجالا يعيشون في أطراف مدينة المنصورة .. إنهم أناس مثلنا ولكن السبب لا أعرفه كان الناس ينظرون إليهم بشيء من الخوف والاحتقار ، ولم أجد سببًا لذلك إلا أنهم يعيشون في خيام . والخيام قد امتلأت بهم وبحيواناتهم وطيورهم . ولم أجد في ذلك شيئًا غريبًا .

وعندما اقتربت من أحد الأطفال وجدته مثلي تمامًا . يريد أن يلعب . وقد لعبت ، وجاءت أمه وطلبت إليه أن يكف عن اللعب وأن يهتم بالصغير والطيور وإلا . وقبل أن يرد عليها الطفل كانت قد صفعته على وجهه . ونظرت بحبي بقسوة شديدة وكان لا بد أن أترك المكان

ولم أجد في ذلك شيئًا عجيبًا فقد عرفت الضرب والصفع والركل من والدتي ، ولأسباب من هذا النوع وربما لأسباب أتفه كثيراً .

وفي يوم أتيت معي بطعام وظللت واقفًا بالقرب من هذه الخيام وكان في نيتي أن أقدم هذا الطعام إلى صديقي « حسان » إنه أحد الأطفال . أجده لطيفًا وأجدني حريصًا على أن أجلس معه وأن نلعب معًا . وكان يحدثني عن الذي تفعله أمه بأبيه .. قال إنها تضربه كثيراً . وقد أدهشني ذلك . فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها أن أمًا تضرب أبًا ..

ولم يظهر « حسان » . وألقيت بالطعام إلى الكلاب . وعدت إلى البيت حزينًا .

وسمعت والدتي وصديقات لها يتحدثن عن هؤلاء الناس .. هؤلاء العجر ، وكيف أنهم يسرقون الملابس والطعام والطيور وأي شيء . ثم يحملون خيامهم ليلا . ويذهبون إلى مكان آخر .. فهم لصوص متجولون . وسمعت أن أحدا لا يعرف من أين جاءوا أو إلى أين ذهبوا . إنهم هكذا يعيشون على الحدود ..

---

* من كتاب « نحن أولاد الفجر »

على حدود العدن .. وعلى حافة التجمع . وعلى المسافة الضيقة بين اللصوص والخروج عليه .

هل لأنهم عجز هم لصوص ؟ أو هل لأنهم لصوص قرروا أن يكونوا عجزة ؟ أى أن يكونوا مجموعة من الناس تعيش معا وتهرب معا ، ولا تبقى فى مكان واحد ، حتى لا يكتشف أمرها ، ويعاقبها الناس ..

ولم أشعر لحظة واحدة بالضيق من هؤلاء الناس . أو بهذا الاحتقار لهم . إننى لا أوافق على أنهم يسرقون ، ولكن أجد فى أعماقى عذرا جاهزا لهذه السرقات فأقول لا بد أنهم محتاجون إلى الطعام ولو أعطاهم الناس ما سرقوا ، ولو كانت لهم بيوت ما سرقوا ثم إنهم ليسوا اللصوص الوحيدين . فالذين لهم بيوت يسرقون والذين يملكون الكثير يسرقون أيضا إننى لا أنسى قرعى يوم رأيت البوليس يلقى القبض على أحد أقاربى وكان ابن العمدة . ثم تهمته فإنه قد ساعد عددا من الفلاحين على سرقة جواميس وأبقار ! وسمعت وأنا صغير أن العمدة كان غنيا وأن هذا هو ابنه الوحيد !!

وفى أول رحلة إلى أوربا سنة ١٩٥٠ قرأت فى الصحف لإيطالية أن ملكة العجز قد ماتت ولم أفكر فيمن تكون . ولا معنى أن للعجز ملكة . ولكن ركبت القطار وذهبت إلى حيث بينها وحدارتها ووقفت فى طابور المعزين . وبرلت الدموع من عينى . ووجدت من يسألنى : من أى البلاد أنت ؟ فقلت : من مصر .. أى من عجز مصر !

ولا أعرف إن كان الرجل قد أدهشه ذلك . ولكن كنت قد استسلمت لإحساس غريب فى أعماقى . إنهم عجز . وهم لذلك يثيرون العطف والحزن . لماذا لم أفكر كثيرا فى ذلك ؟

واتجهت أدرس حياة العجز . تلك الجماعات الضالة فى أوربا شرقا وغربا . ووجدت أن الأغلبية العظمى من العجز يعيشون فى بولندا ورومانيا .. وأن عددا كبيرا منهم يعيشون فى أسبانيا .

ولا أنسى كيف اهتزت أعماقى يوم رأيت فيلم « غراميات كارمن » بطولة ربما هيوارث وجلين فورد . والقصة من تأليف الأديب الفرنسى ميريميه ..

ولا أعرف كم عدد المرات التى رأيت فيها "أوبرا" كارمن ، ولا أعرف لماذا تمتعت عيناى أكثر من مرة .. إن كارمن غجرية جميلة وعندها شجاعة وشخصية وجراة واعتزاز بنفسها ، ورغم أنها لا تقف على أرض ولا تربطها أسرة طويلة عريضة وتشدها حضارة عربية أو شرقية . فإن يبنوع قوتها يتفجر من أعماقها . وهذا الينبوع يتدفق قوة وجمالا وجلالا .. وهى عندما تقف وحدها فإنها مثل مليون امراه قد تحولت جميعا إلى خلايا حية فى جسم امرأة واحدة تكاملت محاسنها ، وتعاظمت مفاتنها . هكذا رأيتها .

وكتبت كثيرًا جدًا عن هذا الفيلم وكيف أن عبارة واحدة قالها بطل هذا الفيلم قد غيرت مجرى حياتى . وجعلتنى أتحول من مدرس فى الجامعة إلى أديب فقط وحريص على أن أظل كذلك . أما العبارة فهى أن الإنسان ليس دائمًا مايفعله ..

أى أن الإنسان لا يمكن أن نحكم عليه بما يفعله لأنه من الممكن أن يكون قاتلا وهو مضطر إلى ذلك . ويكون لصًا وهو مرغم على ذلك . وكان البطل يفعل بالضبط مايفعله الغجر . مع أنه ليس غجريًا . ومن الممكن أن يفعل الإنسان أى شيء ، وهو فى أعماقه شيء اخر . ووجدت هذه العبارة تنطبق على حياتى بعد أن تخرجت فى الجامعة فقد اتجهت إلى التدريس . ولكنى لا أحب ذلك واتجهت إلى الطريق الاكاديمى الجاف القاسى . ولكنى لا أحب ذلك ولا أقدر على هذا الاحتراق العظيم العظيم الاحترام .

ولما رأيت هذا الفيلم للمرة الثانية أى ثلاثين عاما لم أجد هذه العبارة التى زلزلت وجودى . لم أجد المعنى الذى يشير إليها ! إذن فهذه العبارة قد خرجت من أعماق لأنها أعماقى . وجاء هذا الفيلم تصويرًا جميلا أنيقًا لها ..

واكتشفت أنى واحد من أبناء الغجر ....

فقد تنقلت طويلا فى الريف المصرى . . كان والدى يعمل فى أماكن كثيرة . ونحن وراءه نجرى ونلاحقه ، ونسرح على الريف المصرى ولا نثبت على أرض . ولا نثبت لنا علاقات اجتماعيه : الأصدقاء والأقارب والجيران .. فكأننا نعيم فى جحيم على أطراف العدم . ولأسباب ليست واضحة نصنع جحيمنا .

ولأسباب ليست واضحة بعد حيناً وتحملها . ثم تمضي إلى مكان آخر ..

وعرفت طفولتي الخوف معنى ، المسافة ، فأنا على مسافة من الناس ، وأنا في حالة من الخوف . من الذي جعل هذه المسافة بعيدة . لا أعرف ، من الذي وسائدي أحاسبني ؟ لا أعرف ، ولكن لم يشعر بالدفء .. ولم يشعر بالأنس . لم يجد العشيرة .. لم تعرف المودة . ولا حرارة اللقاء ، ولا ثقل العناق .. لم ير الأيدي تمتد للسلام ، ولا عند الوداع .. فحن نجيء ولا يشعر بنا أحد ، ونعيش ولا يدري بنا أحد ..

هل هناك يد تمتد حقيقة تزرعنا في أرض غريبة ثم تعود مرة أخرى فتنقلنا إلى أرض غريبة ولم أشعر لحظة أني نبات زرعوه ثم اقتلعوه .. وإنما كنت أشعر أني نبات ملقى دائماً بعيداً . ثم أنقل من مكان وألقى فيه ، ثم إلى مكان آخر وألقى فيه .. وكان استقبالنا أبداً لماذا ؟ لا أعرف وعرفت مع الليل المزيد من الخوف ..

وقد كان بيتنا في أطراف القرى وقد رأيت الذئب والثعالب تعتدي على طيورنا أبداً وأحياناً سمعت من أمي أن اللصوص أيضاً .. لقد كنت أحس أنني أتنفس حالاً من ابتداء العصر فهم قادرون على السطو والسرقة والقتل . فالناس يخافونهم ، وهم لا يخافون الناس . أما نحن فقد كنا وحدنا في أطراف القرى وحدنا في بيتنا . هان أمرنا على الناس وعلى الذئاب والثعالب .. ومهما أغلقنا الباب والشباك ، فنحن في خوف من أشياء كثيرة .

لم نكن جماعة من الناس يشد بعضنا أزر بعض .. وإنما كنا وحدنا .. أسرة صغيرة قلقة حائرة ، مصيرها ليس بيدها . وحياتها ليست من اختيارها . بل لا حساب لها . عدانها في أيدي الآخرين .. وإذا جاءها الليل ، ازدادت فزعاً .. وإذا انتقلت من الخوف الذي نعرفه ، فإلى المجهول الذي لا نعرفه .

وعرفت النظر إلى الأشياء والناس من بعيد . فكل شيء بعيد لأنني أقف وأجلس وأنام بعيداً عن كل الناس .

وعندما كبرت وعندما استقر رأسي على كتفي ، ووجدت ما أملأ به هذا الفراغ ، ووجدت ما يميزني عن غيري من الصغار .

عندما تعرفت في الدراسة . وعندما حفظت القرآن الكريم وتعلمت الشعر

احسست دائما أنني أنتسب إلى قصيلة أخرى من الناس . إلى طراز مختلف بعيدا ومن الخير أن يكون كذلك لكي نرى أوضح ونسمع أصفى ، ونفكر أعمق ونحس ذلك سجد نفرادياً ، وتكلمها العزلة المقدسة .. عزلة الزهاد في الأديرة والعلماء في المعامل والزعماء في القمم . عزلة حيوان سولتز يقرر مصيره القصية وحده بعيد عن بقية الكائنات البحرية وحدة نوتة القرار تقرر تحريرها .. وحدة الجنين في بطن أمه وحدة يوسف في البئر . وحدة يونس في بطن الحوت . وحدة روبنسون كروزو في جزيرته وحدة النبي في الغار . وحدة علماء المراصد يعلقون عيونهم بين النجوم . وحدة رواد الفضاء . وحدة الفنان عندما يبدع وهناك حكمة تقول : إنه لا يقدر على المعزلة الكاملة إلا إله أو حيوان ولعل قرأها الشاعر الألماني حينما أكملها هكذا : أو هما معا !

أي الإله الحيوان . أي الإنسان . العبقري الذي به قبس من الله ، وبه غرائز الحيوان أيضا .

ويقول الفيلسوف الألماني شوبنهور : قل لي كم ساعة تجلسها مع نفسك ، أقل لك من أنت إن قلت نصف يوم في كل يوم ، كنت إنسانا .. وإن قلت نصف يوم من كل يوم كنت عبقريا . وإن قلت لا يوم في أي يوم فأنت حيوان !

فرأيتها فقلت يا أنا !

نحن أولاد العصر .. نحن العبقريون ننتسب إلى نوعية أخرى من الناس نعيش بعيدا لنرى أقرب ونسمع أوضح نحن سلالة نوح عليه السلام .. إنه بعد (آدم) أبو البشرية كلها .. وهو الذي حمل في سفينته بذرات الحياة كلها . (من كل زوجين) اثنين كما يقول القرآن الكريم .. وكأن سفينة نوح وسط الطوفان خلية معزولة عن الحياة .. ولكن من هذه الخلية المنعزلة راحت الدنيا تصبح بالحياة

كتب للمؤلف

١ ـ مقـــالات ـ

١ ـ وحدي ـ ومع الآخرين
٢ ـ عذاب كل يوم
٣ ـ طريق العذاب
٤ ـ يسطق الحائط الرابع
٥ ـ كرسي على الشمال
٦ ـ ساعات بلا عقارب
٧ ـ مع الآخرين
٨ ـ بدايا كل شيء
٩ ـ بعض أولاد الدهر
١٠ ـ من نفسي
١١ ـ شيء من الفكر
١٢ ـ حتى أنت يا آن
١٣ ـ لو كنت أيوب
١٤ ـ أصداء وصرخاء
١٥ ـ كل شيء نسبي
١٦ ـ الحذاء الهوى
١٧ ـ إنها الأشياء الصغيرة
١٨ ـ يعيش ـ يعيش
١٩ ـ مواقف ١
٢٠ ـ مواقف ٢
٢١ ـ موقف ٣

ب ـ قـــصص

٢٢ ـ عربة فلان
٢٣ ـ هي وغيرها
٢٤ ـ بدايا كل شيء
٢٥ ـ يوم بيوم
٢٦ ـ يا من كنت حبيبي
٢٧ ـ قلوب صغيرة
٢٨ ـ شارع الشهداء
٢٩ ـ عرق الركبه
٣٠ ـ هذه الصغيرة وقصص أخرى (مترجمة)
٣١ ـ الأطفال الصغيرة
٣٢ ـ عروس فاطمه
٣٣ ـ الغرباء مترجمة
٣٤ ـ أنين ، أنين

جـ ـ دراسات

٣٥ ـ الزوجوية
٣٦ الحب والقبلات
٣٧ ـ التاريخ ثياب وأصفر
٣٨ من أول نظرة
٣٩ الحائط والدموع

٤٠ . الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل)

٤١ - وجع في قلب إسرائيل

٤٢ - دبلمات أخرى

٤٣ - على رقاب العباد

٤٤ - الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله

٤٥ - دراسات في الأدب الأمريكي

٤٦ - دراسات في الأدب الايطالي

٤٧ - دراسات في الأدب الالماني

٤٨ - فلاسفة وجوديون

٤٩ - فلاسفة العدم

٥٠ - وداعاً أيها العالم

٥١ - الذين هبطوا من السماء

٥٢ - الذين عادوا إلى السماء

٥٣ - أرواح وأشباح

٥٤ - القوى الخفية

٥٥ - لغة الفراعنة

٥٦ - أوراق على شجر

٥٧ - في السياسة جزء ١

٥٨ - في السياسة جزء ٢

٥٩ - وكانت الحمة هي الثمن

٦٠ - الوان من الحب

٦١ - أظافرها الطويلة

٦٢ - الدين والديمقراطية

٦٣ - الاحزاب في انكلترا والاسلام

د - ترجمة ذاتية :

٦٤ - طلع البدر علينا

٦٥ - قالوا

٦٦ - عاشوا في حياتي

٦٧ - في صالون العقاد كانت لنا أيام

٦٨ - إلا قليلاً .

هـ - رحلات :

٦٩ - حول العالم في ٢٠٠ يوم (الحائز على جائزة الدولة التشجيعية ١٩٦٢)

٧٠ - بلاد الله .. خلق الله

٧١ - أطيب تحياتي من موسكو

٧٢ - أعجب الرحلات في التاريخ

٧٣ - البس ذلك المجهول

٧٤ - غريب في بلاد غريبة

٧٥ - أنت في اليابان

و - مسرحيات :

٧٦ - مدرسة الحب

٧٧ - حلمك ياشيخ علام

٧٨ - عين قتل عين

٧٩ - العبقري

٨٠ - الأحياء المحاورة

٨١ - حمدية كل وأشكر

٨٢ - سلطان زمانه

٨٣ - حفلة بنج

٨٤ - مش رقم ٣

٨٥ - كلام لك ياحجارة

ز ـ ترجمـــة :

٨٦ ـ ترجمة (رشموتوس العظيم) تأليف (ديرنمات)

٨٧ ـ ترجمة (هبط الملاك في بابل) تأليف (ديرنمات)

٨٨ ـ ترجمة (زيارة السيدة العجوز) تأليف (ديرنمات)

٨٩ ـ ترجمة (التيهاب) تأليف (ديرنمات)

٩٠ ـ ترجمة (زواج السيد مسيسبي) تأليف (ديرنمات)

٩١ ـ ترجمة (هي وصفاتها) تأليف (ديرنمات)

٩٢ ـ ترجمة (أمير الأراضي البور) تأليف (ماكس فريش)

٩٣ ـ ترجمة (من أجل سواد عينيها) تأليف (جيرودو)

٩٤ ـ ترجمة (بعد السقوط) تأليف (أرثر ميللر)

٩٥ ـ ترجمة (فوق الكهف) تأليف (نس وإيامز)

٩٦ ـ ترجمة (الأميراطور جونز) تأليف (يوجين أونيل)

٩٧ ـ ترجمة (تعب كلها الحياة) تأليف (يونسكو)

٩٨ ـ ترجمة (الباب والشباك) تأليف (أراموف)

٩٩ ـ ترجمة (ملح على جرح) تأليف (أرابال)

١٠٠ ـ أنعم النفس أيها الشعراء

١٠١ ـ مذكرات شاب غاضب

١٠٢ ـ كتاب عن كتب

١٠٣ ـ غرباء في كل عصر

١٠٤ ـ لحظات مسروقه

١٠٥ ـ أيها الموت لحظة من فضلك

١٠٦ ـ السيدة الأولى

١٠٧ ـ عبد الناصر

١٠٨ ـ شباب .. شباب

١٠٩ ـ الذين هاجروا

١١٠ ـ جسمك لا يكذب

١١١ ـ ما لا تعلمون

المحتويات

صفحة

مقدمة ٩
كل مايؤلف فى الريف لايموت فى المدينة ١٧
حالة فزع فى نصف الليل ٣٥
جاء الحب .. ذهب الحب ٥١
فيافيب وموسيقى والمستقبل ٦٩
أهلا أستاذنا دكتور هرش ٨٩
شجرة الدر ماما وبناتها والأيام المنسية ١٠٣
شجرة الدر لآخر مرة وجاء لطفى السيد ١٢١
شجرة الدر آخر العنقود ١٣٥
شجرة الدر لآخر مرة ١٥٣
اللهم أحمنى من فولتير ١٦٩
نكلم .. حتى أراك ١٨٥
لكن سقراط لايعيش فى بولاق الدكرور ٢٠٣
كأنها نهاية العالم ٢١٧
ولا هذا ولاذاك .. أو الاثنان معاً ٢٣٣
من هنا بدأت كل متاعب المستقبل ٢٤٧
هؤلاء الصغار .. وآمالهم الكبيرة ٢٦٧
موعد فى الكباريه . ولكن الملك لم يحضر ٢٨٧
فى البدء كانت كارمن ٣٠٣
وقررت إنهاء هذه الطفولة المتأخرة فكتبت ونشروا ٣٢٥
شاعر الكوخ : لم يلتفت إليه أحد ٣٤١
موم : واحد من العظماء ٣٥٧
كامل الشناوى : شاعر الشظايا ٣٦٩
الحكيم ثائراً ٣٨٣
قال توفيق الحكيم وقلت ٣٩٣
الذى هو توفيق الحكيم ٤٠٣
توفيق الحكيم وراءه راضيا وأمامه يائساً ٤١٣

صفحة

أصبحت من أهل الكهف ١٢٣
ثلاثة مؤلفين يبحثون عن مخرج ١٤٠
توفيق الحكيم قديما مايزال جديدا أيضا ١٥٩
مورافيا : الطريق إلى النار ١٦٣
من الذى ليس عدوا للمرأة ؟ ١٧٥
طه حسين ممسح بنا الأرض .. والسماء أيضا ١٩٣
عثرت عن حب هذا الرجل الرافعى ٢٠٧
أهلا بك فى مصر .. ضيف مصر العظيم « ديزلمات » ٢٢٣
زيارة الفيلسوف اللا معقول ٢٣٥
حياته .. كلماته .. هذه قاعدة ٢٤٩
ريلكه : الناى الحزين على الإنسان ٢٥٩
رجل عظيم من أسوان ٢٨١
واتسعت الدنيا وظلمت ، ووجدتنى مواطنا عالميا ٢٩٩
الطلق الوحودى ومشاكل أخرى ٣١٧
حتى إذا ظهر الطفل المعجزة قتلناه ٣٣١
إنها أم كلثوم الله .. الله .. ياست ٣٤٧
قل لى .. من أنت ؟ ! ٣٦٩
نحن أولاد العصر ٣٩٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص.ب ٢٣٥ الرقم البريدى ١١٧٩٤ رمسيس
www.egyptianbook.org
E-mail: ein@egyptianbook.org